أعلام المسلمين
٣٠

السلطان عبد الحميد الثاني

آخر السلاطين العثمانيين الكبار

بقلم
الدكتور محمد حرب

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين
٣٠

السلطان عبد الحميد الثاني

آخر السلاطين العثمانيين الكبار

١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ
١٨٤٢ - ١٩١٨م

بقلم
الدكتور محمد حرب

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١

السلطان عبد الحميد الثاني

هـذا الرجُـل

- إن السلطان عبد الحميد، كان يهدف من سياسته الإسلامية، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين.

آرنولْد توينبي

- عبد الحميد الثاني، واحد من أعظم الشخصيات المفترى عليها في التاريخ.

آت صزْ

(كاتب تركي)

- إن تصرف عبد الحميد تجاه الحركة الصهيونية، كان معناه أن يتسبب في هدم تاجه وهدم عرشه.

حسام الدين أرتورك

(عقيد بالجيش التركي)

- يرحم الله عبد الحميد. لم يكن في مستواه وزراء، ولا أعوان ولا شعب. لقد سبق زمنه. وكان في كفايته ودرايته وسياسته وبعد نظره، بحيث استطاع وحده بدهائه وتصرفه مع الدول، تأجيل انقراض الدولة ثلث قرن من الزمان. ولو وجد الأعوان الأكفياء والأمة التي تفهم عنه لترك للدولة بناء من الطراز الأول.

سعيد الأفغاني
(أستاذ جامعي وكاتب)

- أيها السلطان العظيم، لقد افترينا عليك دون حياء.

الدكتور رضا توفيق
(أكبر مفكر في حركة الاتحاد والترقي)

- أَتعرف يا جمال ما هي مصيبتنا؟!.. قمنا بالانقلاب ونحن آلة في يد الصهيونية ولم نكن ندري. كنا أغبياء.

أنور
(من كبار الثوار ضد السلطان عبد الحميد)

الإهــداء

إلى فضيلة الشيخ

أبي عثمان موسى طوب باش

بكل الصفات السامية التي رأيتها ولمستها في فضيلته: الطلعة النورانية، والتواضع الجم، والوقار، والصلاح والزهد وتقوى الله ـ جلّ جلاله ـ والفضل والجود والسهر على مصالح المسلمين، وكل القيم والمعاني الإسلامية التي منّ الله ـ عزّ وجل ـ بها عليه.

المدينة المنورة

١٤٠٩ ـ ١٩٨٨

الدكتور محمد حرب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لا يدَّعي هذا الكتاب أنه أحاط بكل جوانب السلطان عبد الحميد وعهده عِلماً. لكنه يدَّعي أنه وضع أمام القارىء الصورة الأكثر إمكاناً لهذا الموضوع، مستخدماً المتاح ـ حتى الآن ـ من أدوات الكتابة التاريخية في وضع السلطان عبد الحميد في إطار عصره، التاريخي والسياسي والفكري.

عني هذا الكتاب بدراسة العوامل التي كوّنت أسلوب السلطان في التفكير، ودراسة العوامل التي أثّرت فيه، وفي أسلوب تعامله. هذا الأسلوب الذي جعله عرضة لهجوم الأدباء والشعراء في أوربا وفي أمريكا وهجوم وسائل الإعلام الغربية في الغرب والمتغربة في الشرق فضلاً عن هجوم السياسيين الغربيين عليه. وفي ذلك العهد لم تكن أوربا تخفي أنها بصدد قهر العالم الإسلامي، بقهر عبد الحميد، وكانت تصرّح أنها بصدد إزالة الدولة العثمانية من التاريخ بإزالة عبد الحميد من رياسة الدولة العثمانية. وبعد القهر والإزالة يأتي التطبيع، يعني: تطبيع الشعوب التي كانت تتألف منها الدولة العثمانية بالطابع الأوربي، وقد حدث هذا وما زال يحدث.

اتفقت بريطانيا ـ وكانت هي القوة العظمى ـ مع روسيا على عمل عسكري مشترك لإسقاط السلطان عبد الحميد من على العرش، وتراجعت الدولتان. فاستعاضت بريطانيا عن ذلك بمؤامرات محلية فشلت. ثم أخذت أوربا بسياسة النفس الطويل لإسقاط السلطان، بأيدي محلية من أبناء الدولة العثمانية عقولها أوربية. ونجحت أوربا ونجحت القوى اليهودية ـ الصليبية المشتركة وسقط عبد الحميد ـ رائد الجامعة الإسلامية ـ من على العرش، لكنه لم يسقط من الضمير الإسلامي، ولم تسقط مكانته في التاريخ.

والذين كتبوا قبلي في موضوع هذا الكتاب ـ وهم قلّة ـ أصحاب فضل بما قدموه، بما أسعفتهم في ذلك وسائلهم وتكوينهم الثقافي، وهم ـ إن شاء الله ـ مأجورون بما قدموه وبنياتهم. وجزاهم الله خيراً. إلاّ أني أستأذنهم، وأستأذن القراء، السماح لي بالقول: بأن هذا الكتاب الذي بين أيديهم هو أول دراسة في اللغة العربية متخصصة، يكتبها متخصص في التاريخ العثماني. وبالله التوفيق.

المدينة المنورة
١٤٠٩ ـ ١٩٨٨

الدكتور محمد حرب

الباب الأول

عبد الحميد الثاني

مقدمات عهده - فترة حكمه - منهجه في التفكير

الفَصْل الأوَّل
مُقَدمَاتٌ
عَهْدِ السُّلطَان عَبْد الحَمِيد

١ ـ العثمانيون المتأخرون، يبحثون ـ بعد تدهور دولتهم ـ عن وسائل للنهضة:

كانت الدولة العثمانية ملء سمع الدنيا وبصرها، والقوة الدولية العظمى التي تؤثر في مجرى الأحداث العالمية، وينظم العالم كله سياساته حسب اتجاه هذه الدولة الكبرى. هذه الدولة الكبرى ضمت بين جوانحها أقواماً مختلفي العروق واللغات وامتدّ رسمها في التاريخ قروناً طوالاً في مدة زمنية لم تحظ بمثلها دولة قبلها. كانت حضارتها مكتملة الأوصاف؛ خلاصة المدنية الإسلامية على مدى القرون التي سبقتها، فقد سارت عليها وزادت وطوّرت حتى اكتسبت ذروة التطور المدني الإسلامي في كل مناحي هذا التطور.

ثم أتى على الدولة العثمانية حين من الدهر، توغلت فيه باسم الإسلام ورفعاً لرايته، إلى داخل أوربا، مروراً ببلغاريا واليونان

ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ثم النمسا. وأمام أسوار «فيينا» عاصمة النمسا، توقف السيل العثماني الإسلامي الجارف الهادر. ووجد العثمانيون أنفسهم ـ لأول مرة ـ لا يستطيعون التقدم والفتح ومواصلة المد الإسلامي، الذي خرج من جزيرة العرب ووصل إلى أوربا الغربية مروراً بشمال إفريقيا، والذي توقف عند حدود فرنسا.

وعندما استعصت أسوار فيينا على الفتح العثماني، وانقلب الانتصار الدائم، إلى هزيمة، والسيل الجارف، إلى بحر راكد نظر العثمانيون إلى حالهم يتدبرونه فوجدوا أنه لا بد من بحث عن وسائل للنهضة لكي يستمروا. ورأوا ضرورة القيام بإصلاح بل إصلاحات في شتى مناحي حياتهم.

لاحظ مصلحوهم: ابتداءً من عهد السلطان مراد الثالث؛ أن الفساد مستشرٍ في أجهزة الدولة الإدارية. ووصل هذا الفساد إلى تدخل ممن لا مسؤولية له، ولا صلاحية في شؤون الدولة، وبالتالي: ظهرت تمردات في الأقاليم، وفي الولايات التابعة للدولة، وما صاحب هذه التمردات من فوضى وصلت إلى ظهور التمرد في عاصمة الدولة نفسها، مما أحدث الخوف على وحدة الدولة السياسية. وبالتالي ظهرت حاجة الدولة ابتداء من النصف الأول من النصف الثاني من القرن الحادي عشر = القرن السابع عشر الميلادي، تلك الحاجة الملحّة للإصلاح. وأصبحت هذه الحاجة، هي الشغل الشاغل لجهاز الحكم في أيام السلطان عثمان الثاني ومراد الرابع.

٢ ـ محاولة العثمانيين المتأخرين البحث عن وسائل لنهضتهم في إطار الإسلام:

كان الفكر الذي استندت إليه هذه الحاجة إلى الإصلاحات ـ في البداية ـ هو: استلهام الإسلام والتاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية. كان الفكر السائد يقول: إن تطبيق الشريعة الإسلامية والنظم الإسلامية في مختلف مؤسسات الدولة سيعيد إلى الدولة قدرتها وقوتها من جديد.

طلب السلاطين رأي المفكرين العثمانيين، فقدم هؤلاء النصح والتوجيه في رسائل أو ما يُسمى اليوم تقارير تحمل أفكارهم. وفي مقدمة هؤلاء بل وأشهرهم، هو الضابط العثماني في البلاط السلطاني: قوجي بك الذي قدّم تقريراً للسلطان يقول فيه: «إن تطبيق الشريعة الإسلامية وأحكامها بقوة وحزم هو العامل الأساسي في وقف تدهور الدولة وحفظ الأمن ووقف التمردات والفوضى في البلاد، ومن ثم تستطيع الدولة التقاط أنفاسها لتتفرغ لإصلاح نفسها، وإن المسلمين إذا استجابوا لدواعي الشرع بقوة، سيرجعون إلى عهد الفتوحات».

ولم يُقَدّر لهذه الدعوة أن يستجيب لها أحد وبالتالي فلم يُعمل بها.

* * *

حاقت بالدولة هزائم عدة، وفقدت الدولة أجزاء كبيرة من أراضيها، وسيطر الأعيان والأشراف وأصحاب العصبيات المحلية على مجريات الأمور في الولايات، مما نتج عنه: اهتزاز السلطة

المركزية في استانبول. وأرهقت تكاليف الحروب ـ التي تهزم فيها الدولة باستمرار ـ الناس بالضرائب وبخاصة من الفلاحين وأصحاب الإمكانات المالية المحدودة، مما نتج عنه هجر العمل بالزراعة، والهجرة إلى المدن. وأدى التهاون في تطبيق الردع بالطرق الشرعية إلى فساد الجيش وسيطرته على الأمور الاجتماعية وخروجه عن دائرة اختصاصاته. ووجد الجنود والضباط في هذا الفساد مرتعاً خصباً لهم أدّى إلى زيادة نفوذهم، وبالتالي: إلى وقوفهم أمام كل حركة تبغي في الدولة إصلاحاً[1].

٣ ـ البحث عن وسائل للنهضة وتنظيم الدولة وفق تنظيمات المنهج الغربي:

وفي منتصف القرن الثاني عشر الهجري = بدايات القرن السابع عشر الميلادي كانت حالة الدولة العثمانية قد بلغت أشد حالات فسادها، بينما كانت أوربا تتقدم في كل النواحي المدنيّة.

لذلك قام بعض المفكرين العثمانيين بالقول بضرورة الاستفادة من التقدم الغربي الأوربي، لضمان المحافظة على

---

(١) تقدّم دائرة المعارف الإسلامية (التركية المترجمة) في مادة تنظيمات ـ وهي مادة مؤلفة، مؤلفها الأستاذ جواد أَرَنْ ـ تطور المحاولات الإصلاحية في الدولة العثمانية وبخاصة عهد التنظيمات. و «رسالة قوجي بك» فيها وجهة نظر هذا الضابط المؤرخ المصلح العميق الفكر. انظر عن قوجي بك، مادة قوجي بك في دائرة معارف اللغة التركية وآدابها. المجلد الخامس ص ٣٨١ ـ ٣٨٢.

* وردت المصادر هنا في هذه الدراسة في ترجمة مسمياتها إلى اللغة العربية لذا يُرجى الرجوع إلى قائمة المراجع التركية وترجمة عناوينها.

وحدة الدولة العثمانية، وعلى دوامها واستمرارها. ومن ثم أصبحت البلاد أمام بداية لحركة إصلاحية تستلهم الغرب.

وأول حركة إصلاحية بهذا المفهوم كانت في عهد السلطان أحمد الثالث. وتذكر في المصادر العثمانية باسم «عصر اللاله» أو «عصر زهور شقائق النعمان» نسبة إلى الأخذ بالمظهر دون الجوهر وإلى الاهتمام المتزايد بهذه الزهور في كل أرجاء العاصمة العثمانية.

يشكل هذا العهد ـ بحركته الإصلاحية بوجهتها الغربية ـ ابتداء نفوذ الثقافة الغربية والحضارة الغربية في الدولة العثمانية. وأخذت الدول الأوربية تكتسب في بلاد المسلمين ميادين للعلاقات الثقافية بجانب علاقاتها السياسية بالدولة.

تجمّع حول السلطان وصدره الأعظم بطانة، هي زمرة من المثقفين اتفقوا جميعاً على أن الحل في سلامة بلاد المسلمين يكمن في أوربا. لذلك أخذت الدولة بإرسال السفراء إلى باريس وفيينا بقصد التعرف على أوربا. ومن أشهر سفراء هذا العهد: هو السفير العثماني محمد جلبي المشهور بلقب يِرْمِي سَكِزْ الذي سافر إلى فرنسا عام ١١٣٣ هـ = ١٧٢٠ م.

أورد هذا السفير في تقريره ـ عن مهمته ـ الذي قدّمه للسلطان معلومات ذكرها مدح فيها مدحاً مُبالغاً فيه الحياة الاجتماعية في فرنسا. وكذلك أحوالها السياسية والثقافية ومؤسساتها العسكرية وفخامة القصور الملكية الفرنسية. وفي ذلك الوقت، كانت القصور السلطانية العثمانية ما زالت تتميز بالبساطة.

وكان لهذا التقرير تأثيره الهام في «إيقاظ انطباع إيجابي جديد عن أوربا، في نفوس السلطان ورجال الدولة»(٢).

* * *

أيقظ هذا العهد في نفوس العثمانيين، الميل إلى تقليد الغرب، والتعامل معه ومع الحياة الأوربية. فأخذ السلاطين يشيّدون القصور الفخمة، وما إلى ذلك. وبالتالي ظهر في بلاد المسلمين طراز جديد من الحياة، فتح الطريق إلى الإسراف وحياة الترف المبالغ فيه. وظهر ما أسماه بعض المؤرخين باسم «ابتلاء» الملابس الفخمة، المحلاة بالمجوهرات، والأحجار الكريمة، واستخدام أدوات الزينة في القصور بمثل هذا. مما أدّى بالتالي إلى غنى العاملين في ميدان بيع الذهب وتوسعهم،

---

(٢) لمزيد من المعلومات عن هذا السفير وسفارته إلى فرنسا، انظر سفارته الصادرة في حروف تركية لاتينية قام بها عبد الله أوجمان في سلسلة الألف كتاب وكتاب التي تصدرها جريدة ترجمان التركية في استانبول رقم ٨٢. وهذه السلسلة لا تحمل تاريخ الإصدار. وانظر كذلك فائق رشيد في كتابه السفراء العثمانيون وسفاراتهم ص ٥٣ ـ ٥٨ وهو صادر في أنقرة عام ١٩٦٨. وهذه السفارات حملت صفة الاطلاع على أوربا للإصلاح، وتعكس تفكير المسلمين وهم يرتادون أوربا للأخذ منها. وتصور ذبذبة المثقف المسلم بين اعتزازه بتراثه وبين عدم معرفته بماذا يأخذ من أوربا وماذا يترك، وتبين هذه السفارات بدايات انسلال أو تسلل الروح الأوربية في بلاد المسلمين، وقد وَجَّهتُ أحد الزملاء الشبان لدراسة هذا الموضوع القيّم في تاريخ الفكر في بلاد المسلمين، لرسالة للدكتوراه، لكنه انصرف عنه.

انظر أيضاً: أنور ضيا قارال، التاريخ العثماني، الجزء الخامس، صفحة ٥٦.

بل وإلى انتقال تجارة الذهب من أيدي التجار المسلمين إلى أيدي التجار النصارى. وبالتالي لم تستطع الدولة القيام بإصلاح جوهري ما.

ونتيجة لاستخدام نفوذ الدولة في السوء، ونتيجة لفرض الضرائب المكلفة الباهظة، ساد الشعور بعدم الرضا تجاه السلطان وتجاه إدارته. وبالتالي ظهر تمرد مشهور باسم تمرد باطرونا خليل عام ١١٤٣ هـ = ١٧٣٠ م. وساد البلاد نوع من العصيان الشعبي، واستياء المحافظين من فكرة الإصلاح الذي يستلهم الغرب منهجاً له. وفتح هذا الشعور بالتالي قيام المحافظين بعد ذلك بالتحالف مع الإنكشارية ضد كل إصلاح يتخذ أوربا مثالاً له أيّاً كانت فائدته.

ومن أسباب الضيق بحركة الإصلاح على النمط الغربي، ذلك الموقع الخاص الذي احتله أهل الذمة في مؤسسات الدولة العثمانية، بحيث أصبحوا يتميزون على الموظفين المسلمين. وقد ضمنت الدولة لأهل الذمة هذا الموقع المتميز، بإصدار قوانين خاصة بهم. واستفادت الدول الأوربية من وضع هؤلاء، للدعاية الواسعة للتنصير. وأدت الدعوة إلى التنصير إلى الدعوة إلى القومية، ومن ثم إلى الانفصال عن الدولة الأمر الذي أفسح الفرصة لحدوث تمردات في الأماكن التي يعيش فيها نصارى الدولة(٣).

* * *

(٣) راجع مادة تنظيمات المشار إليها سابقاً جـ ١١ ص ٧٠٩ ـ ٧٦٥/ ١.

وبمعاهدة الامتيازات مع فرنسا عام ١١٥٣ هـ = ١٧٤٠ م حصلت فرنسا رسمياً من الدولة العثمانية على حق حماية الكاثوليك. وفتحت فرنسا بذلك، الباب أمام الدول الغربية الأخرى، للحصول على امتيازات مشابهة. فحصلت روسيا على حماية الأرثوذكس الموجودين في شتى أنحاء الدولة العثمانية بموجب معاهدة قاينارجه عام ١١٨٨ هـ = ١٧٧٤ م.

تسبب كل هذا، بالتالي، إلى إيقاظ التعصب المذهبي، والفتنة الطائفية، والتشدد الديني، والشعور القومي، ضد الدولة العثمانية. وهكذا تحول أهل الذمة إلى عنصر جديد وهام في إفساد الوحدة السياسية في الدولة العثمانية، وفي قيام الحركات الاستقلالية عن الدولة في أماكنها الأوربية.

وكان تشخيص رجال الدولة للفساد الحاصل في الدولة، على المستوى الثقافي والديني والسياسي، خاطئاً من حيث الأساس. كل ما ساد تصوره وقتها أن الدولة العثمانية تُهزم في الحروب؛ إذن فالوسيلة الوحيدة لإعادة بنيان الدولة يكمن فقط في إقامة جيش جديد قوي.

وبالتالي جاء السلطان سليم الثالث، وأراد إصلاح الدولة، وإعادة قوتها السابقة إليها، فركز كل جهوده على الساحة العسكرية مستعيناً بأوربا. ومع ذلك فقد كان له اهتمامه بالاستفادة من التجارب الأوربية في مجال العلم والتكنيك. لكن هذه الحركة التي قام بها سليم الثالث، لم يُعدّ لها الإعداد الكافي، والإعداد يحتاج إلى تمهيد وإلى وقت. لكنّ أوربا

استفادت من وضع أهل الذمة في الدولة، ومن مظاهر هذه الاستفـادة إقامة فرنسا مدارس في دالماسيا، على نظام ثوري قومي. وأرادت أوربا إشاعة الأحاسيس القومية بين العثمانيين عن طريق المؤسسات التعليمية الأجنبية(٤).

قام الجيش العثماني بالتمـرد علـى السلطان، نتيجة إنشائه لجيش جديد عـلـى النظام الأوربي في تمرد يُعرف باسم مصطفى قاباقجي في ٢٥ مايو ١٨٠٧ م. خُلع السلطان سليم الثالث وتم إلغاء كل ما يتعلق بحركته الإصلاحية.

ثم أخذت الحركة الإصلاحية تدخل طوراً أكثر إشكالاً. ففي معاهدة بوخارست عام ١٨٠٢ عندما أعطت الدولة العثمانية للصرب امتيازات، وعن طريق المعاهدات المشابهة بين الدولة وبين الدول الغربية، أخذت تتحقق وبطريق قانوني الرغبة في الاستقلال بين النصارى في الأراضي التابعة للدولة العثمانية. مثل «الأفلاق والبغدان» في رومانيا والجبل الأسود والمورة. وازدادت حدة الصراع الديني والعرقي في البلقان.

وأعقبت هذه الحركات الاستقلالية عن الدولة العثمانيـة مشكلة كبيرة أخرى وهي: أن المسلمين في هذه الأماكن أجبروا ـ وبطريقة مهينة ـ على الهجرة من هذه الأماكن التي انفصلت عن الدولة العثمانية، إلى ولايات الدولة الأخرى، وبخاصة الأناضول.

---

(٤) عن إصلاحات السلطان سليم الثالث مادة وفيرة في المصادر التركية الحديثة والمعاصرة، انظر على سبيل المثال أنور ضيا قارال المرجع السـابق ص ٨٢.

وهذه الهجرات ـ على خطورتها ـ لم تُعط الأهمية الكافية ونتج عن ذلك: فقد شعور المهاجرين بالثقة تجاه الدولة.

* * *

ومن جراء هذه الاضطرابات أيضاً قوي الأعيان والحكام المحليون أكثر وأكثر. وأصبح الموقف الخاص بالوحدة السياسية للدولة أكثر خطراً، مما كان في عهد سليم الثالث(٥).

* * *

لم تشترك الدولة العثمانية في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ م، وهو المؤتمر الذي نظم من جديد الخريطة السياسية لأوربا. وأهمية هذا المؤتمر في تاريخ المسلمين تكمن في أنه أصبحت «المسألة الشرقية» ـ التي استهدفت إزالة الدولة العثمانية من أوربا ـ مسألة سياسية واقعة، وبالتالي دخلت الدولة موقفاً خطيراً فيما يتعلق بسياستها الخارجية.

وفي عهد السلطان محمود الثاني، وجدت الدولة العثمانية نفسها مجبرة على الاستمرار في حركة إصلاحية للمحافظة على وجودها وكيانها، بعد أن دخلت فترة حرجة من فترات الانهيار. لكن عصر محمود الثاني اتسم بالفظائع الاجتماعية والرشوة في مؤسسات الدولة. وأعلن اليونانيون في المورة قيام دولة يونانية مستقلة عام ١٨٢٢ م. وسرت حركات التمرد ضد الدولة في جانبها الأوربي، مما أدى إلى استعانة السلطان محمود الثاني

---

(٥) انظر: يوسف آق جورا، عهد انحلال الدولة العثمانية ص ٤٠ ـ ٥٠.

بوالي مصر العثماني محمد علي باشا. ونتيجة لنجاح الجيوش المصرية في إخماد الفتن في المورة، اقتنع السلطان بتأسيس جيش على نمط ما فعل محمد علي. وبدأ العمل في ذلك أي: في إقامة جيش جديد على نظام أوربي في عتاده ومدربيه وأسلحته. وعندما اعترضت الإنكشارية على هذا، وقاموا بتمردهم، أسرع محمود الثاني بعقد مجلس استشاري في يونيو ١٨٢٦ م نتج عنه قرار إلغاء الفرقة الإنكشارية وقيام مؤسسة عسكرية جديدة باسم «العساكر المنصورة المحمدية». لكن الدولة كانت في ذلك الوقت تسرع خطواتها في مرحلة انحطاطها.

وتلقى السلطان محمود الثاني أول ضربة من المسألة الشرقية أثناء انشغاله بمسائل الإصلاح، وبتمردات المورة. وكانت هذه الضربة تتمثل في معاهدة لندن بين القوى الغربية: إنكلترا وفرنسا وروسيا في ٦ يوليو ١٨٢٧ م والتي تقضي بالاعتراف بتكوين دولة يونانية لها ارتباط بالدولة العثمانية.

ثم وقعت كارثة نوارين (١٨٢٧ م) وحدث فيها تدمير أساطيل الدولة العثمانية المشتركة. فاحتلت فرنسا المورة بشكل مؤقت، وأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، في وقت لم تكن فيه الدولة مؤهلة للقيام بأيّ حرب. فلا جيش لديها ولا أسطول، إضافة إلى الفتن التي ثارت في بعض الولايات نتيجة إلغاء الفرقة الإنكشارية.

ونتيجة للحرب الروسية ضد الدولة، والتي استمرت عاماً

ونصف عام وانتهت بمعاهدة أدرنة عام ١٨٢٩، أُجبرت الدولة على ترك قلاع وموانىء مهمة في القوقاز لروسيا. واضطرت الدولة إلى منح الاستقلال الذاتي للصرب وللأفلاق والبغدان واستقلال اليونان. وبالتالي خرجت أراضٍ هامة وغنية من يد الدولة العثمانية.

عمّ الاستياء، وظهرت الفتن والتمردات من جديد في ولايات الدولة. وسبَّب تولد هذا الاستياء وهذه الفوضى الناشئة من الأوضاع المالية والاقتصادية الناتجة من الحروب، في وقت لا تستطيع الدولة الحرب فيه، ومن دسائس الدول الأوربية وإلغاء الفرقة الإنكشارية الإسراع إلى الانهيار. ثم وجدت الدولة نفسها أمام غائلة ضخمة وهي علاقة الوالي العثماني على مصر وهو محمد علي باشا، بالدولة العثمانية، وطموحاته في ضمّ سوريا إليه وتحدّيه لسلطة الدولة ودخوله في حروب ضدها، انتصرت فيها جيوشه وقاربت الزحف على العاصمة العثمانية نفسها عندما وصلت جيوش محمد علي باشا إلى قونية وهي من أعمال الأناضول وبدأت في التحرك إلى داخله(٦).

* * *

في وسط هذه التيارات والأحداث، نشأ مَيْلٌ عثماني جديد، يقول بضرورة التمادي في الأخذ بالطرق الأوربية، وبالعلم الأوربي، وبالتكنيك الأوربي. وأخذ هذا الميل يصعد حتى احتلّ مكانته في الأماكن الهامة في مؤسسات الدولة.

---

(٦) أنور ضيا قارال، المرجع السابق ص ١٤٠.

ويعتبر مصطفى رشيد باشا، ممثل هذا الجيل الجديد. وكان سفيراً للدولة في باريس، وكان يرسل من فرنسا تقارير إلى السلطان، أثّرت فيه تأثيراً كبيراً وجعلته يعجب إعجاباً كبيراً بالوسيلة الغربية إنقاذاً للدولة مما هي فيه.

أما فكر مصطفى رشيد باشا، فيتمثل في: أن السبب الرئيسي لانحطاط الدولة العثمانية، يكمن في استمرار الدولة في الأخذ بالنظام الإداري القديم. وأن النظام البرلماني الأوربي مفيد، وأن الضرورة تحتم أن تأخذ الدولة بتجديد الإدارة وسلطتها في حدود واضحة. وأن من الضروري القيام بإصلاحات واسعة في البلاد من أجل بقاء الدولة العثمانية، ومن أجل ضمان علاقات أفضل بأوربا. وقد أوضح الباشا كل هذا في تقاريره التي أرسلها إلى استانبول. لقد كان مصطفى رشيد باشا يؤمن إيماناً جارفاً بتغريب الدولة العثمانية. وانطلاقاً من هذا الإيمان أعد فيما بعد فرماناً بتنظيمات الدولة على النمط الغربي وافق السلطان عليه واعتمده نبراساً للدولة.

صدر قرار بتعيين رشيد باشا وزيراً للخارجية العثمانية، فعاد من أوربا ليكوّن لجاناً مختلفة في وزارة الخارجية، تهدف: إلى تطوير الصناعة والزراعة والتجارة، وإلى إلغاء نظام الالتزام. لكنْ كان أهم ما في هذه المسألة المساواة بين العثمانيين، بمعنى: تساوي المسلمين والنصارى واليهود من مواطني الدولة، في الإدارة والحقوق العامة والواجبات العامة، ومنها الجيش، بعد أن كان الجيش مقصوراً على المسلمين فقط.

* * *

أعدّ مصطفى رشيد باشا فرمان التنظيمات الخيرية، وهو الذي قرأه في ٢٦ شعبان ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) وكان يوم أحد. واشترك في يوم إعلان هذا الفرمان كل من: الصدر الأعظم، وشيخ الإسلام، وأركان القصر، ورجال الدولة، وعلماء المسلمين، وممثلي الجمعيات المهنية، وبطريق الروم، وبطريق الأرمن، وغيرهم من رجال الكنيسة، ورئيس حاخامات اليهود، وسفراء الدول الأجنبية وقناصلها.

أصبح رشيد باشا، بعد ذلك، الصدر الأعظم في الدولة العثمانية. تولى هذا المنصب عدة مرات، كان أولها عام ١٨٤٨ م. لكن رشيد باشا استطاع بذكائه الحاد حل المسألة المصرية، وإنهاء مسألة محمد علي باشا، والتحالف مع كل من إنجلترا وفرنسا في سبيل الوقوف أمام أطماع روسيا في أراضي الدولة العثمانية.

لكن رشيد باشا استطاع بفرمان التنظيمات هذا أن يوجد في الدولة العثمانية مبدأ إصدار القوانين، بناءً على أوامر سلطانية، جنباً إلى جنب مع أحكام الشريعة الإسلامية.

ومع أن فرمان التنظيمات نصّ في مواد كثيرة، على ضرورة اتباع الشرع الإسلامي في الأحكام، إلاّ أنه من اللافت للنظر أنه استلهم بمقدار كبير «الأفكار الأوربية في النواحي الحقوقية وإدارة الدولة». ونصّ على استلهام «القوانين الغربية فيما يتعلق بالحقوق الطبيعية، والحقوق العامة والواجبات العامة»[٧].

---

(٧) المرجع السابق أيضاً ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢ ويورد قارال نص فرمان التنظيمات =

ونظراً لأن رشيد باشا قد تولى الصدارة العظمى خمس مرات، وكان له من النفوذ الشيء الكثير، وله شهرة في أوربا، وقد تأثر بالفكر الماسوني الحر حتى إنه يُعد في كثير من المصادر التاريخية أول ماسوني عثماني في بلاد العثمانيين، قد كوّن حوله مدرسة أو زمرة من المثقفين العثمانيين الذين آمنوا ـ مثله ـ بأن الحل الوحيد لدوام الدولة العثمانية هو تغريبها. وقد سعى رشيد باشا، في تولي أفراد هذه الزمرة أو النخبة الوظائف الهامة في الدولة، من إشرافية وتنفيذية، مثل ولاة الولايات والوزراء وكتّاب القصر السلطاني ووزارة الخارجية ووزارة الحربية ومديري المدارس العالية ومديري المدارس العسكرية وغيرها.

أُطلق على مدرسة رشيد باشا هذه، أو بمعنى آخر، النخبة المثقفة اسم «العثمانيين الجدد». وكان لهؤلاء نشاطهم الواضح في عهد السلطان التالي لعبد المجيد ووزيره رشيد باشا، ألا وهو السلطان عبد العزيز ـ عم عبد الحميد الثاني ـ والذي وجد نفسه محاطاً بالعثمانيين الجدد من كل جانب. وقد حاول هؤلاء حدّ سلطانه، وبخاصة أن فرمان التنظيمات، قد نقل السلطة من السلطان إلى الصدر الأعظم والوزراء. تضايق عبد العزيز من هؤلاء وعارضهم فقتلوه، وولوا بدلاً منه السلطان مراد الخامس

= بالحروف التركية اللاتينية. أما في اللغة العربية فيورد محمد فريد، ترجمة عربية للفرمان. انظر محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ كما يورد المؤلف ترجمة عربية لفرمان الإصلاحات الخيرية وذلك في ص ٤٨٤ إلى ص ٤٨٩.

ـ الأخ الأكبر لعبد الحميد ـ والذي كان من الذين تأثروا بالفكر الماسوني الدولي ومقتنعاً بالفكر الغربي. لكنه جُنّ فتولى مكانه عبد الحميد باسم السلطان الخليفة عبد الحميد الثاني.

وبعبد الحميد أخذت حركة الإصلاح في العالم العثماني الإسلامي منحىً جديداً. منحىً يرفض الغرب في أمور، ويأخذ منه في أمور. يرفض فكر الغرب وحضارته وتراثه ويأخذ بما انتهى إليه، من صناعات واختراعات آلية وأشكال المدنية النافعة كافة.

٤ ـ إعلان الدولة العثمانية التنظيمات على المنهج الأوربي:

كلمة التنظيمات كلمة عربية، دخلت اللغة العثمانية لتعني في مصطلحها السياسي: حركة التنظيم والإصلاح على المنهج الأوربي الغربي، ومفردها تنظيم. وتعني في المصطلح التاريخي حركة الإصلاح التي حدثت في الدولة العثمانية في القرن الثالث عشر الهجري = التاسع عشر الميلادي، مهتدية بالمؤسسات والتنظيمات الأوربية.

بدأ عهد التنظيمات، بصدور فرمان سلطاني باسم فرمان التنظيمات الخيرية في ٢٦ شعبان عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) وانتهى هذا العهد في عام ١٨٧٦ م أي: عند تولي السلطان عبد الحميد الثاني الحكم خاصة. وإن الدولة العثمانية أعلنت في هذا العام ـ أي ١٨٧٦ م ـ ما عُرف باسم المشروطية الأولى. أي: إعلان دستور في البلاد لأول مرة على النمط الغربي.

* * *

عرّف البعض حركة التنظيمات العثمانية هذه؛ بأنها حركة تجديد وإصلاح، ذات برنامج مُلهم من الغرب. وعرفها البعض الآخر؛ بأنها عهد التغيير الثقافي الإجباري في بلاد العثمانيين. وعرّفها آخرون بأنها: الاهتمام بإعطاء الدولة العثمانية شكلاً إدارياً أوربياً. وعرفها ـ أنكلهارت في كتابه المشهور «تركيا والتنظيمات» بأنها: «أولاً وقبل كل شيء هي حركة إرضاء أوربا، لضمان تصرفها بشكل ليّن ومعاون للدولة العثمانية».

* * *

ويمكن تعريف حركة التنظيمات العثمانية: بأنها حركة ثقافية وإصلاحية، حدثت في الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي؛ مهّدت لإقامة حكم دستوري على النمط الغربي في البلاد، وللتقارب بين العالمين المسلم والنصراني. وهي حركة: تشمل مناحي الحياة كافة بما فيها الثقافية والحضارية، على حساب الحضارة الإسلامية، في الديار العثمانية. انتقلت فيها سلطة السلاطين، إلى الصدر الأعظم والوزراء وتراجعت فيها مشيخة الإسلام، من مكان الصدارة إلى القيام بدور أقل: بمعنى أنّ مشيخة الإسلام تراجعت إلى درجة أقل من حيث الاعتبار والنفوذ ثم شُلَّ عملها.

قبل التنظيمات كان الحكم العثماني يستند إلى ثلاث دعامات رئيسية هي: السلطنة والخلافة ومشيخة الإسلام. وكان الوزراء يأتمرون بأوامر السلطان الخليفة وكان ديوان الوزراء يساعد

السلطان الخليفة في تسيير وإدارة أمور الدولة، وتقوم مشيخة الإسلام بدور الشورى للسلطان الخليفة.

وبعد التنظيمات تركّزت السلطة في يد الصدر الأعظم والوزراء وخفت دور السلطان الخليفة، وفقدت مشيخة الإسلام دورها الشوروي واعتبارها(٨).

* * *

(٨) عن تعريف ـ باللغة العربية ـ موجز شامل لحركة التنظيمات العثمانية وما كانت ترمي إليه، انظر: محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٤٨.

الفصل الثاني

عهد السلطان عبد الحميد

السلطان عبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. إذ ولد في ١٦ شعبان عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م).

ماتت أم عبد الحميد وهو في العاشرة من عمره فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه وكانت عقيماً. فأحسنت تربية الطفل اليتيم عبد الحميد وحاولت أن تنسيه حنان الأم ببذل حنانها إليه كما أوصت بميراثها له. وقد تأثر عبد الحميد بها وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادىء. وكان لهذا انعكاسه على شخصيته طوال عمره.

تلقى عبد الحميد تعليمـاً منتظمـاً في القصر السلطاني، بالإضافة إلى أن معلميه في القصر كانوا من أبرز رجالات عصره علماً وخلقاً. وقد تعلّم من اللغات العربية والفارسية. ودرس التاريخ. وله بعض أشعار باللغة التركية العثمانية.

كان له اهتمامه بالسلاح، وكان يجيد استخدام السيف وإصابة الهدف بالطبنجة (المسدس). ويثابر على الرياضة البدنية، واحتفظ بمجموعته من الأسلحة التاريخية. وبجانب هذا كان له اهتمام منتظم بمعرفة أخبار السياسة العالمية ومكانة بلاده فيها.

كما كان له أتباع يكلفهم بجمع الصحف والمجلات الأوربية لقراءتها، ثم ترجمتها له. يحب قراءة الروايات، ولم يكن له من الزوجات إلا واحدة، وكان عفيفاً. والمرأة عنده كانت (لازمة له حسب المقاييس الإسلامية البحتة، لا أكثر بمثقال ولا أنقص بمثقال).

والبساطة صفة عبد الحميد في تصرفاته وفي عاداته. وعلى سبيل المثال أنه استخدم لنومه سريراً حديدياً أبيض اللون أشبه بأسرّة المستشفيات اليوم، ولم يغيره منذ شبابه وحتى وفاته.

وكان يحب اقتناء الحيوانات والطيور والفراشات. والمشهور عنه أنه كان يجيد فن النجارة ويستهويه حفر الخشب. وكانت له ورشة نجارة خاصة به يصنع فيها في أوقات فراغه، أدوات خشبية ويهديها للمقربين إليه ولأقاربه[1].

---

(١) تحدّث كل من نجيب فاضل، وهو أديب وشاعر ومفكر إسلامي تركي، في كتابه السلطان العظيم عبد الحميد الثاني (الطبعة الرابعة، أستانبول ١٩٨١) ومصطفى مفتي أوغلو في كتابه السلطان عبد الحميد من كل زواياه، وكذلك أنور ضيا قارال في كتابه السابق الذكر، عن صفات السلطان عبد الحميد الشكلية والمعنوية، انظر على سبيل المثال هنا، مصطفى مفتي أوغلو، السلطان عبد الحميد، المرجع السابق ص ٩ ـ ٢٣، أستانبول ١٩٨٥.

وعندما قام السلطان عبد العزيز على رأس وفد عثماني بزيارة أوربا، كان عبد الحميد ضمن هذا الوفد. وفي أثناء هذه الرحلة، حرص الوفد العثماني على الظهور بالمظهر المتفرنج. إلا أن عبد الحميد (وكان أميراً) كان استثناءً متميزاً في ذلك الأمر. فقد كان يرتدي ملابس بسيطة غاية البساطة. واتسم سلوكه في أوربا أثناء هذه الرحلة بالبساطة المهيبة. وبذلك «شدّ انتباه الأوربيين بوقاره وهيبته».

ولما كان ـ الأمير ـ عبد الحميد قد استعد للرحلة الملكية إلى أوروبا بمطالعات واسعة، فإنه كان دقيقاً في رؤيته، وفي حكمه على الأشياء التي رآها في الغرب، وعلى الأمور التي اطلع عليها هناك. ولقد كُلِّف في فرنسا بعض الضباط الفرنسيين الشبان بمصاحبة الأميرين العثمانيين مراد وعبد الحميد. وتسابق هؤلاء الضباط على سوق الأميرين الشابين إلى أماكن اللهو والعربدة وحياة الليل في باريس. ورفض عبد الحميد هذا تماماً، ولم يمد يده إلى قدح خمر قط.

والتقى الوفد العثماني في هذه الرحلة بمشاهير العصر سياسياً: نابليون الثالث في فرنسا، والملكة فيكتوريا في إنكلترا، وليوبولد الثاني في بلجيكا، وغليوم الأول في ألمانيا، وفرانسوا جوزيف في النمسا.

ولما توفي السلطان عبد العزيز، حلّ محله في العرش العثماني الأمير مراد، باسم السلطان مراد الخامس. وبالتالي أصبح عبد الحميد ولياً للعهد.

ولم تمض ثلاثة أشهر على سلطنة مراد حتى وضحت عليه علامات الاضطراب العصبي عقب توليه العرش بنحو أسبوع. ثم ازدادت هذه الحالة عليه شيئاً فشيئاً. ولما اتضح تعسر بُرئه، حكم الأطباء المختصون بجنونه، وعدم لياقته للاستمرار في الحكم، فاجتمع الوزراء في ١٠ شعبان ١٢٩٣ هـ (= ٣١ أغسطس ١٨٧٦ م) وقرروا: وجوب المبايعة للسلطان عبد الحميد. وفي اليوم التالي اجتمع الوزراء ثانية، واستدعوا شيخ الإسلام وأهل الحل والعقد، وصدرت الفتوى الشرعية بوجوب عزل مراد.

وفي ١٨ شعبان ١٢٩٣ هـ (= ٧ سبتمبر ١٨٧٦ م) تقلّد السلطان عبد الحميد الثاني الحكم.

* * *

١ ـ التَّركة التي آلت إلى السلطان عبد الحميد:

«استوى عبد الحميد الثاني على العرش، إبّان ما كانت الأزمات تحيق بالسلطنة من كل جانب: خزانة مفلسة، وجند عزل، وعناصر تدغدغ أنفسها أحلام القومية الجميلة، وشعب توّاق للحكم البرلماني. وإلى جانب ذلك مؤامرات دولية في سبيل تحقيق الأماني القومية لبعض العناصر العثمانية. هذا بالإضافة إلى مؤامرات سياسية للاتفاق على اقتسام إرث الرجل المريض (أي الدولة العثمانية إبّان ضعفها).

وماذا عليه ـ أي عبد الحميد ـ أن يفعل بعد أن أعلن الدستور

على أمل إرضاء الشعب التوّاق لحكم الشورى وقصد وزراؤه إرضاء أوربا التي لا تبرح تطالب بالإصلاحات؟.

وماذا عليه أن يفعل، وإعلان الدستور لم يجعل أوربا تقنع به، وتعدل عن الاستمرار في التدخل بشؤون الدولة الخاصة، كما أنه لم يمنع روسيا الطامحة عن إشهار الحرب عليه، وعن مفاوضة سائر الدول لاقتسام أمصاره؟

وبعد فأين القوة ليستعين بها على قمع الثورات العنصرية، وعلى مجابهة التهديدات الأوربية؟.

وأين قوة السلطان بعد أن امتلأ القصر بعناصر تكره للدولة الاستمرار مثل النصارى واليهود المستترين بأسماء إسلامية؟ وأين أصالة الباب العالي مقر الصدر الأعظم والوزراء بعد أن استشرى فيهم حب الغرب والعمل على إرضائه على حساب بلادهم؟»[٢].

* * *

«جلس أكبر عشرين طبيباً في الدبلوماسية الأوربية في مؤتمر برلين حول المائدة الخضراء، وتباحثوا ثلاثين يوماً في وضع الدولة العثمانية، المسماة بالرجل المريض.

قرر الأطباء العشرون في نهاية مباحثاتهم . . «بتر الساق اليمنى من جسم المريض». وكان هذا بادىء ذي بدء. وأعقبوا ذلك ببتر ساقه الشمال. ثم يده اليمنى ثم يده الشمال.

---

(٢) عن التركة الثقيلة التي آلت إلى السلطان عبد الحميد، انظر محمد جميل بيهم، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، ص ١٣٠.

وعندما نجحت هذه العمليات الأربع، قال الأطباء للمريض: قـم وانهض. لقد زال عنك الآن مرضك. تجوّل أمامنا قليلاً حتى نرى تأثير النتيجة!

وأصرّ المريض على عدم الحركة، لأن وضعه الجديد لا يسمح بذلك، بعد هذه العمليات الاستئصالية. فقالوا له: «إذن لا حل إلّا في توزيع الأعضاء الباقية منك على متاحف أوربا التشريحية والقيام بتجارب فيزيولوجية عليها»[٣].

* * *

الفقرتان السابقتان تشيران بدرجة كافية: إلى التركة التي آلت إلى السلطان عبد الحميد، عندما تولى عرش السلطنة العثمانية. الفقرة الأولى للكاتب العربي المعاصر محمد جميل بيهم. والفقرة الثانية لسفير ألمانيا في استانبول إم. دو. بلوويتش، وكان معاصراً لأحداث الفترة.

٢ ـ المشكلات التي أوجدها دعاة الإصلاح الغربي:

اعتلى السلطان عبد الحميد عرش الدولة العثمانية في قصر طوب قابو، في استانبول، في ٣١ أغسطس ١٨٧٦ م. وبالتالي استقال الصدر الأعظم، رشدي باشا، ليحل محلـه مدحت باشا. وكان للأخير تجربة سابقة في رئاسة الوزراء في عهد السلطان عبد العزيز.

في عام اعتلاء عبد الحميد العرش، كانت بعض تمردات في

---

(٣) قارال، جـ ٨ ص ٨٠.

الجانب الأوربي من الدولة مستمرة، وهي تمردات الجبل الأسود والصرب والبوسنة والهرسك وكلها الآن تدخل في إطار دولة يوغوسلافيا الاتحادية. ولم تكن هذه الثورات نابعة من شعوب هذه المنطقة بالدرجة الأولى. وإنما كانت بتحريض من روسيا، ويدير هذه الثورات ضباط روس. ولما زادت هذه التمردات وأحدثت تأثيراتها عالمياً، تقرر عقد اجتماع دولي تشترك فيه كل من: إنكلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا ـ المجر في استانبول يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦ من أجل بحث الإصلاحات الواجب قيام الدولة العثمانية بها في أراضيها في البلقان. وهذا الاجتماع يسمى في المصادر العثمانية باسم مؤتمر الترسانة.

فوجىء هنا المؤتمر في أول اجتماع له، بإعلان الدولة العثمانية قيام الحكم الدستوري، وعرف المؤتمرون هذا من انطلاق مدافع الابتهاج بهذه المناسبة.

● **مشكلة الزج بالدولة إلى الحرب مع روسيا:**

اجتمع اللورد سالسبري رئيس الوفد الإنكليزي في هذا المؤتمر، بالسلطان عبد الحميد وطلب إليه أن يعوّض روسيا بتعويضات شكلية حتى يأمن غدرها، وبذلك تستريح الدول الغربية أيضاً عندما تمتنع روسيا من التدخل في شؤون الدولة العثمانية.

وكان السلطان عبد الحميد ميالاً للسلم بحكم وضع الدولة، وعدم قدرتها على الحرب. كما كان قيصر روسيا الكسندر الثاني، غير ميّال للحرب. لكنْ المحيطون به كانوا من دعاتها.

ولكي يسكتهم القيصر، طالب العثمانيين ببعض تعويضات لإقناع أنصار الحرب بالسكوت، وأبلغ القيصر الدول الغربية بذلك. وعلى الجانب العثماني كان مدحت باشا الصدر الأعظم ووزراؤه ميّالين للحرب دعاة لها.

انتهى مؤتمر الترسانة في استانبول، بإقرار انسحاب القوات العثمانية من الصرب والجبل الأسود، وبمنح الحكم الذاتي لبلغاريا وللبوسنة ـ الهرسك. لكن الصدر الأعظم، مدحت باشا، أصرّ على الرفض، وأصرّ على الحرب، رغم عدم وجود إمكاناتها لدى الدولة. فاجتمعت الدول الأوربية مرة أخرى في لندن في ٢١ مارس ١٨٧٧ م. وقررت تخفيف مقررات مؤتمر استانبول، أي مؤتمر الترسانة قليلاً، وإبلاغ الدولة العثمانية بذلك.

رفض مدحت باشا، ولكي يُجبر السلطان على الحرب، حرّض مدحت باشا طلبة العلوم الشرعية على القيام بمظاهرات في الشوارع: تنادي بضرورة دخول الدولة الحرب. وأخيراً قام القيصر الروسي الكسندر الثاني: بالتصريح بأنه يمكن أن يمنع قيام الحرب بين روسيا وبين الدولة العثمانية، إذا تركت الدولة العثمانية قصبة نكشيك للجبل الأسود. ولما رفض مدحت باشا هذا الاقتراح الأخير، أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية.

سُمِّيت هذه الحرب بالحرب العثمانية الروسية ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ م. وباسم آخر هو حرب ٩٣. وهي السنة الرومية لقيام الحرب. وكانت نتيجة هذه الحرب على الجبهة

البلقانية (جبهة الدانوب) اكتساح الجيوش الروسية للأراضي التابعة للدولة العثمانية، بدءاً بصوفيا ثم قيزانلق وفلبه وأدرنه. ووصلت الجيوش الروسية إلى ضاحيـة العاصمـة العثمانيـة استـانبول. واسم هـذه الضاحيـة «أياستفـانـوس» هـذا غيـر الانتصارات الروسية على الجيوش العثمانية، واستيلاء الروس على مدن هامة في الجانب الشرقي من الأناضول، وغير الأعمال الوحشية التي قام بها الروس والبلغار في البلقان أثناء هذه الحرب ضد المسلمين العثمانيين، مما أدى: إلى قتل الآلاف منهم وهجرة الآلاف منهم إلى الأناضول وغيره وتركوا هذه الأراضي التي عاشوا فيها أكثر من خمسة قرون.

وأُجبرت الدولة العثمانية، على توقيع معاهدة أياستفانوس في ٣ مارس ١٨٧٨ م، بين العثمانيين والروس، واحتوت على شروط سيئة للغاية للدولة العثمانية. وتقرر هذه المعاهدة «إنشاء مملكة بلغارية تقتطع من الدولة العثمانية» تمتد من البحر الأسود إلى ألبانيا، محتوية منطقة قِرْقْلَرْ إيلي، وحصول الصرب والجبل الأسود على الاستقلال، كدولتين، استقلالاً كاملاً، وحصـول رومانيا على استقلالها، وتسليم مدن قارص وأردخان وباطوم للروس. كما تدفع الدولة العثمانية إلى جانب هذا مبلغاً هائلاً تعويضات الحرب وهو مبلغ مليار و ٤٠٠ مليون روبل(٤).

* * *

(٤) يشكل كتاب محمد اجيق كوز أوغلو، كتاباً مدرسياً مفيداً في حسن وسرعة وبساطة عرض مشكلة الزج بالدولة العثمانية إلى الحرب مـع روسيا وتطورات هذه الحرب، انظر هذا المؤلف في كتابة تاريخ الدول الإسلامية =

عقب هذه الطامة الكبرى التي أصابت الدولة في مقتل، اتجه السلطان عبد الحميد إلى تقليل دور وزرائه الذين دفعوا الدولة دفعاً إلى هذه النكبة. كما اتجه إلى تولي كل المسؤوليات الرئيسية بمعنى: أنه اتجه إلى الحكم الفردي والإشراف على كل كبيرة وصغيرة في الدولة.

أعلن السلطان عبد الحميد في ١٣ فبراير عام ١٨٧٨ م تعطيل المجلس البرلماني العثماني (مجلس المبعوثان) إلى أجل غير مسمى، وتوليه شخصياً إدارة البلاد. وتعليق الدستور.

وقرر السلطان عدم التصديق على معاهدة أياستفانوس هذه التي تسبّب الصدر الأعظم ومجلس الوزراء والبرلمان فيها واضطروا السلطان لدخول الحرب. وقام السلطان ببعض العمليات الدبلوماسية مع الدول الأوربية: لتخفيف بنود هذه المعاهدة. وتمكن السلطان من الحصول على مساعدة هذه الدول للدولة العثمانية ضد روسيا. وفي نظير تأييد إنكلترا الكامل للدولة في هذا الأمر، أجّر لها جزيرة قبرص لاستخدامها قاعدة لها. وخافت روسيا من انضمام إنكلترا للدولة العثمانية فصرفت النظر عن الحرب ضد الدولة. وبالتالي نجح السلطان عبد الحميد في تعطيل معاهدة أياستفانوس. وعمل على عقد مؤتمر في برلين، لبحث العلاقات العثمانية ـ الروسية، نتج عنه: توقيع معاهدة في هذا الصدد في ٣ يوليو ١٨٧٨ خفّفت مضار المعاهدة الأولى.

= (إسلام دولتلري تاريخي) استانبول ١٩٧٥، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٣. وانظر أيضاً في ذلك قارال، المرجع السابق ص ٦٦.

وخلال ثلاثين عاماً من حكم السلطان عبد الحميد، عقب تعطيله مجلس المبعوثان، تمكن من منع القتال بين بلاده وبين روسيا. ولما عجزت روسيا عن استثارة الدولة العثمانية للحرب، قامت بالتركيز على الحرب الباردة. وبالتالي ظهرت عدة مشاكل أخرى أمام الدولة العثمانية.

* * *

نتج عن الحرب العثمانية الروسية هذه، نتائج مادية ومالية واجتماعية، أرهقت كاهل الدولة وفي مقدمة هذه النتائج مشكلة المهاجرين.

شكّل المهاجرون من مناطق الحرب إلى الأناضول كثافة سكانية أكثر من طاقة البلاد. فالأحداث في الجبل الأسود وبلاد الصرب ورومانيا، أدّت إلى انفصال هذه الأماكن واستقلالها واستولى الروس على قارص وباطوم وأردخان. واستولت النمسا على البوسنة والهرسك. فهاجر قسم كبير من المسلمين في هذه الأماكن إلى أماكن الدولة الأخرى واستقروا فيها.

وكان ينظر إلى هؤلاء المهاجرين على أنهم أصحاب هجرة داخلية لكنها رغم فوائدها فقد كانت تؤلف عبئاً اقتصادياً ومالياً للدولة(٥).

● **تمرد النصارى في جزيرة كريت:**

كانت جزيرة كريت ـ وهي جزء من الدولة ـ تغلي بالأحداث وكان التمرد فيها قائم على أساس ديني قومي أشعل حماسه

---

(٥) انظر قارال، المرجع السابق أيضاً.

وساعد فيه الروس. وأثناء الحرب العثمانية ـ الروسية ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ م عاود الكريتيون الأروام تمردهم ضد الدولة، وطلبوا إلحاق الجزيرة باليونان كجزء من إعادة الدولة البيزنطية إلى الوجود من جديد. واستمرت هذه الاضطرابات في الجزيرة حتى حرب البلقان عام ١٩١٢ بعد خلع السلطان عبد الحميد، حين ضُمَّت جزيرة كريت إلى اليونان.

● **تمرد الأرمن في سبيل الانفصال عن الدولة:**

ظل الأرمن على وفاق مع العثمانيين منذ الفتح العثماني للقسطنطينية، إلى أن أخذ الروس يحرضونهم على الثورة ففعلوا. وأخذ رجال العصابات الأرمنية يهاجمون القرى التركية والكردية في منطقة شرق الأناضول، ويقتلون في أهاليها. وتدخلت القوات العثمانية، وأعادت الأمن إلى ربوع هذه المنطقة، بالشدة والحزم. ومنذ ذلك الحين ولقب السلطان الأحمر ملصق بالسلطان عبد الحميد كناية عن أمره للقوات العثمانية بإخماد التمرد، ومنع الأرمن من قتل المسلمين. ويقول كاتب تركي معاصر: «لو لم يكن السلطان عبد الحميد قد اتخذ هذه التدابير، لما بقي اليوم أحد منّا في ولاياتنا في شرق البلاد».

وأكبر تمرد قام به الأرمن، حدث عام ١٨٩٥ م وقُتل منهم الكثير حتى إن الدول الأوربية تدخلت، لكن السلطان عبد الحميد استطاع أن يوجد العداء بين بريطانيا وفرنسا، فابتعدت بريطانيا عن التدخل المسلح وإن أخذت في تحريض المتمردين.

وفي عام ١٨٩٦ م قام الأرمن بتمرد في العاصمة العثمانية نفسها لكن السلطان احتواه بحيث لم يجرؤ الأرمن بعد ذلك على التمرد.

ودبّر الأرمن وسيلة لاغتيال السلطان عبد الحميد بقنبلة موقوتة إثر خروجه من أداء صلاة الجمعة، إلا أن السلطان نجا من هذه العملية. (١٩٠٥ م).

● **احتلال فرنسا لتونس:**

كانت فرنسا تخطط لاحتلال تونس أثناء توقيع معاهدة برلين عام ١٨٧٨ م، فأرسلت عام ١٨٨١ جيشها لاحتلال تونس، واحتجّت الدولة على ذلك بشدة، لكنها لم تكن في ذلك الوقت في وضع يسمح لها بالدفاع عن تونس.

● **احتلال إنكلترا لمصر:**

تسبب إسراف الخديوي إسماعيل في إفساد الخزانة المصرية. كما كان مديناً لإنكلترا بمبلغ مليون جنيه إنكليزي. وكان هذا رقماً هائلاً وقتها. وباع الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٥ م أسهمه الخاصة في شركة قناة السويس إلى إنكلترا. ولم تكن كافية. وفي عام ١٨٧٩ م عزل السلطان عبد الحميد واليه على مصر: الخديوي إسماعيل باشا، وعيّن محله ابنه محمداً توفيق باشا. ولم يستطع محمد توفيق باشا، إنقاذ مصر مما هي فيه. واستمرت مداخلات كل من إنكلترا وفرنسا. وفي ١١ يونيو ١٨٨٢ م قام أهالي مدينة الإسكندرية في مصر بثورة غاضبة على الأوربيين، ونهبوا أموالهم، وقتلوا بعضهم. فاتخذت إنكلترا هذا

ذريعة لضرب الإسكندرية، ثم استولت على القاهرة ومصر كلها. لكن إنكلترا لم تعلن تبعية مصر لها وإنما قالت: إن مصر قطعة من الدولة العثمانية، وكانت تؤدي ما على مصر من رمز التابعية للدولة العثمانية. واستمر هذا الوضع حتى عام ١٩١٤ وهو تاريخ إعلان الحماية البريطانية على مصر(٦).

● **منهج التفكير في إدارة الدولة:**

كان عبد الحميد قد عطّل البرلمان العثماني المسمى بمجلس «المبعوثان» إلى أجل غير مسمى. كان ذلك في عام ١٨٧٨ م. بعد أن وجد النخبة المثقفة من الوزراء والمسؤولين حوله يفكرون بطريقة تخالف تفكيره. وفي هذا العام أخذ السلطان عبد الحميد، يحكم البلاد حكماً فردياً، واستمر في ذلك قرابة ثلاثين عاماً. وباستثناء مصر وتونس لم تفقد الدولة أرضاً ذات قيمة كبيرة، فقد حرص هو على ذلك رغم الضعف البادي على الدولة.

لكن طلاب المدارس التي افتتحها السلطان عبد الحميد لتعليم أبناء الدولة العثمانية المعارف والعلوم، وطلاب البعثات الذين درسوا في الخارج، وتأثروا بالفكر القومي، وبالفلسفات الأوربية، قاموا بدور كبير في هدم الدولة. وكان السلطان عبد الحميد هو الرمز الذي اجتمع فيه هؤلاء على ضرب دولتهم.

---

(٦) عن تمرد كريت بشكل عام انظر نهاد صايار، المسائل المالية في عهد تركيا الإمبراطورية، ص ٢٢٤ ـ ٢٣٤، استانبول ١٩٧٧.

كوّن هؤلاء تنظيماً سرياً أطلقوا عليه اسم جمعية «الاتحاد والترقي» تعاونوا في إطارها مع أعداء الدولـة من الأوربيين، من أجل إسقاط سلطانهم وخليفة المسلمين. ففي باريس اتحد المناهضون للسلطان، من أعضاء هذه الجمعية ـ ويطلق عليهم أيضاً اسم تركيا الفتاة ـ مع زعماء المتمردين الأرمن ضد الدولة. وتمكّن أعضاء الاتحاد والترقي من بذل الدعايات الواسعة بين صفوف الجيش حتى صار الضباط الشبان في الجيش العثماني في البلقان، من الاتحاديين. (عام ١٩٠٨ م).

وكان على رأس هذه الجمعية في مرحلتها الأخيرة، «طلعت» كاتب البريد والبرق في أدرنه والبكباشي «أنور» واليوزباشي «نيازي». وكان هؤلاء يؤمنون بأنهم إذا استطاعوا إسقاط سلطانهم عبد الحميد عن العرش، فإن ضغط أوربا على الدولة سيتوقف. وإن كل شيء سيتحسن في الدولة. وإن العناصر التي تعيش في الدولة ستكون أكثر ارتباطاً بها. ولذلك تعاون أعضاء الاتحاد والترقي مع ممثلي القوميات والأديان المختلفة للإطاحة بالسلطان عبد الحميد.

وبدأت حركة الاتحاد والترقي بتمرد الضابط «نيازي» على رأس وحدة من المشاة. وطالب في بيان أصدره بضرورة إعادة العمل «بالديمقراطية». وعندما أرسل القائد «شمسى باشا» لإخماد هذه الحركة، اغتاله الثوار في بلدة مناستر. وجاء بدلاً منه «فوزي باشا»، فخطفه الثوار الاتحاديون ومن ثم أطلق هؤلاء المدافع إعلاناً بعودة الدستور وفتح مجلس «المبعوثان»، وبذلك أُجبر

السلطان عبد الحميد على الموافقة على ما أعلنوه (١٩٠٨ م).

وبدأ الاتحاديون ـ من ضباط ومدنيين ـ بعد ذلك في تولي السلطة بعد هذا الحادث، الذي يُسمى بإعلان «المشروطية الثانية». وبدأ رجال «الاتحاد والترقي» حكماً ديكتاتورياً في البلاد ووصل الأمر بهم إلى قتل معارضيهم.

ونجح الاتحاديون في الانتخابات التي أجروها في البلاد بقوة السلاح. وتمّ لهم ما أرادوا وافتتح مجلس «المبعوثان» في ٢٣ ذي القعدة ١٣٢٦ هـ (= ١٧ ديسمبر ١٩٠٨ م)، وكان تكوينه كالتالي: عدد أعضائه «٢٧٥» نائباً برلمانياً، منهم «١٤٢» تركياً، و «٦٠» عربياً، و «٢٥» ألبانياً، و «٢٣» يونانياً، و «١٢» أرمنياً، و «٥» يهود، و «٤» بلغار، و «شخص واحد» رومانياً.

وأصدر الاتحاديون عفواً عاماً، عن آلاف المنتمين إلى العصابات البلغارية، والعصابات الأرمنية. وبدأ هؤلاء نشاطهم الثوري من جديد، ولكن هذه المرة ضد جمعية «الاتحاد والترقي»؛ وقام «الأرمن» بتمرد كبير في منطقة أضنه، ونهبوا بيوت العثمانيين المسلمين وقتلوا منهم الكثير. وبالتالي تحركت جموع المواطنين هناك وفي طرسوس أيضاً ضد الأرمن وقتلوا سبعة عشر ألف أرمني. واستمرت الاضطرابات أربعة أيام قتل فيها من العثمانيين ما يقرب من الألفين.

● **حادثة ٣١ مارت (يعني ١٣ إبريل عام ١٩٠٩ م):**

قبل تمرد الأرمن في أضنه بيوم واحد، حدثت في استانبول حادثة سُمِّيت باسم حادثة ٣١ مارت (وتكتب أحياناً على شكل

مارط) وتقابل في التاريخ الميلادي ١٣/٤/١٩٠٩ م.

ويقول أغلب المؤرخين ورجال الحكم: إن هذه الحادثة تمثيلية سياسية قامت بها جمعية «الاتحاد والترقي» وهي في الحكم لإسقاط السلطان عبد الحميد، والتخلص من طريقة حكمه تماماً. وفي مقدمة من يقول بهذا شيخ الإسلام «جمال الدين أفندي». وقال بهذا أيضاً ـ فيما بعد الحادثة ـ طلعت باشا زعيم الاتحاديين. وهناك أيضاً من يقول: بأن الصهيونية ـ التي كانت تملك تأثيراً قوياً على حزب «الاتحاد والترقي» ـ دفعت الحزب إلى القيام بهذه الحادثة، عزلاً لعبد الحميد، لكي يتمكن اليهود من إقامة دولة لهم في فلسطين.

هذه الحادثة عبارة عن قيام بعض الجنود بقتل بعض ضباطهم الشبان، بحجة: أنهم ينافون الإسلام في تصرفاتهم ونادى الجنود: بإعادة العمل بالشريعة الإسلامية وإبعاد ضباط «الاتحاد والترقي» عن الحكم.

اعتبر أعضاء «الاتحاد والترقي» السلطان «عبد الحميد»، المدبر لهذه الحادثة فأرسلوا قواتهم من سلانيك إلى استانبول. وكان هذا الجيش يحمل اسم جيش «الحركة» ويتكون من قوات نظامية، وقوات غير نظامية. كما كان يحتوي على رجال عصابات مسلحة، من البلغار والصرب واليونانيين، وهؤلاء يتعاونون مع «الاتحاد والترقي» المنادي: بالقومية وبالمساواة.

تحرّك جيش «الحركة» من سلانيك، بقيادة محمود شوكت باشا، ووزع منشوراً يقول فيه إنه: «جاء إلى استانبول لينقذ

السلطان من أيدي المتمردين» كما قال هذا القائد في برقية جوابية إلى الشريف حسين شريف مكة المكرمة: «إننا جئنا إلى استانبول لحماية السلطان خليفة المسلمين». وكان لمحمود شوكت باشا ضابطان شابان، هما أركان حربه: عزيز (المصري) ومصطفى كمال (أتاتورك).

● **إسقاط السلطان عبد الحميد:**

لما وصل جيش «الحركة»، طلب قادة الجيش النظامي الأول الموجود في استانبول من السلطان، الإذن بالحرب، فرفض السلطان عبد الحميد ذلك حقناً للدماء. وفي ٢٥ إبريل أصبح «محمود شوكت باشا» هو المسيطر على العاصمة. واجتمع مجلس المبعوثان، واتخذ قراراً بخلع السلطان. ولم يستطع «الاتحاد والترقي» الحصول على فتوى شرعية بالخلع إلا بالجبر. وأبلغوا السلطان القرار بواسطة وفد يرأسه «إيمانويل قراصو» اليهودي العثماني، عضو مجلس المبعوثان، ورئيس المحفل الماسوني في سلانيك.

● **نهاية السلطان عبد الحميد:**

أرسل الاتحاديـون السلطان وبعض أفراد أسرته وبعض من يخدمه، في نفس الليلة التي عزل فيها، إلى سلانيك. ولم يسمحوا له بأخذ شيء معه. ونهب رجال الاتحاديين، مع رجال العصابات المقدونية قصر السلطان عبد الحميد.

وفي سلانيك، وضعوا السلطان عبد الحميد ومن معه تحت الحجز والمراقبة في قصر يمتلكه أحد اليهود، وهو «قصر آلاتيني»

المسمى باسم صاحبه. وفيه أمضى السلطان أياماً قاسية عصيبة ومنعوه من قراءة الصحف. وظل في هذا القصر حتى ليلة قيام الحرب البلقانية، فأتوا به إلى استانبول ليحبسوه في قصر «بَيْلَرْبَيْ»، وفيه توفي في ٢٨ ربيع الآخر (الأحد) ١٣٣٦ هـ الموافق ١٠ فبراير ١٩١٨ م عن ست وسبعين سنة إلا قليلاً. قضى منها ثمان سنوات وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً معزولاً. وقضى في الحكم ٣٢ سنة وسبعة أشهر و ٢٧ يوماً(٧).

* * *

(٧) عن تطور موجز بسيط لحركة الاتحاد والترقي وموقفها من السلطان عبد الحميد، انظر محمد أجيق كوزأوغلو، المرجع السابق ص ٣٧٧ - ٣٨١. إلا أن قارال واوزطونه يفصلان في ذلك تفصيلاً.

الفصل الثالث

العوامل التي كونت شخصية السلطان عبد الحميد ومنهج تفكيره

١ ـ أحوال بلاده:

● انحطاط الأحوال المالية وكثرة الديون:

وجد السلطان عبد الحميد عند توليه العرش: أن العجز في الميزانية العثمانية للعام المالي ١٨٧٥ م قد بلغ ٥ مليون ليرة عثمانية، وقيمة فوائد ديون الدولة ١٤ مليوناً. أما ديون الدولة نفسها فقد بلغت ٣٠٠ مليون ليرة. وبالتالي وجدت الدولة نفسها مجبرة على الاقتراض من جديد لدفع ما عليها.

وأمام هذه الغائلة، اضطر السلطان الجديد عبد الحميد أن يتخذ تدابير مالية صارمة، بدأها بنفسه وبالقصر السلطاني، وساعده في تنفيذها تكوينه الشخصي، المتصف بالحزم وبعد النظر والبعد عن الإسراف[١].

---

(١) صايار، المرجع السابق ص ٢٣٩.

«لقد تسلّم دولة مفلسة. ولكنه نجح في تخفيض ديونها بدرجة واضحة، ووفّق في تقليل الإسراف الذي حدث».

كان لا يعرف الإسراف وكان ذلك فيه شعوراً وليس تصرفاً فقط. وعمل كل ما في وسعه لإيقاف الإسراف في الدولة. وبدأ حملته ضد الإسراف في الدولة، في تقتير حجم الإنفاق بكل أشكاله في القصر. مثال على ذلك: إن العادة كانت قبل توليه، أن يقوم المطبخ في القصر ثلاث مرات في اليوم، بإرسال الطعام إلى كل منزل من منازل الحرس السلطاني وموظفي القصر ومستخدميه، وكل من يعمل في معيّة السلطان. وكان كل هؤلاء يسكنون داخل سور القصر. فأمر السلطان بإزالة هذه العادة. ومنع خروج الطعام مجاناً من مطبخ القصر. وأمر بألّا يأكل السلطان الطعام بمفرده، وإنما في مائدة واحدة مع أفراد أسرته، وبدون إسراف في أنواع وكميات الطعام.

ومع ذلك حدث أن قال بعض المسؤولين للسلطان بضرورة رفع سعر رغيف الخبز، لأن الدولة لم تعد تستطيع دفع الفرق بين ثمنه الحقيقي وثمن بيعه، فرفض السلطان هذا، وتبرّع بدفع الفرق من خزينته الخاصة(٢).

وعجزت الدولة عن إيواء المهاجرين المسلمين ممن طردهم الأوربيون من أراضي الدولة في البلقان. فقام السلطان ببناء مساكن ومساجد لهم من ماله الخاص، وأوجد لهم الأعمال وأكرم

---

(٢) مفتي أوغلو ص ٢٠١ ـ ٢٠٣.

وفادتهم. وقام بنفسه باختيار أماكن لاستقرار هجرتهم. وكانت سياسته تجاههم؛ أن يكونوا مفيدين مستفيدين. وقيام مدينة عمان عاصمة الأردن اليوم، إنما كان نتيجة طلب السلطان عبد الحميد الثاني، إيواء المهاجرين الشراكسة من البغي الروسي من مناطقهم الأصلية إلى مكان مدينة عمان اليوم. وقد أفاد الشراكسة من هذا المكان، فاستقروا فيه وطوّروه وأفاد منهم المكان. وقد أوجد السلطان المأوى، وسبل الإعاشة، وإنشاء قرى التهجير في كل أنحاء البلاد من استانبول إلى سيواس إلى حلب، وكفل نفقات ووقود وأدوية هؤلاء الذين شرّدتهم حرب ٩٣ بين العثمانيين والروس.

واتخذ السلطان عبد الحميد خطوات رسمية وصارمة لسداد الديون. منها أسهم رمضان: لأنها صدرت في شهر رمضان بقصد ضمان دفع الديون المتراكمة. وكانت نتيجة هذه التدابير مجتمعة، أن هبطت ديون الدولة العثمانية - التي كانت عند تسلم السلطان عبد الحميد الحكم «٣٠٠» مليون ليرة - إلى ثلاثين مليون ليرة فقط أي: إلى العشر.

والغريب أن الاتحاديين الذين أقصوه عن الحكم، وتولوا هم إدارة البلاد، ارتفع مقدار ديون الدولة في عهدهم القصير وهو ثمان سنوات، إلى مبلغ ٤٠٠ مليون ليرة[٣].

---

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد، ١٩٨٥ ص ٣٣ و١٩٧٨ والاستشهاد بعد ذلك من الطبعة الأولى ١٩٧٨ ويشار إليها باسم «المذكرات».

● وُعورة الأحوال السياسية ووخامة الأحوال العسكرية:

كانت سنة تولي السلطان عبد الحميد الحكم (١٨٧٦ م)، نقطة تحوّل حقيقي في تاريخ العثمانيين: أحداث غريبة، عزل السلطان عبد العزيز، وموته في ظروف غامضة وبطريقة غريبة. أسقطوه وحبسوه وقالوا انتحر. لكن التحقيقات أثبتت بعد ذلك: أن العثمانيين الجدد قتلوه. وتـولى السلطان مراد الخـامس العرش، ثم اضطر الثوار الذين أسقطوا عمه عبد العزيز إلى استصدار فتوى، بأن مراداً مخبول، وبالتالي عُزل بعد ثلاثة أشهر من توليه الحكم. الولايات العثمانية في البلقان في اضطراب وتمرد وتدخل خارجي. الحرب ضد روسيا تقترب ولا وسيلة هناك إلى منعها، وبخاصة أن الثوار الوزراء يتحمسون لها. موقع الدولة العثمانية الاستراتيجي مفتوح للتدخلات الأجنبية، وليست هناك فكرة تجمع الشعوب العثمانية على أمر واحد. خروج الدولة من عدة حروب. وقمع الدولة لعدة تمردات.

كل هذا استهلك المتبقي من طاقة الدولة، مالياً وعسكرياً وأحرج موقفها سياسياً.

تَصَوَّرَ السلطان عبد الحميد الثانـي أن المشروطية يعني: الحكم النيابي، وهذا لا يتمشى مع ظروف الدولة العثمانية، واقتنع بهذا التصور. لكنه وجد: أن الثوار الذين عزلوا عمه، ثم أخاه، يدفعون السلطان دفعاً إلى إعلان الحكم النيابي. فاضطر إلى إعلان المشروطية في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦، وافتتح أول مجلس نيابي عثماني. وهو مجلس «المبعوثان» واضطر أو دُفع دفعاً

لإعلان الحرب ضد روسيا. وهزيمة الدولة في هذه الحرب - رغم ما أبلاه الجيش من دفاع بطولي في قصبة بلاونة - وسقوط كثير من المدن الهامة في أيدي الروس حتى وصلوا إلى استانبول.

وأمام كل هذه الأخطار المدنية والعسكرية، وجد السلطان الشاب: أن الثوار ومجلس المبعوثان، قد ورطوا الدولة في هذه الكوارث، التي كان من الممكن تجنبها. لذلك أعلن السلطان عبد الحميد الثاني بعد توليه بحوالي سنتين «إرادة سنية» و «قراراً حكومياً» بتعطيل العمل بمجلس المبعوثان إلى أجل غير مسمى، وكان ذلك في ١٣ فبراير ١٨٧٨ م لكنه أبقى على الدستور.

ومن ثم بدأ السلطان عبد الحميد الثاني يمسك زمام الحكم والإدارة في البلاد بيديه واستمر في حكمه الفردي ثلاثين عاماً ونصف عام.

٢ - رحلته إلى مصر وأوربا:

عندما قام السلطان عبد العزيز على رأس وفد عثماني فيه الأمير عبد الحميد (السلطان فيما بعد) إلى مصر عام ١٨٦٣ م كانت هذه، هي ثاني زيارة لسلاطين آل عثمان للديار المصرية، فقد سبقتها قبل ٣٤٥ سنة دخول سليم الأول مصر.

لفت نظر عبد الحميد أثناء وجوده في مصر «الزيف الكاذب للبريق الأوربي» والأخذ هناك بالشكليات الأوربية، مما جعل مصر تستدين وتغرق في الديون، نتيجة انطلاق الوالي (الخديوي) إسماعيل باشا في إسرافه ومحاولته جعل مصر قطعة

من أوربا، في وقت كانت مصر والبلاد الإسلامية في حاجة إلى الاقتصاد الشديد في الإنفاق.

ثم كانت رحلته إلى أوربا، عندما أقامت فرنسا المعرض الدولي في باريس، ووجّه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، الدعوة إلى عدة حكام منهم السلطان عبد العزيز وكان عبد الحميد في معيته. واستمرت هذه الرحلة، من ٢١ يونيو إلى ٧ أغسطس من عام ١٨٦٧ م. زار الوفد العثماني: فرنسا وإنكلترا وبلجيكا والدولة النمساوية ـ المجرية.

وفي هذه الرحلة الأوربية، تفتّح ذهن عبد الحميد إلى أمور كثيرة، انعكست على فترة حكمه كلها بعد ذلك. وهذه الأمور هي:

١ ـ الحياة الأوربية بكل ما فيها من طرق معيشة غريبة وأخلاقيات مختلفة وشكليات.

٢ ـ التطور الصناعي والعسكري وبخاصة في القوات البرية الفرنسية والألمانية وفي القوات البحرية البريطانية.

٣ ـ ألاعيب السياسة العالمية.

٤ ـ تأثير القوى الأوربية على سياسة الدولة العثمانية، وبخاصة تأثير نابليون الثالث على عمه السلطان عبد العزيز، وضغط نابليون عليه، ليلتزم بمساندة الوزير عالي باشا. رغم أن السلطان عبد العزيز لم يكن يُشعر أحداً أنه تحت تأثير أي قوة غربية(٤).

---

(٤) المذكرات ص ٢٥.

انطبع في ذهن عبد الحميد أثناء هذه الرحلة: أن فرنسا دولة لهو، وإنكلترا دولة ثروة وزراعة وصناعة. أما ألمانيا فهي دولة نظام وعسكرية وإدارة. وكان إعجابه بألمانيا كثيراً، لذلك عهد بتدريب الجيش العثماني ـ عندما أصبح سلطاناً ـ إلى ضباط ألمان. وأعجب عبد الحميد أثناء وجوده في ألمانيا ضيفاً مع الوفد العثماني، أنّ كل من قاموا بالخدمة في القصر الذي حلّ به ضيفاً، كانوا رجالاً؛ ولم يكن بينهم امرأة واحدة.

وإعجابه بالتقدم العلمي والتقني الأوربي، دفعه أثناء سلطنته إلى الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة في دولته في مختلف نواحي الحياة: تعليمية وصناعية ووسائل اتصالات وعسكرية. والأمثلة على ذلك كثيرة منها: شراؤه غوّاصتين وكان سلاح الغواصات جديداً. وأدخل التلغراف إلى بلاده من ماله الخاص. وأنشأ المدارس الحديثة، وأدخل فيها العلوم العصرية، وأدخل إلى البلاد أول سيارة وأول دراجة، وأخذ بنظام القياس المتري. لكنه وقف بحزم ضد سريان الفكر الغربي في البلاد.

* * *

أثّرت رحلة عبد الحميد إلى أوربا أيضاً في اتّباعه سياسة استقلالية تجاه أوربا. ولم يُعرف عن عبد الحميد تأثير أي حاكم أوربي عليه، مهما كانت صداقته ومهما كانت درجة التقارب بين بلده وبين الدولة العثمانية.

ولفت انتباه عبد الحميد أثناء هذه الرحلة ذلك الحوار الذكي الذي كان يجريه فؤاد باشا الصدر الأعظم العثماني. والمعروف

أن الدولة العثمانية كانت في تلك السنوات بالذات، أضعف دولة كبيرة، ومع ذلك:

سُئل فؤاد باشا أثناء هذه الرحلة: بكم تبيعون جزيرة كريت؟ فردّ الباشا قائلاً: «بالثمن الذي اشتريناها به». وكان يعني بذلك: أن العثمانيين حاربوا في سبيل الحفاظ على جزيرة كريت ٢٧ عاماً كلها حروب.

وسئل فؤاد باشا أيضاً: «ما هي أقوى دولة في العالم الآن؟» فردّ قائلاً: «أقوى دولة الآن هي الدولة العثمانية. ذلك لأنكم تهدمونها من الخارج ونحن نهدمها من الداخل. ولم يستطع كلانا هدمها».

تعلّم عبد الحميد من هذا درس القدرة على إسكات القوى التي تود تحطيم الدولة العثمانية. وتعلّم ذكاء الحوار السياسي وهو ما برع فيه بعد ذلك.

وكان عمر عبد الحميد أثناء هذه الرحلة ٢٥ عاماً.

* * *

٣ ـ استبداد الوزراء واشتداد سياستهم التغريبية:

كانت جمعية العثمانيين الجدد وهي تضم النخبة المثقفة ومنها الوزراء يبحثون عن أصول للحكم لبلادهم، في حضارة الغرب. بمعنى: أنهم كانوا يريدون دستوراً للبلاد على النمط الأوربي ومجلساً للشعب مثل المجالس النيابية في الغرب.

واستطاع عدد من أعضاء هذه الجمعية الاشتراك في فعاليات

إعداد أول دستور عثماني وتحقيق ما تصوره من إصلاحات بفضل مدحت باشا[٥].

وجد أعضاء هذه الجمعية الثورية أنفسهم في أماكن النفوذ في الدولة. وأصبح الباب العالي (= الحكومة العثمانية) تحت سيطرتهم، فطفقوا يتجبرون ويتحكمون في البلاد، ويحتمون من السلطان بالدول الغربية، بعد أن كانوا ينقدون تدخلها في أمور دولتهم الداخلية، بل ويلجأون إذا اقتضى الأمر إلى السفارات الأجنبية مثلما فعل كبيرهم مدحت باشا عندما لجأ ـ وهو والٍ على إزمير ـ إلى السفارة الفرنسية عندما خاف من الاعتقال.

وبلغ من استبداد الوزراء بالحكم، أن كتب مدحت باشا، وهو في مقام الرئاسة لنخبة العثمانيين الجدد، إلى السلطان عبد الحميد في أول عهده بالعرش (١٨٧٧ م): «لم يكن غرضنا من إعلان الدستور إلّا قطع دابر الاستبداد، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات، وتعيين وظائف الوزراء، وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم، حتى تنهض البلاد إلى مدارج الارتقاء، وإني أطيع أوامركم إذا لم تكن مخالفة لمنافع الأمة..»[٦].

إن التأييد العام الذي تمتّع به أعضاء جمعية العثمانيين الجدد بين أوساط المثقفين، وإقبال الرأي العام عليهم، وشيوع حبّ

---

(٥) شريف ماردين، تركيا الفتاة: الفكر السياسي، ص ٣١.

(٦) يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دمشق ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥ ص ١٦.

الغرب في الصحافة والإعلام، أثّر في طريقة ومنهج السلطان عبد الحميد. ويقول السلطان عبد الحميد في هذا: «ولقد وجدت مدحت باشا ينصّب من نفسه آمراً ووصيّاً عليّ. وكان في معاملته بعيداً عن المشروطية (الديمقراطية) وأقرب إلى الاستبداد»(٧).

٤ ـ اغتيال عمه السلطان عبد العزيز:

عندما اختلف مدحت باشا وجمعية العثمانيين الجدد مع السلطان عبد العزيز، عزلوه ثم أذاعوا بياناً، بأن السلطان انتحر. لكن اللجنة الطبية التي شكّلها السلطان عبد الحميد ـ بعد اعتلائه العرش ـ للكشف عن هذه المسألة، أكدت أن الحادث لم يكن انتحاراً بل كان قتلاً، وإلا فكيف يمكن للمنتحر أن يقطع شرايين ذراعيه الاثنتين بنفسه، وقدموا الدليل الطبي على عدم موت السلطان عبد العزيز انتحاراً، بل اغتيالاً(٨).

٥ ـ تعرضه في بداية حكمه لمحاولتين انقلابيتين بدعم إنكلترا:

أ ـ مؤامرة علي سعاوي:

«علي سعاوي» أحد أعضاء جمعية العثمانيين الجدد. وهو من النخبة المناوئة لحكم السلطان عبد الحميد. وكان مناوئاً من قبل لحكم السلطان عبد العزيز. وفي عهد هذا السلطان الأخير كان «علي سعاوي» منفياً من البلاد. وعلى أثر اعتلاء السلطان عبد الحميد، صدر قرار بالعفو عن «علي سعاوي» فترك منفاه في

---

(٧) المذكرات ص ٢٦.

(٨) أوزطونه، تاريخ تركيا الكبير جـ ٧ ص ١١٨ ـ ١١٩.

أوربا وعاد إلى استانبول وشغل بعض المناصب. وتقرّب إلى السلطان فقـرّبـه لكن نتيجـة لسلوك علي سعـاوي فقـد اعتبـاره لدى السلطان، وبالتالي أعفي من أعماله الرسمية. وبذلك عاد علي سعاوي مرة أخرى إلى مناوأة الحكم.

رتّب علي سعاوي هجوماً مسلحاً على قصر جيراغان حيث يقيم السلطان المخلوع مراد الخامس، الذي أُعفي من الحكم نتيجة جنونه. وبعد نجاح هذا الهجوم ـ المُتصوَّر ـ يقوم علي سعاوي بإخراج السلطان مراد من القصر وينصبه سلطاناً حاكماً بديلاً عن السلطان الشرعي عبد الحميد.

ولما كان علي سعاوي مؤيداً للإنكليز، ومؤيداً منهم، فقد أدخل في حساباته اهتمام إنكلترا بهذه المؤامرة، وبخاصة أن الدوائر الماسونية في أوربا، وفي داخل الدولة، كانت تهتم بأخبار السلطان مراد ـ وكان عضواً فعّالاً في الماسونية ـ أولاً بأول. واستفاد علي سعاوي من هذا الاهتمام.

وفي ١٨ مايو عام ١٨٧٨ م نجح علي سعاوي بمجموعة مسلحة من المهاجرين، تقدر بمائتي رجل، في الهجوم على القصر والوصول إلى جناح السلطان مراد. لكن قوة حرس في مكان مجاور للقصر استطاعت الوصول في الوقت المناسب وتمكّنت من إحباط المؤامرة، وقتل علي سعاوي، وحوالي عشرين من مساعديه[٩].

---

(٩) أوزطونه، المرجع السابق ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

ب ـ مؤامرة جمعية كلانتي الماسونية:

بعد فشل المؤامرة الأولى، قامت جمعية «كلانتي سكاليري» الماسونية السرية بمؤامرة شبيهة بالأولى ضد السلطان عبد الحميد. تسمى هذه الجمعية أحياناً باسم «جمعية كلانتي وعزيز بك» الماسونية السرية. كانت المؤامرة قد كمل التخطيط لها في يوليو ١٨٧٨ م. أي: بعدما يقرب من شهرين بعد فشل مؤامرة علي سعاوي.

والواقع أنّ الدوائر الماسونية العالمية، كانت حريصة على تعقب أخبار صحة السلطان المخلوع مراد. وكانت هذه الدوائر تخشى عليه من القتل، أو أن يصاب بضرر وقد كتب رئيس الجمعية الماسونية في استانبول، خطاباً إلى التنظيمات الماسونية في إيطاليا؛ يؤكد فيه: إنه لا خطر على السلطان المخلوع مراد من القتل.

وكلانتي هذا، هو اسم الأستاذ الأعظم لمحفل برودوس الماسوني في استانبول. واختار كلانتي لمؤامرته توقيتاً، هو قيام السلطان عبد الحميد بعزل صدره الأعظم أدهم باشا، وكان أدهم باشا من أهم الشخصيات التي يعتمد عليها الماسونيون في أعمالهم.

كان هدف المؤامرة، إخراج السلطان مراد من القصر وإخفاءه مؤقتاً في قصر عزيز بك، العضو بنفس الجماعة إلى أن يهيىء أنصار الجمعية لإعلان مراد سلطاناً مكان السلطان الشرعي عبد الحميد.

نشطت جمعية «كلانتي» في الدعاية ضد السلطان عبد الحميد، قبل تنفيذها لعمليتها، وتمثّلت هذه الدعاية ـ فيما تمثلت ـ في نشر الملصقات في الشوارع.

وأشركت الجمعية في عمليتها شخصيات نسائية من داخل قصر جيراغان. كما نظّمت هذه الجمعية أيضاً مخططاً لاغتيال السلطان عبد الحميد، عدلت عنه فيما بعد.

وقبيل شروع جمعية كلانتي الماسونية السرية في تنفيذ خطتها قام أحد أعضائها ويدعى «حسني» بإبلاغ السلطات المسؤولة، فقبض على أعضاء الجمعية وهم في اجتماع.

وكانت إنكلترا تؤيد المؤامرتين وتقف خلفهما[١٠].

* * *

٦ ـ تعرضه لمحاولة اغتيال الأرمن له بقنبلة موقوتة:

في الخامس من يوليو عام ١٩٠٥ قام المتمردون الأرمن بتنظيم مؤامرة لاغتيال السلطان عبد الحميد. وكانت وسيلتهم في هذا قنبلة موقوتة تنفجر عقب خروجه من المسجد من صلاة الجمعة. وبالفعل انفجرت القنبلة، لكنها انفجرت قبل وصول السلطان إلى مكانها. ولم يصب السلطان بأذى إلا أن الحادث أودى بأرواح ٢٦ شخصاً وجرح ٥٨[١١].

* * *

---

(١٠) قارال، المرجع السابق ٥٠١ ـ ٥٠٤.
(١١) حكمت طانيو، اليهود والأتراك عبر التاريخ، استانبول ١٩٧٧، الجزء الأول صفحة ٤٧٢.

الفَصْل الرّابِعْ
شخصيّة السُّلطان عبْد الحَميد ومنهج تفكيره

١ ـ صفاتـه:

اتصف السلطان عبد الحميد في صغره بالانطواء. وكان سبب ذلك فقده لأمه في سن مبكرة وقد ماتت أمه في حوالي الثلاثين من عمرها. وكان هو في العاشرة تقريباً. ماتت أمه بعد مرض كان عبد الحميد الطفل وقتها قلقاً على أمه. ولما ماتت حزن عليها حزناً شديداً، وانطوى على نفسه حتى لقبه والده السلطان عبد المجيد بلقب «الطفل المنطوي». لكن هذا الانطواء، دفعه إلى التأمل ومحاسبة نفسه أولاً بأول، والتفكير فيما حوله كثيراً.

ولما تولّت زوجة أبيه ـ وكانت رحيمة ـ تربيته، أحبته كثيراً لهدوئه وانطوائه، وبادلها هو حباً بحب، واعتبرها أمه. وكانت زوجة أبيه إنسانةً رقيقةً محبةً للخير، تتحدث بصوت خفيض. ويقال: إنه أخذ عنها هذا الجانب فقد كان صوته خفيضاً.

وكان محباً لتعلم اللغات، وقد تعلّم وهو صغير في القصر اللغات التي كانت تتردد حوله. فتعلم اللغة الشركسية وتعلّم اللغة

الألبانية. كما كان محباً للقراءة والمطالعة. كثير الصمت، قليل الكلام. جيد الاستماع إلى الغير.

كان يمارس الرياضة البدنية، وركوب الخيل، والجري والمبارزة بالسيف، وإصابة الهدف في ضرب النار.

ورغم أنه ورث ـ عن زوجة والده ـ ميراثاً ضخماً، فلم يكن مسرفاً ولم يعرف التبذير. وكان هو الأمير الوحيد بين أمراء القصر ـ في وقته ـ الذي لم يكن مديناً مالياً لأحدٍ البتة. بل على العكس فقد كان يستثمر أمواله وينميها ويديرها بنفسه. كان يستثمر أمواله في تربية الأغنام وبيعها، وفي التجارة عندما كان أميراً بعيداً عن مسؤوليات الحكم.

لم يكن ـ وهو أمير وابن سلطان الدولة ـ يرمي بأحذيته القديمة، بل كان يرتقها ويصلحها ويستخدمها. وكان يعرف أن البعض يتهكّم عليه، لكنه لم يكن يبالي بهذا، وكان مقتنعاً بأن ما يفعله هو الصحيح، فالتبذير ـ في رأيه ـ هو الحرام وهو الشيء الذي ينبغي التهكم عليه.

كان أمراء القصر السلطاني يسهرون كثيراً خارج القصر. أما هو فلم يُعرف عنه إلا أنه كان دائم الملازمة لأسرته. لا يخرج ليلاً ليسهر خارج نطاقها، بل يبقى معها، مما كان له أثره في تقوية علاقاته الأسرية وتعميقها[1].

وبلغ اهتمامه بأسرته ـ زوجته وأولاده ـ أنه كان يخطط لها كل

(١) أورخان قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، ص ٢٦ ـ ٤٧ و ص ٤٩.

أمورها بما في ذلك تنزهها وراحتها وتسليتها، ولا يترك هذا لأحد قط في القصر.

ولم يُعرف له علاقات خارج نطاق أسرته، لذلك كانت الإشاعات والأقاويل عنه معدومة، بعكس غيره من الأمراء.

كما كان ناجحاً في المحافظة على معدل عمله اليومي، والذي هو عبارة عن أربعة عشرة ساعة يومياً أثناء تسلطنه، وظل على هذا المنوال مدة ٣٣ سنة.

ومن صفات السلطان عبد الحميد، أنه كان مشهوراً بقوة ذاكرته، وبذكائه الحاد، وبقوة تأثيره في مستمعيه والمتعاملين معه، رقيقاً في تعامله الخاص. وكان يستقبل كل من يستقبله وهو واقف على قدميه ولم يكن يفعل في ذلك مثلما يفعل الملوك والقياصرة في زمانه وهو استقبال القادمين إليهم وهم جلوس.

كان ـ السلطان عبد الحميد ـ حلو الحديث. يحترم محدثيه، حتى لو كانوا صغاراً.

من صفات السلطان عبد الحميد الثاني المعنوية: التدين والشجاعة، واستعمال العدالة والرحمة بأعدائه، وتقدير معارضيه، ونجاحه في إقناع الآخرين بفكره، والحلم تجاه مناوئيه، ومحاولة استرضائهم. وتطويع أعدائه لخدمة أهدافه. ورباطة الجأش، وخضوعه للرغبة العامة إذا تحقق من اتجاهاتها. ونفوره من سفك الدماء، والحذر من الأعداء والرغبة في مناورتهم.

وهناك صفات أخرى كتبها مؤرخوه منها: دقته في كل ما يعرض عليه. وكان يسمح بإيقاظه من النوم في أي وقت من الأوقات طالما كان هذا في مصلحة العمل وأمور الدولة. لا تأخذه في الحق لومة لائم. يختار موظفيه بنفسه. وكان بعيد النظر[٢].

٢ ـ رؤية أعدائه ورؤيـة محبيه له: (نماذج):

● رؤية أعدائه له:

كان للسلطان عبد الحميـد مواقف حـازمة تجـاه تمردات الأرمن، التي كانت روسيا تساعدهم فيها. وكذلك الجمعيات الأرمنية الثورية. وكان الإعلام الغربي عامة والفرنسي خاصة يندد بموقف السلطان عبد الحميد من الأرمن.

لذلك أطلق الأرمن على السلطان عبد الحميد لقب «السلطان الأحمر» بمعنى: السلطان الذي يسفـك الدمـاء. وأول من استخدم هذا اللقب المؤرخ الفرنسي المشهور، وعضو الأكاديمية الفرنسية: الكونت «ألبرت فاندال».

ولم يتوان الأدباء الفرنسيون في وصف السلطان عبد الحميد بلقب «السلطان الأحمر»، ويأتي على قمة هؤلاء الأدباء: الأديب الفرنسي الذائع الصيت: «أناطول فرانس».

ووصف «جلادستون» رئيس وزراء بريطانيا، وصف السلطان

(٢) المرجع السابق ص ٤١ وأوزطونه ص ٢٣٨ والمذكرات ص ٣١ وكذلك مذكرات الأميرة عائشة ص ٤٠١.

عبد الحميد بقوله: «إنه الشيطان، عدو النصارى، القاتل الكبير». وكان «جلادستون» معروفاً في السياسة بأنه متعصب دينياً مفرطاً في ذلك لدرجة إمساكه في مجلس العموم البريطاني بنسخة من القرآن الكريم وكاد يلقيها على الأرض.

* * *

كما أن بعض مواطني السلطان عبد الحميد ممن اختلفوا معه في الفكر وعادوه، كوَّنوا رؤيتهم له من خلال عدائهم له. فتصفه جريدة «عثمانلي» الناطقة بلسان الاتحاد والترقي بأنه «عصبي المزاج، صفراوي». وفي النداء الذي توجهت به جمعية الاتحاد والترقي «إلى الأمة!» بعنوان «إمّا الحق أو الموت» وصفت السلطان عبد الحميد الثاني بأنه «كلب مسعور» فقالت الجمعية في البيان المذكور: «أيها العثمانيون! اعلموا أن قتل الكلب المسعور فرض».

وفي الوقت الذي يفخر فيه قائد الجناح المدني من جمعية الاتحاد والترقي وهو «أحمد رضا» بكونه كافراً، نجد أحد أقطاب المعارضة وهو الداماد «محمود باشا» يصف السلطان عبد الحميد الثاني بقوله: «إنه رجل ينكر الدين وينكر الوطن».

ويصف الضباط الاتحاديون الشبان سلطانهم عبد الحميد بقولهم: «ديكتاتور خامل جبان لا يحب الحرب»(٣).

* * *

(٣) نجيب فاضل، ص ٢٥٩.

ويورد السلطان عبد الحميد نفسه في مذكراته بعض صفات وصفه بها أعداؤه منها: «الظالم الغدار» و «عدو الأدب والأدباء».

* * *

واليهود وهم الأعداء الطبيعيون للسلطان عبد الحميد، يرون في السلطان عبد الحميد صفات منكرة: يصف «هرتزل»، السلطان عبد الحميد بأنه: «سلطان ماكر جداً خبيث جداً ولا يثق بأحد». وقال «هرتزل»: إنه «يفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا تحقيق أمانيهم في «الأرض الموعودة» طالما كان السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم مستمراً فيه»(٤).

● رؤية محبيه له:

لمحبي السلطان عبد الحميد رؤية تخالف الرؤية السابقة. وأهم رؤية لهم هي رؤية الشعب العثماني، فهذا الشعب وجد في السلطان عبد الحميد «الأب الحقيقي للأمة».

وعبّر الشاعر «يحيى كمال» عن حب الشعب للعدالة الحميدية - نسبة إلى عبد الحميد - في قصيدة ذكر فيها أن السلطان عبد الحميد هو «الخليفة العادل».

واشترك الشعب العثماني في جنازته، رغم أنها كانت في عهد أعدائه حكومة الاتحاد والترقي. وكانت جنازة السلطان

---

(٤) نجيب فاضل، المرجع السابق ص ٤٦٣ والمذكرات ص ٦٠ وص ٢٠ وأوزطونه ص ٢٤٠ ومقدمة المذكرات ص ١١.

عبد الحميد: «واحدة من أعظم الجنازات في تاريخ البلاد».
وأحبه الشعب، فقد كانت السياسة التي اتبعها «جعلت الدولة العثمانية جنة رخص الأسعار».

وعن حب الأمة للسلطان عبد الحميد عبّر الشاعر أحمد راسم بقوله:

«لست أنت
وإنما لو كان نعشك هذا حاكماً لنا
لكان أليق بنا.
فليرجع تابوتك ليجلس على العرش العثماني»

ويقول الشاعر سليمان نظيف مادحاً السلطان ـ بعد موته ـ متهكماً على حكم رجال الاتحاد والترقي الذين أسقطوا السلطان، بدعوى استبداده:

«مولاي السلطان: لقد اشتقنا إلى الاستبداد القديم».

* * *

وفي كتاب «٤٠ سنة في البحرية العثمانية» يقول السير هنري وودز:

«عبد الحميد سلطان عظيم. حياته هادئة جداً وبعيدة عن المظاهر. كان يستمع لمن حوله عندما كان يحاول إيجاد حل لمسألة من المسائل. لكنه لم يكن أسيراً لآراء الآخرين. كان عاقلاً ورزيناً حتى قبل توليه العرش. إدارته ممتازة. كان يعمل بجدٍ لربط أجزاء بلاده المبعثرة».

وقال الكاتب التركي آتْصِزْ: «إن السلطان عبد الحميد الثاني واحد من أكبر الشخصيات التاريخية المظلومة بين الناس والمفترى عليها كثيراً. هذا السلطان العظيم عرّفوه لنا: بأنه قاتل ودموي ومستبد وأحمر وجاهل وجبان. إنه قُدِّم للناس من خلال نظرة أعدائه له. قُدِّم للناس تحت تأثير الدعايات التي كانت دائماً ضده. إنه لإنسان سيء الحظ».

ويقول الروائي التركي «ناهد سرّي أوريك» مؤلف رواية «عند سقوط عبد الحميد»: إنه لم يفهم حقيقة السلطان عبد الحميد إلاّ متأخراً لكنه عندما فهمه قدّره واحترمه و«لم يكن عبد الحميد مجنوناً يخاف من ظله، دموياً ظالماً كما ادّعوا عليه، وضللونا، بل كان على العكس تماماً. كان إنساناً رحيماً، يحفظ للناس أعراضهم وأموالهم. وقناعتي تامة بشجاعته في أعصب الأوقات..»[٥].

٣ ـ منهجه في التفكير:

أولاً: على المستوى العام:

● دعامة الحاكمية:

أحب شُعب المعرفة إلى السلطان عبد الحميد «الأدب والتاريخ». ويرى أنّ الحاكمية في التاريخ لا تقوم على القوة وإنما على العدل. ويقول في ذلك: إن «العدل هو أساس المشروعية، والمشروعية مسند الحاكمية، والقوة مؤيدة

---

(٥) مفتي أوغلو ٤١٩ ـ ٤٢٠ و٤١٧ ـ ٤١٨ وأوزطونه ٢٤٠ ـ ٢٤١.

للمشروعية، والحاكمية مضطرة للاعتماد على العدل. فإذا نهض أحد للحكم بلا عدل واستخدم القوة بلا مشروعية، فلا بد لهذا الحكم أن ينهار».

● **الحاكم ورغبات الأمة:**

وفي الحكم أيضاً ينظر السلطان عبد الحميد إلى ضرورة «ألّا يقف الحاكم أمام رغبات الأمة ولو كانت خطأ، طالما أنها تريد ذلك، فالوقوف أمام التيار لا ينتج عنه إلا الضرر». وترك الأمة تجرب أمر حتمي. ويقول في تأكيد هذه الفكرة: «لم أكن أستطيع الوقوف أمام تيار ذلك العهد وقلت: ما دامت الأمة تريد تجربة مسؤوليتها في مقدراتها وحكم نفسها فليكن ما تريد الأمة» وذلك رغم اقتناعه: بأن تجربة الديمقراطية غير مجدية للدولة في ذلك الوقت، وأن هذه الديمقراطية ستجر البلاد إلى مشاكل لا حصر لها. وقد حدث ما توقعه.

ومن المواقف التاريخية التي سُجّلت لصالح السلطان عبد الحميد: أنه كان يملك القوة لوقف مواصلة جيش الاتحاد والترقي القادم من سلانيك لإسقاطه، ومع ذلك فقد أمر السلطان عبد الحميد بألّا يخرج الجيش المتمركز في استانبول من ثكناته، عندما كان جيش أعدائه يتحرك بالقرب من استانبول، كما أصدر السلطان أمره بعدم الاشتباك مع الجيش القادم. ويقول في هذا: «ألم يكن في إمكان جيش استانبول أن ينتصر على ذلك الجند القادم من سلانيك وهم في حالة يعوزها النظام؟!».

● **ليس من الحكمة إراقة دماء الجنود في سبيل الحفاظ على الحكم:**

والسبب في ذلك: فكرته في عدم الوقوف أمام التيار ويعبّر عن هذا بقوله: «لم أحب أن أريق دماء جنودي. كنت أرى أن الأمة لم تعد تثق بي».

● **المواطَنة وشرفها:**

يرى السلطان عبد الحميد: أن المواطن الشريف، هو الذي يعمل من أجل بلاده، وبالتالي لا يخضع للأجنبي ـ بمعنى النصراني أو اليهودي ـ بأي شكل من الأشكال.

ويعيب السلطان على وزيره مدحت باشا: أنه ـ خوفاً من تقديمه للمحكمة ـ «اتجه مباشرة إلى القنصلية الإنكليزية. ووجد أن القنصل في عطلة، فلجأ إلى القنصلية الفرنسية واحتمى بها». رغم أن إنكلترا وفرنسا كانتا تتحينان الفرصة للقضاء على الدولة. إن هذه الحادثة «أحنت رأس العثماني أمام الصديق وأمام العدو».

وبذلك تصرف مدحت باشا ـ كمواطن ـ تصرفاً «لا يمكن الصفح عنه».

وكذلك كان الأمر مع وزير الدفاع العثماني، الذي قام سراً بالاتصال بالسفارة الإنكليزية، وتلقى من إنكلترا ـ عدوة بلاده ـ أموالاً طائلة. إن هذا التصرف كان في نظر السلطان عبد الحميد، تصرفاً دنيئاً يمس كرامة المواطَنة وبخاصة أن هذا الوزير ـ حسين عوني باشا ـ كان قائداً عسكرياً عثمانياً «ومسألة أن

قائداً عثمانياً يقبل نقوداً من دولة أجنبية، لم يكن عملاً يستهان به» ولم يهز شيء حياة السلطان عبد الحميد هزاً شديداً قدر شخص يرتفع إلى مكان قيادة الجيش أو إلى مقام الصدارة العظمى ويقبل نقوداً من دولة أجنبية.

● عدالة الحكم على الأشخاص ولو كانوا من الأعداء:

ويتميز فكر السلطان عبد الحميد، بعدالة حكمه على الأشخاص وبخاصة هؤلاء الذين وقفوا له بالمرصاد ووقف لهم، عادوه وعاداهم، وأولهم «مدحت باشا»: قَتَل عمه السلطان عبد العزيز، وناصبه هو العداء جهرة، إلا أن السلطان لم ينكر الجانب الإيجابي في شخصية عدوّه مدحت باشا فوصفه بقوله: «اكتسب مدحت باشا تقديرنا جميعاً بحسن إدارته وتعميره لولاية الطونة» و «مدحت باشا كان والياً جيداً» و «أنا لا أغض من قيمة مدحت باشا فهو كان والياً فعَّالاً ومستقيماً».

وعندما أدان القضاء ـ وكان حرّاً ـ مدحت باشا بقتل السلطان عبد العزيز لم ينس السلطان عبد الحميد الجانب الإيجابي في وزيره القديم، فيقول: «في الحقيقة كنت دائم التخوف من مدحت باشا. ولكن وقت صدور حكم المحكمة، رأيت أن إنساناً معروفاً بهذا القدر، يستوجب ألّا ينفّذ فيه حكم الإعدام».

ومن العدالة في هذا الباب يقول السلطان: «لم أُلحق أدنى ضرر برجل من رجاله على الإطلاق. وكنت أمرت بصرف مرتّب إلى أسرته. بل وعيّنت بعض رجاله في الوظائف المختلفة التي

وصلت أحياناً إلى درجة الصدارة العظمى، مثل عبد الرحمٰن باشا وخليل رفعت باشا عندما رأيت صلاحيتهم. وعينت من رجاله أيضاً المشير شاكر ورائف باشا في مراكز الدولة المهمة».

رغم أن رجال مدحت باشا هؤلاء مثله في أفكاره المضادة للحكم ولشخص السلطان.

وعن حسين عوني باشا، عدو السلطان عبد الحميد ووزير الدفاع وقائد الجيوش، يقول السلطان: «كان لحسين عوني باشا مزاياه كما كانت له عيوبه» و«أقبلُ القول: بأنه جيّد كجنديّ. ولكنه كرجل دولة كان سيئاً: بِعَدَمِ تَبَصُّره وبكثرة كلامه وغروره. ولكني أعرف أنه ـ حتى تاريخ إرساله إلى المنفى ـ كان رجلاً شريفاً. إن أسباب الحاجة، والآلام التي قاساها في منفاه، أوقعته في غفلة البحث عن الشرف. وكان هذا محور سوء حظه». وهو يشير بذلك إلى قبوله الرشوة من إنكلترا.

ويجهر السلطان عبد الحميد بما لأعدائه من مزايا. وقد كتب عن «قسطنطين» قيصر بيزنطة الذي كان عدواً للفاتح، والفاتح جد من أجداد عبد الحميد، والفاتح فتح القسطنطينية (وهي استانبول) وقضى على بيزنطة وقُتل قسطنطين أثناء دفاعه عن القسطنطينية. يقول السلطان عبد الحميد: «قسطنطين ـ وفي يده السيف ـ حارب دفاعاً عن استانبول بين أبراجها. وقدّم روحه محارباً تحتها».

● **الحرب لا تكون إلا بالاستعداد لها:**

شكّلت نظرة السلطان عبد الحميد إلى الحرب، ظروف انهيار دولته وإفلاسها. وكان لا يرى مصلحة في دخول دولته الحرب، إلا إذا كانت مهيَّئة لهذا. وردّ على الذين كانوا يدينونه بالإحجام عن الحرب، بقوله: «لا ألتفت لفريق دون اقتناعي حساباً بانتصاره» لأن الحرب في تصور السلطان «أكبر آفة للأمم. حتى المنتصرون فيها فإنهم يمحون أممهم ويرهقونها». ولقد كان السلطان صريحاً مع نفسه، عندما قال: «أنا دائماً ضد الحرب».

ويـرى أن البعد عن الغوغائية في تقدير دخول البلاد الحرب، أجدى وأنفع للبلاد. يؤكد ذلك في قوله: «إن الحروب التي تنتهي بالنصر ترهق الأمة، مثلها في ذلك مثل الحروب التي تنتهي بالهزيمة. وأمور مثل الرفعة والمجـد، تظهر آثارها الجميلة على البلاد العامرة الأطراف، الآمِن يومُها، الآمِن غدُها. أما الجائعون العراة في الأراضي الخربة ويدّعون الرفعة والمجد! ويجرون خلفهما، فلن يكون هناك أمر مضحك مفجع كأمرهم».

● **سياسة الوقيعة بين الدول الاستعمارية الكبرى:**

من أجل تكالب الدول الأوربية على الدولة العثمانية وتدبير قادتها المؤامرات ضدها اتخذ السلطان عبد الحميد سيـاسة الوقيعة بين تلك الدول الاستعمارية الكبرى، وعدم انجرار الدولة في حرب غير مهيَّئة لها. وعندما أُسقط السلطان عن عرشه، اندفع زعماء «الاتحاد والترقي» الذين حكموا الدولة العثمانية بعده، إلى دخول الحرب العالمية الأولى، دون أن يكون للبلاد

أدنى استعداد. ولم يكن لها في دخول الحرب مصلحة، فانهزمت الدولة وانهارت وانتهت من التاريخ.

● ضرورة الشورى للحاكم:

رأى السلطان عبد الحميد: أن الشورى ذات أهمية للحكم وللحاكم، لكنها ليست بالضرورة ملزمة له. وقد دأب هو على استشارة أهل الاختصاص والعلماء، لكنه كان يتصرف حسبما يرى أن فيه مصلحة البلاد.

مثال على ذلك أنه استشار شيخ الإسلام «أحمد أسعد» عن أنسب الأشخاص لشغل منصب والي سوريا، فاقترح هذا على السلطان تعيين كامل باشا ناظر (= وزير) الأوقاف. فاستمع السلطان، لكنه لم يفعل. لأنه أحس، أن الصدر الأعظم، «سعيد باشا» ومعه تيار من وجهاء الدولة يرى: إبعاد «كامل باشا» عن مجلس الوزراء وعن العاصمة للمنافسة والنزاع بين الصدر الأعظم وبين ناظر الأوقاف.

● رفض الأخلاقيات الوافدة:

كان السلطان عبد الحميد، ينتقد بعض شباب البعثات التعليمية الذين كانوا يسافرون لتلقي العلم في الخارج، لاهتمامهم بالأخلاق الأوربية. وفي هذا يقول: «بعض الشباب الذين يذهبون إلى أوربا، كان يرى ـ وقبل أن يرى ما حدث في المختبرات العلمية هناك أو حتى قبل أن يدير رأسه إليها ـ كان يرى السيدات تراقصن الرجال. وكان هؤلاء الشباب يعجبون بالأوربيين وهم يشربون الخمر أيضاً. وفي عودتهم إلى بلادهم

كانوا يعملون على التوصية بكل ذلك، مدّعين أن قمة الحضارة الأوربية تتمثل في مثل هذه الأمور. كنتُ أقول: إن هذا خطأ فكانوا يتهمون تفكيري بأنه عنكبوتي».

ولم يكن السلطان عبد الحميد، يريد من الغرب ثقافته وتراثه، لأنه كان يرى أن للإسلام حضارته المتكاملة بأخلاقياته الخاصة، المتفوقة على الحضارة الغربية، والأخلاق الغربية. وأن الغرب لا يُؤخذ منه إلا العلوم الحديثة.

● ضرورة الواقعية السياسية:

الواقعية السياسية في إصدار الحكم على أمر ما، من ميزات تفكير عبد الحميد السياسي. وعندما ادعى عليه خصومه، بأنه أظهر ضعفاً ملحوظاً عندما سيطر أمير البلغار «دوباتنبرج» على مدينة فيلبه في منطقة الروملي الشرقية، دافع السلطان عن نفسه بقوله: «أي قوة كانت موجودة ولم أستخدمها في الدفاع عن حق الحاكمية في الروملي الشرقية» و«لو كنت اندفعت إلى دخول الحرب ضد البلغار في فيلبه فلن يواصل البلغار والصرب العداء ـ الذي بينهما ـ بل سيتحدان ضدنا ولن تصبح المسألة في ذلك الوقت، مسألة الروملي الشرقية ـ فقط ـ بل كانوا سيقولون معها بحل مسألة مقدونيا أيضاً».

الواقعية السياسية، دفعت السلطان عبد الحميد إلى تقرير أنه لم يكن يتصور أن الحرب هي الوسيلة لحل مسألتي احتلال فرنسا لتونس واحتلال إنكلترا لمصر. وأن أوضاع الدولة لا تسمح بمواجهة القوى الصغرى فما بال المواجهة العسكرية مع الكبرى

منها. ولذلك يقول: «لو كنت اندفعت للمقاومة في تونس فربما تسببت في ضياع سوريا. ولو وقفت بعناد في مصر لكنت بالتأكيد فقدت فلسطين والعراق» و«لا يجوز أن أضع الحاكمية الحقيقية في الخطر، وأندفع للمحافظة على الحاكمية اللفظية».

● **مفهوم التقدم والتجديد والتطور:**

مفهوم السلطان لهذه الاصطلاحات، ينبع من كونه حاكماً مسلماً تربى على الثقافة الإسلامية وأنه خليفة المسلمين. وبالتالي، فالتقدم عنده يعني الهدوء، ويعني الاعتدال في تطبيق العلوم التقنية والصناعات الأوربية، وبالتالي، فإنه كان مع التقدم وليس ضده، ومع الأخذ بما وصل إليه الغرب من تقنية، بشرط أن تكون الحاجة إليها قائمة. كان يريد ما يهم فقط من العلوم الحديثة. وحتى هذا المهم لا يريده مرة واحدة، وإنما بالتدريج، إذ يقول في هذا: «ليس من الصواب القول: بأني ضد كل تجديد يأتي من أوربا. لكن العجلة من الشيطان. ويقابل العجلة الهدوء والاعتدال، يجب أن نضع نصب أعيننا ما تفضّل به الله علينا. ليس الإسلام ضد التقدم، لكن الأمور القيّمة يجب أن تكون طبيعية، وأن تأتي من الداخل وحسب الحاجة إليها. ولا يمكن أن يُكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج».

● **الوقوف ضد التطور العلمي، خطأ:**

كان السلطان عبد الحميد، يؤمن بقيمة التطور العلمي في حياة الشعوب. ولم يكن ضد هذا التطور العلمي، بل كان يشجعه، طالما أن إدخاله لن يؤثر سياسياً أو اجتماعياً أو أخلاقياً

في البلاد. وقد أنشأ على حسابه الخاص أحدث كلية طب في العالم، بعد كلية الطب في فيينا. وهناك مثال آخر على تحمسه للأخذ بهذا المعنى الخاص لديه من العلم الأوربي:

في عام ١٨٩٢ م، انتشر وباء الكوليرا في استانبول. وكان هذا المرض قد انتشر أولاً في إزمير قادماً من مصر. ومن إزمير انتشر في الأناضول. واحتار الأطباء العثمانيون في تشخيصه. وأمر السلطان عبد الحميد بإرسال عينات من الماء إلى الكيميائيين لتحليلها، واختلف الكيميائيون في الأمر. وقرر السلطان الاتصال بالعالم «باستير» وطلب منه تشخيص الوباء المنتشر. ورحّب «باستير» وبخاصة أن السلطان عبد الحميد قد أمدّه بمساعدة مالية كان يحتاجها في أبحاثه. وأرسل باستير بمجرد تلقيه هذه الدعوة من السلطان عبد الحميد، مساعده الأول وهو «شانتايمز» إلى استانبول. ونجح هذا في تشخيص الوباء. وأوصى بعدة أمور، أمر السلطان بتطبيقها.

أفاد السلطان عبد الحميد من العلوم الغربية بطريقته الخاصة في كافة الميادين التي رأى أنها تحتاج لخبرة أوربا. وأقام كليات علمية كثيرة من هذا المنطلق.

● **مفهوم تحديث الدولة وتطبيقه:**

يرى عبد الحميد أن عدم الأخذ بالجديد في العلوم، سبب من أهم أسباب تأخر الدولة العثمانية. وقد أفاد هو من هذه الفكرة، بأن قام بتحديث الدولة العثمانية. وكان التخلف قد أصابها طويلاً، قام بتحديثها في ميدانين:

الأول: الميدان المدني:

أقام فيه كلية للطب على أحدث طراز ـ كما مرّ ـ كما أقام كلية للعلوم، وكلية للعلوم السياسية، وأكاديمية للفنون الجميلة، ومدارس عليا للتجارة والزراعة والبيطرة والغابات والتعدين والتجارة البحرية. ولم ينس الاستفادة، مما وصلت إليه أوربا في تعليم الصم والبكم والعمي، فأقام مدرسة حديثة لهذا.

كما أرسل البعثات العلمية إلى كل من ألمانيا وفرنسا.

الثاني: تحديث الجيش:

أثبتت الأحداث العسكرية، أن الأسطول العثماني لم يكن فعّالاً رغم كثرة عدده. فقد كان ربابنة السفن العثمانية تقريباً من الإنكليز. يعني: أن أسطول الدولة كان في يد أعدائها. وهكذا تسلّمه السلطان عبد الحميد عن سلفه. ولما أراد تغيير الربابنة احتجّ السفير الإنكليزي في استانبول على هذا. واعتبر السلطان عبد الحميد أن ليس لديه أسطول، وله في ذلك أسباب أخرى. ذكرها في مذكراته.

ولكن في مقابل هذا أسرع بتجهيز الجيش بالأسلحة الحديثة، وما هو مناسب من أسطول وفنون الحرب، واستدعى إلى استانبول الضابط الألماني الكبير «فاندر غولتز». وتجدر الإشارة في ذلك إلى: أنه كان يعمل على تحديث الجيش لكنه يدخره إلى وقت مناسب يكون مستعداً فيه للعمل في ظروف دولية أفضل[٦].

---

(٦) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٥٤، والمذكرات =

ثانياً: على المستوى العقدي في جانبيه الحضاري والسياسي:

● **لا يمكن الجمع بين الإسلام والمسيحية في حضارة واحدة:**

يرى السلطان عبد الحميد: أن الإسلام والمسيحية، نظرتان مختلفتان. ولا يمكن الجمع بينهما في حضارة واحدة. ولذلك فالفكر الإسلامي بالضرورة يختلف عن الفكر المسيحي، والمجتمع المسلم يختلف عن المجتمع المسيحي. لذلك: فإن الفكر الأوربي إذا أُريد له الاستقرار في العالم الإسلامي، فهذا ـ في رأي السلطان عبد الحميد وتفكيره ـ خطأ. والمجتمع المسلم متميز، وأن تميز المجتمع المسلم هو الذي جعل الغرب يقيم الحروب باسم المسيحية والصليب، لإكراه الإسلام والهلال على الخضوع. ومن هذا القبيل أيضاً أشعلت أوربا الحروب الصليبية ضد الدولة العثمانية. والمجتمع الإسلامي منقسم إلى جماعات عرقية ولسانية. لذلك لا بد للمجتمع المسلم من رفع راية الإسلام، حتى تتحد عناصره العرقية المختلفة لكي يمكنه على الأقل الصمود أمام الغرب بتياراته العسكرية والفكرية. ولا ينبغي ـ في رأي السلطان عبد الحميد ـ أن تقتصر الجبهة الإسلامية على مسلمي الدولة العثمانية فقط وإنما لا بد لها من الشمول.

● **«الإسلام هو القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء»:**

رأى السلطان عبد الحميد أن المسلمين في جميع أنحاء

= صفحات ٢٠ و٨٨ و٣٠ و٩٧ و٤٦ و٤٠ و٤١ و٢٥ و٢٨ و٣٩ و١٢٥ و٣٨ و٣٦ و٣٥.

العالم، هم الامتداد الطبيعي لمسلمي الدولة العثمانية. والخطر الذي يتهدد الإسلام أن أمام أخطار كثيرة، داخلية وخارجية. ولا بد للإسلام من أن يقوى بمسلميه. لذلك يرى السلطان: أن «الإسلام هو القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء. ونحن أمة حيّة قوية، ولكن شرط أن نصدق في ديننا العظيم. ومن البديهي أننا في حاجة إلى الإيمان الصادق بعظمة الله». وما دام الإسلام متميزاً، فلا بد ـ كما يعبر السلطان عبد الحميد الثاني ـ من وجوب الثقة في وحدة العالم الإسلامي، وفي تقوية الروابط بين المسلمين في كل مكان. «وسيأتي اليوم الذي يتّحد فيه كل المؤمنين وينهضون نهضة رجل واحد ويقومون قومة وفيه يحطمون رقبة الكفار». ويقصد بالكفار العالم الغربي ذا النظرة المختلفة(٧).

● **عداء الماسونية:**

عندما اعتلى السلطان عبد الحميد العرش، كانت النخبة المثقفة المسيطرة على الإدارة والإعلام، أعضاء في المحافل الماسونية، وبالذات في محفل «سر» الذي أنشأه الأرمن في استانبول عام ١٨٦١. وهذه النخبة المسيطرة هم: الصدر الأعظم مدحت باشا، وأحمد وفيق باشا رئيس أول مجلس نيابي عثماني (مجلس المبعوثان) وخير الدين باشا التونسي، وقمة الإعلاميين في حينه: نامق كمال وضيا باشا وإبراهيم شناسي.

---

(٧) محمد حرب، المرجع السابق ص ٥٣ ونجيب فاضل ٢٧٦ والمذكرات صفحات ١٢ ـ ١٣ و ٨ و ٦٦ و ٦٧.

ومن الجدير بالذكر أن محفل سر الأرمني هذا كان تابعاً لمحفل فرنسا الماسوني الكبير.

وكلمة «سر» هذه تعني في اللغة الأرمنية «المحبة» وكان أول أستاذ أعظم لمحفل «سر» هو «محسن خان» سفير إيران في أستانبول.

والماسونيون، كانوا يعادون السلطان عبد الحميد، ويريدون انقلاباً في البلاد على آل عثمان، وكانوا يريدون نظاماً نيابياً يرى السلطان أن وقته لم يحن بعد. وكانوا يريدون تأسيس نظام أوربي حديث يحل محل آل عثمان.

ومحفل «ريزورتا المقدوني» ومحفل «فريتاس» ـ وكلاهما في سلانيك ـ قد لعبا دوراً بارزاً في الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد.

ورؤوس الاتحاد والترقي البارزة، أعضاء في المحافل الماسونية، وكلهم معادون للسلطان عبد الحميد: طلعت باشا ومدحت شكري بلدا وكاظم باشا ومنياس زاده رفيق وعمانويل قراصو وجمال باشا وإسماعيل جانبولاط. وكلهم أعضاء في محفل «فريتِاس» الماسوني.

* * *

يقول السلطان عبد الحميد: إن الماسونية الدولية كانت له بالمرصاد، منذ أن واجهها السلطان ونفى من البلاد رئيس وزرائه، أي الصدر الأعظم مدحت باشا.

ويرى السلطان أن «إنكلترا كانت دائبة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية» كما يرى: أن فكر الماسونية علمانـي الوجهة مخالف لتكوين الدولة الإسلامية والفكر الإسلامي ويضرب لذلك مثالين: «تعيين ولاة من الأقلية في ولايات الأغلبية فيها مسلمون» وهذه فكرة من ابتداع وزرائه المنضمين إلى الماسونية وكذلك أيضاً «قبول طلبة من الأروام ـ النصارى ـ في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش»(٨).

● **اليهود ـ فلسطين ـ القدس:**

عندما مات البارون اليهودي «هيرش» أوصى بمائتين وخمسين مليون فرنك من أجل إقامة وطن لليهود. وكان اليهود مضطهدين آنذاك في كل من أوربا الشرقية وروسيا. وكان «هيرش» قد تصوّر الأرجنتين مكاناً لهذا الوطن، لأنها كانت تقبل المهاجرين من كل أنحاء العالم. وتكوّنت جمعية لتنفيذ وصية هيرش. ولم تر الجمعية صلاحية الأرجنتين للغرض، وبخاصة بعد أن تدخل «تيودور هرتزل» في المسألة اليهودية فقد تمّ استبعاد الأرجنتين تماماً. وبذلك لم تعد المسألة إقامة وطن لليهود الشرقيين فقط، بل وطن يهودي لكل يهود العالم. وطُرحت فلسطين مقراً لذلك الوطن. وانطلاقاً من هذا الطرح، قام اليهود بمراجعة السلطان عبد الحميد ففلسطين جزء من الدولة العثمانية التي يحكمها.

---

(٨) إلهامي صوي صال، الماسونية والماسونيـون في العالم وفي تـركيا، ص ٢٠٩ و ٦٩ و ٤٤.

وطلبوا السماح لليهود بإقامة وطن لهم في القدس. وكان «روتشيلد» خلف هذا التحرك.

كان أساس الطلب: السماح بإقامة مستوطنات يهودية في أي مكان تراه الحكومة العثمانية، في فلسطين. ويمكن ـ إذا رغبت الحكومة العثمانية ـ قيام منازل إسلامية في نفس هذه المستوطنات، وسيتّبع اليهود الوافدون من البلاد الأجنبية نظم وقوانين الدولة العثمانية. وفي مقابل ذلك، سيقدم اليهود تسهيلاتهم في مسألة الديون العمومية العثمانية. وسيقدمون التعهدات والضمانات المعتبرة في ذلك، يقدمونها مكتوبة[٩].

وأوضح اليهود هذه المسألة بتفصيلاتها، للسلطان عبد الحميد. ورفض السلطان. وعلّل رفضه ببعض المحظورات هي: «حيث إن فلسطين هي في الأساس مقامات مباركة، فهي أرض للطموحات والأغراض السياسية. وفي كل عام تواجه الدولة مجموعة مشكلات نتيجة اختلافات بمناسبة مراسم الاحتفالات الكنسية. فلو أضفتُ إلى هاتين المسألتين، المسألةَ اليهودية، فالنتيجة معلومة. لهذا رفض السلطان الطلب. وعاد ممثل اليهود الصهيوني النمساوي إلى بلاده».

والمقصود هنا «هرتزل».

ويكتب العقيد «حسام الدين أرتورك»: «كان هرتزل وكبير الحاخامات يقدمان في لقائهما مع السلطان طلبهما وأشارا إلى أن

(٩) محمد حرب، المرجع السابق.

تفكير اليهود يتجه إلى إقامة إسرائيل المستقلة في القدس، فلم يتمالك السلطان عبد الحميد نفسه فطردهما من حضرته»[١٠].

وفي مقالة نُشرت في جريدة «بويوك ضوغو» التركية في ٢ مايو عام ١٩٤٧ العدد ٦١ يقول «محرم فوزي طوغاي» تحت عنوان «فلسطين والمسألة اليهودية» الآتي: «منع السلطان عبد الحميد تحقيق هدف إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وكلّف هذا المنع السلطان عبد الحميد غالياً وأودى بعرشه، وأدًى هذا فيما بعد إلى انهيار الدولة العثمانية كلها». رغم أنه كان يدرك ـ كما قال نظام الدين تبه دنلي أوغلو ـ في دراسته عن دور اليهود في هدم الدولة العثمانية: أنّ «اليهود يمتلكون قوى كثيرة تستطيع النجاح في العمل المنظم، فالمال كان عندهم والعلاقات التجارية الدولية كانت في أيديهم. كما كانوا يمتلكون الصحافة الأوروبية والمحافل الماسونية».

ومع ذلك فقد أصدر السلطان عبد الحميد إرادتين سنيتين الأولى في ٢٨ يونيو ١٨٩٠ والأخرى في ٧ يوليو ١٨٩٠. في الأولى: «رفض قبول اليهود في الممالك الشاهانية» والأخرى: «على مجلس الوزراء دراسة تفرعات المسألة واتخاذ قرار جدّي وحاسم في شأنها».

* * *

(١٠) مفتي أوغلو ص ٢٤٧ عن العقيد حسام الدين أرتورك، خفايا عهدين، استانبول ١٩٥٧.

تفكير السلطان عبد الحميد في هذا، يمكن إدراجه على النحو التالي:

١ ـ «مستحيل أن أبيع فلسطين ولو شبراً منها. أرض فلسطين ليست أرضي. إنها أرض الأمة. فليحتفظ اليهود بملايينهم. إنهم يستطيعون الاستيلاء على فلسطين وبدون مقابل في حالة واحدة فقط ألا وهي انهيار الدولة العثمانية».

٢ ـ «إنّ الأرض التي يتشوق اليهود لإقامة دولة إسرائيل المستقلة عليها، تدخل في حدود سنجق القدس العثماني. وفي هذا المكان مزارع سلطانية تابعة للخزانة الخاصة. طلب اليهود أولاً شراء هذه المزارع. ثم اقترحوا أن يستأجروها لمدة تسعة وتسعين عاماً!».

٣ ـ «الصهيونيون يريدون إنشاء حكومة لهم وانتخاب ممثلين سياسيين لهم. وإني أفهم جيداً معنى تصوراتهم الطامعة. وإنهم لسذج إذا تصوروا أني سأقبل محاولاتهم. . إن هرتزل يريد أرضاً لإخوانه في دينه. لكن الذكاء ليس كافياً لحل كل شيء».

٤ ـ «لماذا القدس؟! إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك فهي من مدننا المقدسة وتقع في أرض إسلامية. لا بد أن تظل القدس لنا».

٥ ـ «نكون قد وقّعنا قراراً بالموت على إخواننا في الدين» ـ يقصد الفلسطينيين ـ «إذا لم تتوقف عملية توطين اليهود في فلسطين ومهاجرتهم إليها».

٦ ـ إذا سُمح لليهود بالتوطن في فلسطين «فإنهم سيستطيعون في وقت قليل جداً أن يجمعوا في أيديهم وسائل القوة في المكان الذي يستقرون فيه»[١١].

* * *

وتفكير السلطان عبد الحميد بهذا الشكل جعل «هرتزل» يفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، طالما أن السلطان عبد الحميد قائم في حكم الدولة العثمانية[١٢].

● في التصوف:

أخذ المتصوفة وأتباعهم في البلاد العثمانية، ينظرون بالشك والريبة إلى السلاطين العثمانيين الذين أخذوا الاتجاه التجديدي الغربي، وبخاصة السلطان محمود الثاني الذي أقام جيشاً جديداً على الطراز الأوربي وقضى على الفرقة الإنكشارية وعلى تكايا الطريقة البكتاشية، رغم أن هذه الطريقة كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف بين مجموع الشعب العثماني.

ثم استطاع دعاة التجديد في الفكر وفي مؤسسات الحكومة ـ وهم جمعية العثمانيين الجدد ـ بدعاياتهم ونفوذهم ورجالهم في الأوساط الحكومية، السيطرة على مشاعر واتجاه طلاب المدارس والمعاهد الدينية، حتى إن مدحت باشا كان يثيرهم على القيام بمظاهرات ضد سلطان الدولة. وفي السبعينات من القرن

---

(١١) مفتي أوغلو ص ٢٤٩.

(١٢) المذكرات ص ١١ و١٢.

الميلادي الماضي (التاسع عشر م) كانت المدارس الدينية تؤيد الاتجاهات التجديدية الغربية. لكن المتصوفة كانوا عن ذلك بعيدين، بل كانوا ينظرون إليها بحذر. وكان طلاب المدارس في صراع دائم غير ظاهر مع المتصوفة.

لذلك كان المتصوفة يتفقون ـ دون سابق اتفاق ـ مع السلطان عبد الحميد الذي كان يحذر العثمانيين الجدد حذراً شديداً فهم أعداؤه. وكان بالضرورة يحذر ممن والاهم. وكانت القادرية هي أكثر الطرق شيوعاً في ذلك العهد. كما كان للرفاعية أيضاً انتشارها. واشتهرت الطريقتان الشاذلية والنقشبندية بحماسهما للحكام السنيين. كما كانت الطريقة المدنية عاملاً سياسياً هاماً في ليبيا وشمال إفريقيا.

وكان السلطان عبد الحميد الثاني، يضع في حساباتـه أنَّ هذه الطرق مرتكز سياسي هام، من حيث الانتشار والدعاية. وكان يبدي احترامه للزهاد من هذه الطرق الصوفية(١٣).

● الـرق:

يقول السلطان عبد الحميد في معرض تعرضه للمناقشات الدائرة حول الرق، والتي أثـارها هؤلاء المتـأثرون بـالفكر الأوربي: «إن الرق له ضمانات من القـرآن ومن الشريعـة الإسلامية. الشرع يأمر بمعاملة الرق معاملة شفوقة. والشرع

(١٣) مذكرات علي سعيد، ذكرياتي في القصر؛ حياة السلطان عبد الحميد، استانبول ١٣٣٨ ص٣٣ ونجيب فاضل ٣٤٠ ومذكرات الأميرة عائشة ص ٢٥.

الإسلامي يحمي الرقيق من المعاملات السيئة كافة. ويبقى القول: بأن الجارية عندنا مسعودة في حياتها أكثر من الخادمة في أوربا. الجارية عندنا تصبح في كثير من الأحيان زوجة للباشا وزوجة للوزير، وزوجة للقائد. الرقيق من النساء عندنا يصبحن زوجات لعلية القوم تماماً مثلما يصبح الرقيق من الرجال عندنا سادة وقواداً ويصلون إلى قمة المجتمع»(١٤).

ثالثاً: على المستوى العثماني:

● تغلغل النفوذ الأجنبي في الدولة:

بلغ ذروة تغلغل النفوذ الأجنبي في الدولة العثمانية في مطلع حكم السلطان عبد الحميد، وبخاصة امتيازات الدول الغربية في حماية نصارى الدولة؛ واتخاذ ذلك ذريعة للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة. وكان السلطان سليم الثالث جد السلطان عبد الحميد، يتصور: «أن أيدي الأجانب تتجول متنزهة فوق كبده». كناية عن ضيقه الذي حلّ به من جراء نفوذ الأجانب في شؤون الدولة. لكن عبد الحميد رأى المسألة أكبر من ذلك ويعبر عن فكره في هذا بقوله: «أحس أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب، ليست فوق كبدي، وإنما في داخله». وذلك لأن هذا النفوذ تعدى السياسة الخارجية إلى الداخل، فقد أخذ هؤلاء الأجانب منذ فترة طويلة، قبل عبد الحميد وأثناء حكمه، «يشترون صدوري العظام ووزرائي ويستخدمونهم ضد بلادي». على حد قول السلطان نفسه.

---

(١٤) ضيا قارال، المرجع السابق ص ٢٥٢.

وهذا النفوذ الأجنبي في مؤسسات الدولة العثمانية، قد بلغ ذروته عندما تكاتفت الدول الغربية بمحافل كلٍّ منها الماسونية، داخل البلاد وهي المحافل التي ضمت بنجاح بالغ في صفوفها كوادر الموظفين الكبار في الدولة، والضباط الشبان في الجيش، للتكاتف والتحرك لعزل السلطان من الحكم(١٥).

● **تغلغل الفكر القومي في الأجهزة الرسمية:**

صاحب ظهور الفكر القومي، مع الثورة الفرنسية، وانتشاره في العالم، تأسيس الدول القومية، وهذه تتنافى مع تكوين الدولة العثمانية، التي قامت إسلامية تجمع تحت رايتها عناصر قومية مختلفة.

وكانت وسيلة تغلغل هذا الفكر الوافد، بين صفوف الشباب العثماني المثقف، عن طريق البعثات إلى أوربا، وعن طريق الترجمة والصحافة وكتب الأدب. وقد أخذ هؤلاء الشباب مكانتهم فيما بعد في أماكن النفوذ في أجهزة الدولة.

وأصبح الفكر القومي بثبوته في أذهان المسؤولين وفكرهم، قضية تقض مضاجع السلطان وتأخذ من فكره الكثير. وقد عبّر عنها صراحة في صراعه مع مدحت باشا فقال: «مدحت باشا عندما كان والياً عثمانياً في البلقان. وكان يشجع اللغة البلغارية في المدارس البلغارية، ويلتزم بهذا».

وقد ذكر رضا نور في مذكراتـه أن مدحت باشا أثناء ولايته

---

(١٥) المذكرات ص ٧٥.

على سوريا كان يعمل على تشجيع إقامة حكم «أموي» في الشام.

ويشكو السلطان عبد الحميد من مدى انتشار الفكر القومي في الدولة، حتى إن مدحت باشا لم ير حرجاً في وضع الصليب على العلم العثماني ذي الهلال، في الأماكن النصرانية التي تحكمها الدولة.

وثبوت الفكر القومي في الدولة ـ رغم أنف السلطان ـ دفع الثائرين ضده وهم أصحاب هذا الفكر، إلى تبني قضايا القومية التي تحارب وطنهم الدولة العثمانية. مثال ذلك عندما قام الأرمن ـ بمساعدة الدول الأجنبية ـ يطلبون اقتطاع أرض من الدولة العثمانية ليقيموا عليها دولة قومية أرمنية.

يعبر السلطان عبد الحميد عن ذلك بقوله: «لم أكن أدهش لهيام الأرمن بحب الاستقلال خاصة بعد معرفة إثارة الدول الكبرى لهم بلا توقف. لكني أدهش لأن بعض أفراد «تركيا الفتاة» الذين هربوا إلى أوربا وأصدروا هناك صُحفاً ضدي، كانوا يتعاونون مع أعضاء المنظمات والجمعيات الأرمنية. كانوا يقولون: «إنهم يريدون إنقاذ الدولة العثمانية من التمزق ثم يتعاونون مع الذين يعملون على تفتيت الدولة ويتعاهدون معهم».

● **الفكر الدستوري وماذا يمكن أن يؤدي إليه:**

كان السلطان عبد الحميد ضد الديمقراطية والحكم الدستوري، الذي يعرف في المصطلح العثماني باسم «المشروطية» أي الاشتراط على الحاكم بتحديد سلطاته،

على اعتبار أن هذا فكر وافد. وبالتالي كان ضد المنادين بالحكم الدستوري ورائدهم مدحت باشا. فالسلطان ينتقد وزيره هذا بقوله: «لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوربا، لكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى. أقراص السلفات لا تصلح لكل مرض ولكل بنية. وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل بنية قومية. كنت أظن أنها مفيدة، أمّا الآن: فإني مقتنع بضررها».

كان للسلطان حججه في هذا، منها سوء تصرف المنادين بالدستور في أول استجابة للسلطان لأفكارهم. من ذلك: أن طلبت الحكومة من السلطان في وقت إعـلان السلطان للدستور، أن يوقع على بعض قرارات منها تعيين ولاة نصارى في ولايات، أغلب سكانها من المسلمين، وعلى قرار، بقبول طلبة من النصارى في الكلية الحربية العثمانية التي هي عماد الجيش العثماني، فرفض السلطان التوقيع. فما كان من مدحت باشا ـ وهو الوزير ـ إلا أن قال للسلطان: «إن مقصدنا من إعلان الدستور أن ننهي استبداد القصر، ويجب على جلالتكم أن تعرف واجباتكم».

ومن الأسباب التي يسوقها السلطان عبد الحميد في رفضه للفكر الدستوري قوله: «إن الدولة العثمانية دولة تجمع شعوباً شتى، والمشروطية في دولة كهذه موت للعنصر الأصلي في البلاد، وهل في البرلمان الإنكليزي نائب هندي واحد؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد؟».

ولم يغير السلطان رأيه وموقفه تجاه الحكم الدستوري، في دولته حتى بعد أن عزل عن العرش، وأخذ الناس بعده يمارسون الحكم الدستوري، فهو يتساءل تساؤلات كثيرة عن فائدة الحكم الدستوري، فيقول: «ماذا حدث عندما أُعلنت المشروطية؟ هل قلّت ديون الدولة؟! هل كثرت الطرق والموانىء والمدارس؟ هل أصبحت القوانين الآن أكثر تعقلاً ومنطقاً؟! وهل ساد الأمن الشخصي؟ هل الأهالي الآن أكثر رفاهية؟ هل تناقصت الوفيات وزادت المواليد؟ هل أصبح الرأي العام العالمي الآن بجانبنا أكثر من ذي قبل؟! الدواء الناجع يصبح سمّاً زعافاً إذا كان في يد غير الأطباء. أو في أيدي من لا يعرفون أصول استعماله، وإني لجد آسف فالأحداث قد أظهرت صدق كلامي».

لكن السلطان عبد الحميد يؤكد: أن موقفه هذا ليس دائماً تجاه الحكم الدستوري، فالظروف التي كان يحكم فيها، إذا اختلفت، فستختلف وجهة نظره في الحكم الدستوري. وفي هذا يقول: «ينبغي ألا يُظَن أن فكري واقتناعي دائماً ضد الحكم الذي يعتمد على أصول المشروطية»(١٦).

● **الحركة التنصيرية في الدولة الإسلامية:**

كانت الحركة التنصيرية العالمية تستهدف العمل في الدولة العثمانية. وكانت الحكومة العثمانية تتعقب نشاط التنصيريين، وتتخذ الإجراءات اللازمة لمنع نشاطهم. وازدادت كثافة النشاط

---

(١٦) المذكرات ٢٧ و ٥٦ و ٤٤ و ٥٨ و ٩٩.

التنصيري في الدولة في عهد التنظيمات، حيث منحت الدولة للنصارى حقوقاً جديدة، وبالتالـي فقد قامت بعثات تنصيرية في الدولـة بالعمل الدائب، وبخاصة في المناطق التي كانت الدول الغربية تخطط للاستيلاء عليها مستقبلاً. مثال ذلك: أن الجزويت الفرنسيين ترجموا الإنجيل في ألبانيا وهي ـ كانت ـ جزءاً من الدولة العثمانية، ترجموا الإنجيل فيها إلى كل لهجات اللغة الألبانية ووزعوها في كل مكان، حتى وصلت إلى القرى. ووزعت هذه البعثات، النقود، أيضاً على الأهالي. وافتتحت مدارس ومستشفيات لخدمة أغراضها. وفي ليبيا ـ العثمانية ـ ارتدى المنصّرون الإيطاليون زي مشايخ السنوسية، واتخذوا أسماء ليبية مسلمة، لينشطوا في طرابلس الغرب وبني غازي. كما أرسل الإيطاليون بعثات تنصيرية إلى منطقة سواحل الأناضول الجنوبية.

وقد قبضت السلطات العثمانية في طرابلس الغرب، على شخص يدعى الشيخ «هاشم العرجاوي» وبعد التحقيق معه اتضح أنه مُنَصِّر إيطالي اسمه الحقيقي «سنيور بونيتو سلفادورا» ومعه دفتر سجّل فيه كل ما مرّ به من طرق وواحات وتلال وأماكن وجود الماء مع «كروكي» أي: رسم تخطيطي لكل مشاهداته. وعندما أُخطر السلطان عبد الحميد بالحادث أمر فوراً بحظر كافة أوجه نشاط البعثات التنصيرية وبمنع النشاط التنصيري[١٧].

---

(١٧) المذكرات ٢٧ و ٥٦ و ٤٤ و ٥٨ و ٩٩.

● **المـرأة:**

ماتت أم السلطان عبد الحميد وهو صغير فربّته زوجة أبيه وعاملته معاملة الأم شفقة ورحمة وعناية.

وعندما تولى السلطان العرش، أعلن زوجة أبيه هذه «والدة سلطان» بمعنى الملكة في المفهوم الحديث. وكانت الملكة في القصر العثماني، هي أم السلطان وليست زوجته كما في الدول الأخرى. ولما كانت والدة السلطان متوفـاة اعتبـر السلطان عبد الحميد أن زوجة أبيه هي أمه، ولذلك أعطاها ـ على غير المألوف ـ هذا القدر الكبير من الاعتبار. فقد كان يحبها حب الولد لأمه.

ومع كل ذلك، ففي اليوم التالي لتنصيب السلطان عبد الحميد على عرش الدولة العثمانية، قابل زوجة أبيه وهي التي أحبها حباً بالغاً، وقبّل يدها، وقال لها:

«بحنانـك لـم أشعر بفقد أمي. وأنت في نظري أمي لا تفترقين عنها. ولقد جعلتك السلطانة الوالدة.. يعني أن الكلمة في هذا القصر لك. لكني أرجوك ـ وأنا مُصِرٌّ على هذا الرجاء ـ ألّا تتدخلي بأي شكل من الأشكال في أي عمل من أعمال الدولة، كَبُرَ أم صَغُر».

وكان السلطان عبد الحميد يرى: أن دور المرأة محدود بالبيت والتربية، لذلك كان يمنع تدخل نساء القصر في السياسة، من قريب ومن بعيد، وكذلك لم يكن في عهده للمرأة، رأي في شؤون الدولة مهما كانت هذه الشؤون.

واهتم السلطان عبد الحميد بتعليم المرأة، وأنشأ داراً للمعلمات، لتخريج معلمات للبنات. كما كان السلطان ضد الاختلاط بين الرجل والمرأة ـ يعني في أماكن الدولة والمجتمع ـ كمسألة اجتماعية. كما كان ضد سفور المرأة.

يذكر السلطان في معرض الدفاع عن نفسه، أمام اتهام جمعية «الاتحاد والترقي» له بأنه عدو العقل والعلم بأن: «لو كنت عدواً للعقل والعلم فهل كنت أفتح الجامعة؟ لو كنت هكذا عدواً للعلم، فهل كنت أنشىء لفتياتنا اللواتي لا يختلطن بالرجال، داراً للمعلمات؟!»[18].

* * *

وعن موقف السلطان عبد الحميد، وطريقة تفكيره في مسألة سفور المرأة، وتسرب أخلاق الغرب، إلى بعض النساء العثمانيات، نقول: إنه ظهر في صحف استانبول في ٣ أكتوبر ١٨٨٣ م بيان حكومي موجّه إلى الشعب يعكس وجهة نظر السلطان شخصياً في رداء المرأة.

يقول هذا البيان: «إن بعض النساء العثمانيات اللائي يخرجن إلى الشوارع في الأوقات الأخيرة، يرتدين ملابس مخالفة للشرع. وإن السلطان قد أبلغ الحكومة بضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على هذه الظاهرة. كما أبلغ السلطان الحكومة أيضاً بضرورة عودة النساء إلى ارتداء الحجاب الشرعي الكامل

---

(١٨) المذكرات ص ٧٦ ومفتي أوغلو ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

بالنقاب إذا خرجن إلى الشوارع». وبناء على هذا فقد اجتمع مجلس الوزراء واتخذ القرارات التالية:

- «تعطى مهلة شهر واحد يُمنع بعده سير النساء في الشوارع إلاّ إذا ارتدين الحجاب الإسلامي القديم. وينبغي أن يكون هذا الحجاب خالياً من كل زينة ومن كل تطريز.
- يُلغى ارتداء النساء النقاب المصنوع من القماش الخفيف أو الشفّاف. وبالتالي ضرورة العودة إلى النقاب الشرعي الذي لا يبين خطوط الوجه.
- على الشرطة - بعد مضي شهر على نشر هذا البيان - ضمان تطبيق ما جاء فيه من قرارات في شكل حاسم. وعلى قوات الضبطية التعاون مع الشرطة في هذا...
- صدّق السلطان على هذا البيان بقراراته الحكومية.
- ينشر هذا البيان في الصحف ويعلق في الشوارع».

وفي اليوم التالي لنشر هذا البيان، أي في ٤ أكتوبر، قالت جريدة «وَقِتْ» الصادرة في استانبول: «إن المجتمع العثماني عموماً يصوِّب هذا القرار ويراه نافعاً»(١٩).

* * *

وكان السلطان عبد الحميد يرى «أن المرأة لا تتساوى مع الرجل من حيث القوامة» ويقول: «ما دام القرآن يقول بهذا، فالمسألة منتهية ولا داعي للتحدث عن مساواة المرأة بالرجل» ويرى: «إن فكرة هذه المساواة إنما جاءت من الغرب».

---

(١٩) موسوعة أتاتورك جـ ١ ص ٥٩ - ٦٠.

كما يدافع السلطان عبد الحميد عن تعدد الزوجات، في وقت كان الإعلام العثماني يثير هذه القضية معترضاً عليها. ويقول السلطان: «لماذا يعترض بعض المثقفين على هذا الأمر ـ أي تعدد الزوجات في الدولة العثمانية ـ ولماذا لا يعترضون على وجوده في أماكن أخرى غير الدولة العثمانية، في بعض أماكن في أوربا وأمريكا؟». ويؤكد السلطان: «إن مبدأ تعدد الزوجات مباح في الإسلام. فماذا يعني الاعتراض عليه؟!»[٢٠].

* * *

(٢٠) قارال، المرجع السابق ص ٢٥٢.

الباب الثاني

سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الداخلية والخارجية

الفَصل الأوَّل

سِيَاسَةُ السُّلْطان عَبْدُالحَمِيدِ الثّاني الدَّاخِلِيَّة

(المشكلات الداخلية وطريقة حلها):

١ ـ ضعف النظام التربوي وخموله:

كان نظام التعليم والتربية قبل عهد السلطان عبد الحميد قد أصابه الخمول والتوقف عن مسايرة إنجازات العصر. هكذا وجده السلطان فأعطى عناية لإصلاح التعليم، وتطوير ما يحتاج إلى تطوير، وإحداث الجديد اللازم، وإبقاء القديم الصالح منه على ما هو.

طوّر السلطان عبد الحميد المدرسة المُلكية الشاهانية (= مدرسة العلوم السياسية)، فارتفع طلابها إلى اثني عشر ضعفاً. ولم يكن هناك اهتمام بالعلوم الاقتصادية والتجارية، فأسس السلطان المدرسة التجارية الحميدية (= أكاديمية العلوم الاقتصادية والتجارية) عام ١٨٨٣ م، بهدف إعداد عثمانيين متخصصين في الاقتصاد والتجارة. وأنشأ مدرسة الفنون النفيسة العالية (= أكاديمية الفنون). كما طوّر المدرسة الحربية

(= الكلية الحربية) بشكل يجعلها تضم في داخلها: مدرسة القوات البرية، ومدرسة القوات البحرية، ومدرسة المهندسين، ومدرسة الطب، وكلها مدارس عالية. وبذلك ارتفع عدد مؤسسات التعليم العالية إلى ١٨ مؤسسة. كما افتتح أيضاً مدارس للمالية، والجمارك، والشرطة. وزاد عدد مدارس المعلمين، والمدارس الابتدائية، والمتوسطة، والثانوية، وما في مستواها. وأمر بتطوير المناهج الدراسية: بحيث تساير ركب التطور العالمي. كما سمح بدخول الكتب والمجلات والصحف، وكل وسائل النشر، المتعلقة بالعلم والتقنية والفنون[١].

٢ ـ تمرد الأرمن:

وقع الأرمن ـ وهم قطاع من الشعب العثماني ـ تحت تأثير هيئات التنصير الكاثوليكية الأوربية، وتحت تأثير هيئات التنصير الأمريكية البروتستانتية. ومن هذا المنطلق، تحركت ميولهم العرقية القومية والدينية. وقد طلب الأرمن أن يمثلهم مندوب أرمني في مؤتمر برلين، وطلبوا الاعتراف لهم بحقوق مثل المعترف بها للبنانيين النصارى، وبتعيين وال عام نصراني في الولايات الشرقية من الدولة، وبهذه الصورة يتمّ ضمان حقوقهم وأمنهم ضد القوقازيين، وضد الأكراد، الذين يعيشون معهم في منطقة واحدة كما يدّعون.

وتدخلت الدول الغربية في المسألة الأرمنية عام ١٨٨٠ م، فاعتبر السلطان عبد الحميد هذا تدخلاً في الشؤون الداخلية

---

(١) صايار ص ٢٣.

لبلاده. واكتفى بإرسال قائمقام نصراني تابع له إلى المنطقة الأرمنية، وبذلك رفض الطلب الدولي بتعيين والٍ نصراني.

وبواسطة المنظمات السرية القومية والإرهابية، التي أسسها الأرمن قام هؤلاء بالتمرد والهجوم على المدن، مثل «أرضروم» و «وان».

وأسس الأرمن عام ١٨٨١ منظمة في «أرضروم» أطلقوا عليها اسم «جمعية المحافظة على أرض الآباء».

وفي عام ١٨٨٢ م، تدخلت الدول الأوربية لمناقشة المشكلة الأرمنية؛ إلّا أن امتناع بسمارك عن الانضمام إليها أفشل هذه المحاولة.

وفي نفس العام (١٨٨٢ م)، أسس الأرمن حزباً ثورياً في جنيف. وكان اسم هذا الحزب خانجاك (يعني: الصليب)، وكان هدف هذا الحزب؛ إقامة مجتمع أرمني اشتراكي في الأراضي التي سيتم الاستيلاء الأرمني عليها عن طريق الثورة.

وفي عام ١٨٨٥ م، أسس الأرمن منظمة سياسية أطلقوا عليها اسم «الماناكان» للعمل خارج حدود الدولة العثمانية، وكان شعارها «الحرية أو الموت» وتمكنوا من إقامة منظمة في لندن أطلقوا عليها اسم «جمعية الأرمن محبي أوربا»، وكان هدف هذه الجمعية؛ الحصول على دولة أرمنية تقتطع من أراضي الدولة العثمانية بطريق الثورة.

وفي عام ١٨٩٣ م، طغى الأرمن كثيراً فتمـردوا، وكتبوا

الشعارات على الجدران فيها إساءة إلى المسلمين، في وسط وغرب الأناضول. وقام الأرمن في هاتين المنطقتين بتحريض المسلمين الأتراك على الثورة ضد السلطان عبد الحميد. ولما رفض المسلمون ذلك، قام الأرمن بمذابح ضدهم.

* * *

اضطر السلطان عبد الحميد، أن يصدر أمراً بإيقاف إرهاب الأرمن، ومحاكمة الإرهابيين. وعهد في تنفيذ هذا الأمر إلى قوات مكونة من فرسان الفرقة الحميدية ومن الأكراد. وقمعت هذه القوات فتنة الأرمن، وساد الأمن بعدها.

واحتجت أوربا على حق الدولة العثمانية في هذا الصدد، وقام «جلادستون» رئيس الوزراء الإنكليزي المعروف بعدائه للإسلام، يلقي خطبة في «ليفربول» في بريطانيا نقد فيها سياسة السلطان عبد الحميد تجاه الأرمن، وقال: «إن الدولة العثمانية ينبغي أن تُمْحى من الوجود». ووصف في خطبته هذه، السلطان عبد الحميد بأنه «القاتل الكبير». وشاع لقب «السلطان الأحمر» الذي وصف به الأوربيون السلطان عبد الحميد. ووقفت كل دول أوربا ـ باستثناء ألمانيا ـ في صف الأرمن[٢].

٣ ـ ضعف الاقتصاد العثماني:

كان تمرد نصارى كريت في سبيل انفصال الجزيرة الكريتية عن الدولة العثمانية، وانضمام اليونانيين للكريتيين، تطلب إرسال

---

(٢) صايار ٢٣٤.

قوات عثمانية ـ مع كل تمرد ـ إلى الجزيرة، واستنزف هذا الدولة العثمانية في المال والجنود.

وكذلك كانت الحرب العثمانية اليونانية عام ١٨٩٧، ومن قبل كانت الحرب العثمانية الروسية.

ولم يكن الوضع الداخلي عند تولي السلطان الحكم سيئاً للغاية. كان العجز في ميزانية ١٨٧٥ م مقداره خمسة ملايين ليرة عثمانية ونيّف. وقامت الدولة في مواجهة هذا بعمل ترتيبات، وتشكيل مؤسسات، ولجان، لمواجهة هذا الوضع، من ذلك إصدار تحويلات وأسهم مالية باسم «تحويلات رمضان» وتأسيس إدارة «الرسوم السنيّة»، وإصلاح مالي باسم «قرار محرم» لكن أشهر وسائل الإصلاح المالي كانت «إدارة الديون العمومية»[٣].

و «إدارة الديون العمومية» اسم مؤسسة أنشئت لأداء الديون الخارجية التي اقترضتها الدولة في العهد السابق مباشرة على السلطان عبد الحميد ووصلت ديون الدولة في آخر أيام السلطان عبد العزيز إلى ٥,٢٩٧,٦٧٦,٥٠٠ فرنكاً ذهبياً.

ومع «قرار محرم» تشكلت هذه الإدارة «إدارة الديون العمومية» وضمّت ممثلين للدول الدائنة. وكانت مهمة هذه الإدارة جمع دخول ضرائب مختلفة لتأخذ ديونها منها[٤].

---

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٥٢.

(٤) هناك عرض سهل الفهم لهذا الموضوع في دائرة المعارف التركية الميسرة، استانبول ١٩٦٨ ص ١/٣٣٠.

وقبل هذا، كان قرار السلطان بمنع مظاهر الإسراف في الدولة عموماً، وفي القصر الحاكم خصوصاً. وبذل السلطان من ماليته الخاصة لسد بعض أبواب مالية حتى لا تكون هذه عبئاً على الميزانية العامة للدولة، كما سبق ذكره.

٤ - تفشي الفكر القومي في كبار المسؤولين والأدباء والإعلاميين:

أثّرت الثورة الفرنسية في أوربا، عن طريق البعثات والترجمة، في الدولة العثمانية وهي دولة إسلامية معارضة للفكرة القومية، وقامت في سبيل نشرها في البلاد منظمات سرية وخلايا في المدارس العالية؛ من مدنية وعسكرية، وصدرت من أجل تعميمها - أي الفكرة القومية - صحف معارضة للحكومة العثمانية، في الخارج. ونشأ من هذا النشاط جمعية «العثمانيين الجدد» ثم جمعية «الاتحاد والترقي».

مع الجمعية المعارضة الأولى «العثمانيين الجدد» رضخ السلطان عبد الحميد واستجاب لمطالبهم، وأعلن الدستور وافتتح المجلس النيابي. ثم وجد: أنَّ من السياسة أن يقوض جماعتهم، فنفى رئيسهم، واستمال البعض بالمناصب، وعفا عن البعض، وبذلك شتت شملهم. لكنه كان مضطراً اضطراراً للتدخل في كل صغيرة وكبيرة في أمور البلاد لأنه لم يجد الرجال المخلصين الذين يعتمد عليهم لتنفيذ سياسته فنشطت المعارضة وتكونت جمعية «الاتحاد والترقي» ولما استشرت هذه الجمعية

وتغلغلت في مؤسسات الدولة كافة قام السلطان عبد الحميد بتتبع الفكر القومي، ومطاردة أصحابه، ورصد حركاتهم والرقابة على الصحف، حتى لا يؤدي هذا الفكر ـ كما يرى السلطان ـ إلى هدم الدولة. لذلك نجده يقف أمام الحركات القومية بحزم: الحركة القومية الأرمنية والحركة القومية العربية والحركة القومية الكردية، رغم أنه كان يتخذ من الأرمن الوزراء والمستشارين له والأطباء والمدرسين والسفراء، ورغم أنه كان يشجع التعامل باللغة العربية ويتخذ من العرب أعواناً له ضد معارضيه. ومن أبرز شخصيات العهد الحميدي: أبو الهدى الصيادي ونجيب ملحمة وعابد باشا. وكان حرسه الخاص من الأكراد وكان السلطان عبد الحميد يثق في الأكراد وإخلاصهم وأمانتهم وصلابتهم. ومن هذا القبيل لم يكن السلطان عبد الحميد يريد لحركة «أحمد عرابي باشا» في مصر أن تأخذ الوجهة القومية العنصرية.

* * *

الغريب هنا أن الذين قادوا المعارضة وأسقطوا الحكم الحميدي، كانوا يقدمون أسباباً لذلك؛ أهمها كبته للشعور القومي واستبداده، فماذا فعلوا بعده؟.

يقول المستشرق كارل بروكلمان:

«إن استيلاء رجال تركيا الفتاة على الحكم ـ وكانوا يريدون جمع شتات المواطنين في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كلها حول مثل أعلى دستوري جديد من طريق القضاء على التمييز

العنصري، ومن ثم حاربوا الثقافة العربية بعنف ـ قوّى رغبات العرب في التحرر وتقرير المصير. وكان طبيعياً أن يضطر أحرار العرب إلى تشكيل جمعيات سرية على غرار ما فعل رجال تركيا الفتاة أنفسهم»(٥).

* * *

(٥) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربيّة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ط ٨ بيروت ١٩٧٩، ص ٧٥٧.

الفصل الثاني

سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الخارجية

(السلطان عبد الحميد والأطماع البريطانية)

١ ـ احتلال بريطانيا لقبرص:

كانت السياسة البريطانية تسير سيراً منتظماً في سبيل تأمين الطريق إلى الهند، التي كانت بريطانيا قد احتلتها. وكانت أهم نقطة استراتيجية في هذا الطريق، هي جزيرة قبرص، التي وصفها «دزرائيلي» رئيس وزراء بريطانيا بأنها «مفتاح آسيا الشرقية»، وكانت بريطانيا تريد أن: تحتل جزيرة قبرص بأي ثمن. لذلك وجدت بريطانيا أن أنسب الأوقات لتلك الرغبة هي قبيل توقيع معاهدة برلين عام ١٨٧٨ م، يعني في أحرج وأقسى ظرف دولي تمر به الدولة العثمانية، في عهدها الأخير بل في تاريخ سياستها الخارجية كلّها حتى تلك الفترة.

وقد اختارت بريطانيا توقيتها بإحكام. إذ كانت الدولة العثمانية في أشد الحاجة إلى دولة كبرى تؤيدها في مؤتمر برلين. وكانت بريطانيا هي أنسب ما تحتاجه الدولة، ولم يكن تأييد الإنكليز بلا مقابل، فقد كانت بريطانيا تريد قبرص، وإلاّ فإنها لن تقف في

صف الدولة، بل وستدفع بالدولة إلى موقف أسوأ، وكانت تهدد بذلك صراحة.

وقد قال «سالسبوري» وزير خارجية بريطانيا في برقيته إلى سفيره في استانبول «لايارد»: «اضغط بكل ما أوتيتَ من قوة واعمل على أن يقبل العثمانيون طلبنا الوارد في هذه البرقية، ففيه المحافظة على آسيا العثمانية التي يجمع السلطان الجند لحمايتها. وإذا كان السلطان يريد الحفاظ على حسن نية إنكلترا تجاه بلاده، فلا بد أن يكون مضطراً فوراً لقبول اقتراحنا، وبهذا اجعله يفعل. ولو فاتت منّا هذه الفرصة، فلن تسنح لنا في أي وقت من الأوقات. إننا على وشك عقد اتفاق مفيد جداً للدولة العثمانية، التي تحرص كل الحرص على إبعاد الجيش الروسي عن عاصمتها استانبول، وعدم إقامة إمارة بلغاريا المستقلة، التي تشكّلت حدودها في شمال جبال البلقان. وإذا لم يقبل السلطان باقتراحنا، فستكون النتيجة سقوط استانبول في يد روسيا، وانهيار الدولة العثمانية تماماً. ولن ينقذها من هذه الكارثة التي تتمناها لها روسيا وكل الدول الأخرى، إلاّ صداقة إنكلترا».

* * *

وبمجرد تسلم «لايارد» هذه البرقية، مثُل أمام السلطان عبد الحميد وأبلغه: «إن موقف بلاده في برلين عند عقد المعاهدة، يتمثل في عدم اعترافها بمعاهدة «أياسطفانوس» وكأنها لم تكن، وفي مقابل ذلك يريد البريطانيون قبرص». وقدّم للسلطان نص معاهدة بهذا الشأن. ورفض السلطان هذا. لكن

إصرار البريطانيين على موقفهم جعل السلطان يصرّح بأنه سيصدق على معاهدة بهذا الشأن بشرط عدم الإخلال بحقوق السيادة العثمانية على الجزيرة، وأنه لا بد من حصول الدولة على سند مكتوب من «لايارد» باسم دولة بريطانيا في صدد موقف بلاده من تأييد مطالب الدولة في معاهدة برلين، وذلك قبل التصديق. وقد فعل سفير بريطانيا هذا. وتحت الضغط البريطاني الواضح والصريح، عقدت الدولة العثمانية وبريطانيا معاهدة في ٤ يونيو عام ١٨٧٨ م. وبالتالي أصبح الموقف في قبرص كالآتي: جزيرة قبرص تابعة من الناحية الشرعية للدولة العثمانية، ومن الناحية الفعلية أعطيت الجزيرة لبريطانيا استئجاراً[١].

إن أهم بنود هذه المعاهدة كانت المادة الأولى التي تقول:

«إذا استولت روسيا على ـ إحدى المناطق العثمانية التالية ـ: باطوم أو أردهان أو قارص وأرادت بعد ذلك أن تستولي على بعض الأراضي العثمانية الكائنة في آسيا، فإن إنكلترا تتعهد: بأن تتحد مع الدولة العثمانية لحماية تلك الأراضي بقوة السلاح»[٢].

ولقد كانت بريطانيا تخشى خطراً روسياً قادماً عن طريق الأناضول الشرقي عبر القوقاز، يهدد طريقها إلى الهند، بأن تنزل روسيا إلى الإسكندرون ومياه الخليج العربي عبر هذا الطريق

---

(١) سليمان قوجه باش، تركيا وإنكلترا، استانبول ١٩٨٥ ص ٩٢ وأوزطونه، المرجع السابق ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) محمد فريد، المرجع السابق ص ٦٧٢.

بحيث تقطع على إنكلترا طريق الهند. وكان هذا هو السبب في تحرك بريطانيا لضمان أراضي الأناضول الشرقي[٣].

٢ ـ احتلال بريطانيا لمصر:

كان احتلال فرنسا لمصر عام ١٧٩٨، بقيادة نابليون بونابرت قد شدّ انتباه إنكلترا لأول مرة إلى الشرق الأوسط. ولقد لعب الأدب الإنكليزي دوراً هاماً في إثارة السياسيين البريطانيين ودفعهم إلى استعمار مصر. ففي رواية «كنج لاك» Eothen التي ألّفها عام ١٨٣٤، عالج فيها مسألة استعمار الإنكليز لسواحل النيل. وفي رواية «بنيامين دزرائيلي» التي عنونها باسم «Tancred»، وكتبها عام ١٨٤٧ م حديث عن استيلاء بريطانيا على قبرص وعلى مصر.

وكان اهتمام إنكلترا بمصر ينبع من أهميتها كنقطة استراتيجية على طريق الهند. وكان هذا الطريق وتأمينه هو السياسة الإنكليزية الأساسية، لذلك فقد عارضت الوجود الفرنسي في مصر، واشتركت مع العثمانيين في طردهم منها. وعارضت بريطانيا سياسة محمد علي باشا في إقامة دولة مستقلة في مصر. وقاومت مشروع قناة السويس الفرنسي، لكنها عادت إلى تأييد المشروع بتقديم قروض إلى مصر، إلى درجة الأنين تحت وطأة الدَّيْن. وأصبحت مصر بذلك تابعة لضغوط بريطانيا وفرنسا المالية.

---

(٣) سليمان قوجه باش، المرجع السابق ص ٩٤.

وفي عام ١٨٧٥ م، باع الخديوي إسماعيل باشا إلى إنكلترا أسهمه في شركة قناة السويس، بمبلغ ١٠٠ مليون. ولكن مصر لم تستطع أن تدفع ديونها عندما حان وقت دفعها عام ١٨٧٦ م، لكنها أجّلت دفع ديونها الواجب سدادها عام ١٨٧٧، ثلاثة أشهر. وأعلنت ذلك فتشكّل نوع من أنواع «صندوق الإفلاس» لتحصيل الدول الدائنة ما لها من دخل مصر لدفع فوائد الديون. واقترحت الدول المعنية إصلاح مالية مصر لتصفية ديونها تماماً. ورضي الخديوي إسماعيل بكل هذا. وجاء «نوبار» وهو أرمني رئيساً لوزراء مصر ودخل فيها «بليني» وهو فرنسي وزيراً للأشغال و «ويستون» وهو إنكليزي وزيراً للمالية. وخفضوا القوات المسلحة المصرية، وأدّى هذا إلى فصل ٢٥٠٠ ضابط مصري. وقامت من أجل هذا مظاهرات وقذف المتظاهرون عربة «نوبار باشا» بالحجارة فاستقال وحل محله «شريف باشا» فكوّن حكومة وطنية لم يوافق الإنكليز والفرنسيون عليها، فاضطر السلطان عبد الحميد لعزل إسماعيل باشا وجاء ابنه توفيق بديلاً عنه، لكنه لم يفعل شيئاً إذ أصبح أسيراً للسياسيين الإنكليز(٤).

التف الضباط المصريون المفصولون حول الضابط الوطني أحمد عرابي، ورفع عرابي باشا شعار: مصر للمصريين. وأدى تنفيذ هذا الشعار، إلى عزل الموظفين الأوربيين وإخراج الضباط غير المصريين من الجيش وعزلهم (مايو ١٨٨٢ م).

---

(٤) قارال، المرجع السابق ص ٨٧ ـ ١٠١ وقوجه باش ١٠٠ ـ ١٠٢.

وتدخّلت إنكلترا وفرنسا في الموقف، وأرسلتا أساطيلهما إلى الإسكندرية. وبدأ عرابي باشا بتحصين طوابي الإسكندرية خشية حدوث اعتداء أجنبي. وفي مذكرة قدمتها الدولتان في ٢٥ مايو (١٨٨٢ م)، طلبتا إقالة حكومة البارودي وعزل عرابي باشا. واستقالت الحكومة بالفعل، مما أدّى إلى هياج شعبي كبير في ٢٦ مايو وأرادت إنكلترا من الباب العالي - أي الحكومة العثمانية - إعلان عرابي متمرداً وإرسال قوات عسكرية عثمانية إلى مصر، فأخطرها الباب العالي «بأن هذه مسألة ينبغي حلها بالمباحثات».

وكعادة بريطانيا، فقد اختارت لعملياتها في مصر وقتاً حساساً، ففرنسا قد استقرت في تونس، وإيطاليا تجري محاولاتها للاستيلاء على ليبيا، وأهم من ذلك الفكرة السائدة بعدم إمكان إيقاف اعتداء روسيا على المضايق، اجتمعت كل هذه العوامل أمام بريطانيا لتوقيت احتلالها لمصر في ذلك الوقت.

أرسل الباب العالي «درويش باشا» إلى مصر وكان الأسطول الإنكليزي راسياً على مشارف الإسكندرية. وشاعت بين المصريين إشاعات تقول: إن الأوربيين يعدون العدة ضد مصر، وإن السلاح يفد إلى القنصلية البريطانية (كان الموظفون الإنكليز يتجولون في كل مكان لتحريض المصريين سرّاً على الثورة). وعقب حادثة بسيطة من حوادث الشرطة العادية بين أوربي ومكّاري مصري، قام الأوربيون في الإسكندرية بتضخيم المسألة ودخلوا منازلهم ليطلقوا النيران منها على المصريين.

وعندما أبلغ «عرابي باشا» بالواقعة أرسل الجنود إلى هناك وأمر بمنع قيام حوادث.

وطلب الباب العالي عقد اجتماع ممثلين عن الدول، لدراسة الحادث واتخاذ التدابير اللازمة. فرفضت إنكلترا وفرنسا هذا الاقتراح. واتجه الخديوي توفيق مع درويش باشا المندوب العثماني إلى الإسكندرية، لدعوة الشعب إلى السكينة، إلاّ أن القنصل الإنكليزي أخذ في مضايقتهما.

كان الأسطول البريطاني يقترب في هذه الأثناء رويداً رويداً نحو الساحل المصري في الإسكندرية. وأخذ المصريون يحصنون قلاعهم. وقامت حكومة مصرية جديدة كان عرابي وزيراً للحربية فيها، وكان هذا كافياً لكي يترك قنصلا إنكلترا وفرنسا مصر. وأجاب عرابي جواباً إيجابياً على طلب الإنكليز بإيقاف التحصينات. ورغم هذا فقد قال الإنكليز: إنهم ما زالوا غير مطمئنين، وكان ذلك لأن نياتهم كانت قد اتجهت إلى استعمار مصر. وأخيراً أخذوا في ١١ يوليو ١٨٨٢ م، يقصفون الإسكندرية بالمدافع. وقاموا بإنزال بري إلى المدينة. ثم هزموا الجيش المصري ـ نتيجة للخديعة ـ في التل الكبير. ونفوا عرابي إلى جزيرة سيلان. وبالتالي خضعت مصر للاحتلال البريطاني.

* * *

أحدث الاحتلال البريطاني لمصر تغييراً جذرياً في العلاقات العثمانية ـ الإنكليزية. فقد أخذت إنكلترا بعد ذلك تترك تماماً سياستها الشرقية التي تقوم على مبدأ وحدة الأراضي العثمانية.

وأخذت إنكلترا ـ بعد احتلالها مصر ـ في تحويل أنظارها إلى شبه الجزيرة العربية. ولم تكن إنكلترا تستطيع العمل على استقرار سياستها في هذه المنطقة بدون استخدام حركات تضر بمصالح الدولة العثمانية. لذا أخذت في إبراز القومية العربية من ناحية وفي طَرْق سبل السلام تجاه الدول التي تريد تقسيم الدولة العثمانية.

٣ ـ تأثير احتلال بريطانيا لمصر في الصراع بين السلطان عبد الحميد وبين الإنكليز:

أحدث الاحتلال البريطاني لمصر أثراً سيئاً في نفس السلطان عبد الحميد. فقد جعلته يحس بحزن دائم. عبّر السلطان عن هذا في حديث إلى المستشرق «أرمينيوس فامبري»: «.. لقد حطمت حادثة احتلال بريطانيا لمصر كبريائي في كل أنحاء العالم الإسلامي، وجرحت أحاسيسي أمام شعبي. ولا أستطيع أن أقبل المهانة ولن أقبلها. ولقد كانت شروط الإنكليز خطيرة في مستقبل بلادي. كما أنها تمس كياني إلى آخر مدى بوصفي خليفة للمسلمين وسلطاناً للعثمانيين. ولم أكن في يوم من الأيام بقابلٍ لهذه الشروط.. إني أعرف أن المصالح الاستعمارية البريطانية تقتضي المرور الحر من قناة السويس.. ولن أسمح بترك جزء من أراضي الدولة لاحتلال دولة أجنبية ولو بشكل مؤقت..»(٥).

---

(٥) ميم كمال أوكه، عبد الحميد الثاني والصهاينة والمسألة الفلسطينية ص ٣٨، استانبول ١٩٨١.

واستمرت إنكلترا في احتلال مصر رغم طلب الباب العالي منها مرات عديدة بمذكرات قانونية دولية إخلاء مصر من القوات الإنكليزية.

ولم يرغب السلطان عبد الحميد في ترك الإنكليز ينعمون بالراحة في مصر «لقد أنفق أموالاً كثيرة لعمل دعاية مضادة في مصرَ وفي السودان، لمنع النشاط الإنكليزي هناك. وقوّى حاميات الحدود في شبه جزيرة سيناء والخليج العربي. ولم يترك شيئاً يستطيع استخدامه ضد بريطانيا العظمى إلا واستخدمه..»[٦].

«وتمسك بشكل أقوى بسياسة الخلافة ضد الإنكليز خاصة واستخدمها كعنصر إزعاج لبريطانيا في الشرق» (أي ممتلكاتها في شبه القارة الهندية).

٤ ـ أطماع بريطانيا في العقبة: (استرداد العقبة وبقاء طابا مصرية):

تسبب خط سكة حديد الحجاز في ظهور «مشكلة العقبة». والعقبة بلدة وميناء هام في أوج خليج العقبة الشمالي في البحر الأحمر. وقد سمح الباب العالي بأن يكون لمصر جنودٌ بصفة مؤقتة في العقبة، تسهيلاً لسفر الحجاج لأداء فريضة الحج مع أن العقبة لا تدخل في حدود مصر.

وبإنشاء سكة حديد الحجاز لم تعد هناك حاجة لوجود جنود

(٦) قوجه باش، المرجع السابق ص ١٠٧.

مصريين في العقبة وتمّ إخطار مصر بذلك من قِبَل الباب العالي، كما طلب منها سحب جنودها. فاعترضت بريطانيا ـ الدولة التي تحتل مصر ـ على ذلك، وأرسلت البارجة «ديانا» إلى العقبة لتخويف الدولة العثمانية. واعترض السلطان فوراً على هذه المحاولة الإنكليزية، وأبلغ إنكلترا بأن مسألة العقبة مسألة بين الدولة العثمانية ومصر وليس لبريطانيا حق التدخل فيها. وأرسل السلطان قوة عثمانية مكونة من طابورين بقيادة رشدي بك ـ الباشا فيما بعد ومؤلف كتاب «مسألة العقبة» ـ لاحتلال العقبة وطابا معاً، ففعل.

وطابا قصبة صغيرة على بعد أربعة أميال في الشمال الغربي من العقبة. وقد أمر السلطان عبد الحميد قوة رشدي بك باحتلال المكانين كموضوع مساومة من أجل إقرار عثمانية العقبة. فوجهت إنكلترا إنذاراً إلى الباب العالي طلبت فيه انسحاب القوات العثمانية من الأراضي التي تحتلها في شبه جزيرة سيناء في مدة عشرة أيام.

وأخيراً تم الاتفاق بين الطرفين باتفاقية تشترط إبقاء العقبة عثمانية وبالتالي تأكيد مصرية طابا بانسحاب القوة العثمانية منها.

بذلك نجح السلطان عبد الحميد في قضية الصراع العثماني البريطاني في العقبة. وبالطبع كان العنصر الرئيسي في النجاح هو أحقية الدولة العثمانية في العقبة منذ البداية.

ساعدت المظاهرات التي قام بها مسلمو الهند ضد الإنكليز

في اهتمام هؤلاء - الإنكليز - بالإسراع إلى الوصول إلى اتفاق[٧].

٥ - الأطماع البريطانية في اليمن والخليج العربي وموقف السلطان منها:

● في اليمن:

يمكن القول بأن السلطان عبد الحميد قد نجح أيضاً في صراعه ضد بريطانيا في اليمن. لقد أنشأ فرقة عسكرية في اليمن قوامها ثمانية آلاف جندي، لإعادة اليمن إلى الحاكمية العثمانية مرة أخرى. ووصل اهتمامه باليمن إلى إرساله مشاهير قادته ليقودوا هذه الفرقة مثل «أحمد مختار باشا» و «أحمد فوزي باشا» و «حسين حلمي باشا» و «توفيق باشا» والمشير «عثمان باشا» و «إسماعيل حقي باشا».

وقد حاول الإنكليز عند ظهور مشكلة العقبة الضغط على الدولة العثمانية بإذكاء نيران تمرد في اليمن ضد الدولة العثمانية ولكن السياسة التي اتبعها السلطان عبد الحميد كفلت له النجاح في اليمن[٨].

● في الخليج العربي:

يصف أحد الكتّاب الأتراك سياسة السلطان عبد الحميد في منطقة الخليج العربي - وهو خليج البصرة في المصطلح التركي - بقوله:

«رغم أن السلطان عبد الحميد انتصر في الصراع العثماني

(٧) أوزطونه، المرجع السابق ٢٠٥ - ٢٠٨ وقوجه باش ١١٤ - ١١٥.

(٨) إحسان ثريا، ثورات اليمن ص ٦٦ و ١٣١، استانبول ١٩٨٠. وقوجه باش ص ١١٥.

الإنكليزي في اليمن والعقبة، إلا أنه خسر صراعه ضد الإنكليز في منطقة الخليج العربي».

كان الإنكليز يعملون على السيطرة في منطقة الخليج العربي لأهميتها الاستراتيجية في ضمان الطريق البريطاني إلى الهند. ثم جاءت فكرة خط سكة حديد بغداد فأخافت الإنكليز على طريقهم إلى الهند، وبخاصة عندما يمتد الخط إلى الكويت أو البصرة فأخذت إنكلترا في فرض نفوذها على الكويت حتى يحدث احتكاك بألمانيا. ولهذا عقد اللورد «كيرزون» الحاكم العام للهند اتفاقية في ٢٣ يناير ١٨٩٩ م، مع الشيخ «مبارك الصباح» تقضي بعدم تأجير الشيخ أية مدينة أو قطعة أرض للدول الأجنبيـة دون علم إنكلترا، وألّا يقبل موظفين أجانب في الكويت. اعترض الباب العالي على هذه الاتفاقية.

انتهى الأمر بتوقيع معاهدة يتم بموجبها «حفظ الوضع الراهن في الخليج». وكان الأمر الواقع؛ أن الكويت قد دخلت تحت الحاكمية الإنكليزية. وعليه فقد رفض الشيخ السماح بدخول الموظفين السياسيين: الألمان والعثمانيين، الكويت.

وقامت إنكلترا بعقد معاهدات مشابهة في تواريخ مختلفة مع بقية شيوخ المنطقة، مثل حضرموت والبحرين ومسقط. ولم يحل عام ١٩٠٠ م، إلا وكانت إنكلترا قد عقدت معاهدات مع كل إمارات منطقة الخليج وبالتالي انتهى النفوذ العثماني من المنطقة[٩].

---

(٩) قوجه باش، المرجع السابق نفس الصفحة و١٥٢ و١٥٨. وكذلك ١٣٩ و١٥٩.

٦ ـ الدعم البريطاني للأرمن ضد الدولة العثمانية:

لم تكن بريطانيا بمعزل عن الحركات القومية العرقية في أوربا العثمانية، ولم تكن أيضاً بمعزل عن حركة الانفصال الأرمنية، التي كانت تهدف إلى اقتطاع جزء من الدولة العثمانية، لإقامة دولة أرمنيـة عليها. كانت بريطانيا تقف بجانب الدولة، ضد هذه الحركات القومية الانفصالية خشية التأثير الروسي على الدولة.

لكن بريطانيا غيّرت سياستها بعد ذلك أملاً في احتضان هذه الحركات القومية، لتتخذ منها سياجاً ضد انتشار النفوذ الروسي إلى المياه الدافئة من ناحية، ولتضمن سلامة الطريق إلى الهند من القوى الدولية المنافسة لبريطانيا من ناحية أخرى. ففي معاهدة برلين، توسطت بريطانيا في وضع بنود لصالح إجراء إصلاحات في المناطق التي يعيش فيها الأرمن، وجعلت مراقبة هذا الأمر في يد الدول الأوربية، وعلى رأسها بريطانيا نفسها، بدلاً من أن تترك لروسيا هذه المزية.

ولما أبطأ السلطان عبد الحميد في تنفيذ ما يتعلق بإجراء إصلاحات في المنطقة، هددت بريطانيا باتخاذ إجراء عسكري بحري ضد الدولة العثمانية.

وأصبحت إنكلترا مركز قيادة الحركة القومية الأرمنية عام ١٨٨٠ م عندما نجح «جلادستون» في الانتخابات البريطانية وأصبح رئيساً لوزراء بريطانيا.

كانت إنكلترا تؤيد الحركة الانفصالية الأرمنية، ضد السلطان عبد الحميد، وضد المصالح العثمانية، لأنها ترى أنها بهذا

التأييد ستمنع نزول روسيا من القوقاز إلى المياه الدافئة، وبخاصة عند إقامة دولة ذات حكم ذاتي للأرمن في البلاد العثمانية، تكون هذه الدولة سلاحاً ضد المطامع الروسية في طريق الهند. ولم تكن روسيا تؤيد إقامة مثل هذه الدولة للأرمن. وبالتالي اضطرت روسيا لسحب تأييدها ومساعداتها للحركة القومية الأرمنية. وتركت هذا المجال لإنكلترا وهذا ما كان الإنكليز يريدون التوصل إليه. وبالتالي أصبحت إنكلترا هي المؤيد للقضية الأرمنية.

وصل التحريض البريطاني للأرمن ضد الدولة العثمانية ذروته عام ١٨٩٠ م، عندما حرّض الإنكليز الأرمن على القيام بعصيان وتمرد دموي في شرق الأناضول ضد الأهالي المسلمين من أتراك وأكراد.

وكما بلغت عداوة السلطان عبد الحميد ذروتها للإنكليز عند احتلالهم مصر، فقد بلغت عداوة إنكلترا للسلطان عبد الحميد ذروتها، عند قيام الأرمن بتمردهم الدموي هذا في منطقة شرق الأناضول، وقد بلغت هذه العداوة الحدّ الذي اقترحت فيه إنكلترا غزواً عسكرياً أوربياً للدولة العثمانية من البحر الأحمر والدردنيل.

- **واقترح رئيس الوزراء البريطاني االلورد «سالسبوري» على القيصر الروسي «نيقولا الثاني» تعاوناً عسكرياً كاملاً ضد استانبول مباشرة لإسقاط السلطان عبد الحميد من على العرش.**

وأدرك الإنكليز أن السلطان عبد الحميد، إذا ظل في العرش

فإن محاولة قيام دولة أرمنية تقتطع من أراضي الدولة العثمانية محكوم عليها بالفشل. وبخاصة عندما وقف السلطان بقوة تجاه تصرفات الأرمن. وكان عناد السلطان سبباً في تراجع إنكلترا عن موقفها في تأييد الأرمن بعدما جرّبت كل السبل مع السلطان(١٠).

٧ ـ تحريض بريطانيا للعرب ضد الدولة العثمانية وموقف السلطان عبد الحميد:

اتخذت الدول الأوربية مبدأ «الهدم من الداخل» لإنهاء وجود الدولة العثمانية. واستطاعت هذه الدول اقتطاع مناطق من البلقان. ثم رأت الدول الأوربية أن تتجه بسياستها هذه، إلى المواطنين المسلمين في الدولة، دولة الخلافة التي يرتبط المسلمون بخليفة مقره عاصمة هذه الدولة، والإسلام يأمر بالتعاون بين المسلمين ولا يعترف بالقومية العنصرية.

وإن كان إضعاف الدولة العثمانية وإسقاطها هدفاً أوربياً إلاّ أنه كان لأوربا أطماع في اقتناص أجزاء من الدولة. وكانت الوسيلة إيجاد العداء بين العناصر المسلمة في الدولة العثمانية من ناحية واستنهاض الروح القومية بين المسلمين داخل هذه الدولة. ومن ضمن العناصر القومية هذه: العرب.

وكانت المدارس الأجنبية والبعثات التنصيرية، هي الوسيلة لهذه الدول في إيقاظ الشعور القومي للعرب ضد الدولة العثمانية.

---

(١٠) قوجه باش، المرجع السابق نفس الصفحة و١٥٢ و١٥٨. وكذلك ١٣٩ و١٥٩.

إن النشاط التنصيري الفرنسي في سوريا ولبنان والقدس، قديم. لكن النشاط التنصيري الإنكليزي لم يبدأ إلّا في عام ١٨٤٢ م، عندما أسست كنيسة بروتستانتية في القدس. وتعتبر مدارس الإرساليات التنصيرية هي المنبع الأول للحركة الانفصالية القومية العربية في الدولة العثمانية. وبدأ نشاطها يتسع عندما سيطر محمد علي باشا والي مصر العثماني على سوريا.

ويذكر «لامانس» محرر مادة سوريا في «دائرة المعارف الإسلامية»: أن منظمات الإرساليات الأجنبية في الدولة العثمانية قد عملت بصراحة على الانفصال الصريح عن الدولة العثمانية، وأن الإرساليات الأمريكية، وبخاصة إرسالية جمعية «عيسى»، عملت على إثارة القومية العربية، ولا سيما إثارة العرب النصارى ضد السلطة العثمانية. وبهذا الهدف أسّس القسيس «الجزويت» عام ١٨٧٥ م، جامعة سان جوزيف في بيروت(١١).

وبالتساند الديني بين الأوربيين وبين نصارى الشام بدأ تيار القومية العربية الهادفة إلى الانفصال عن العثمانيين، ومنهم سرت هذه القومية إلى العرب المسلمين. وكانت أوربا تعمل بطرقها الخفية إلى إقناع العرب المسلمين، بالثورة ضد العثمانيين. لذلك قاموا بإنشاء الجمعيات مثل جمعية «بيروت العربية» السرية التي أُسست قبل اعتلاء السلطان عبد الحميد العرش بسنة

---

(١١) انظر مادة سوريا، تأليف لامانس، أتممها وزاد عليها الأستاذ فكرت إيشيل طان في دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة التركية المجلد ١١ ص ٥١ ـ ٦٦.

واحدة، وأسسها الخريجون النصارى من الكلية البروتستانتية السورية في بيروت التي أصبحت الجامعة الأميريكية فيما بعد. وكان هدفها إقامة دولة عربية مستقلة وإنهاء الحكم العثماني.

ولم يقتصر النشاط الأوربي في إثارة الانفصال العربي عن الدولة العثمانية على المدارس الأجنبية، وبعثات التنصير ومدارسها فقط، بل كانت «المحافل الماسونية» وسيلة فاعلة تعمل في هذا السبيل، و«عمل العرب النصارى الذين أرادوا وحدة العمل مع العرب المسلمين، على تنظيم إخوانهم في العرق والقومية من المسلمين في المحافل الماسونية بعدة طرق»[١٢].

وبمقتضى هذه السياسة، قامت إنكلترا بنشاط فائق الترتيب والتنظيم في سبيل خروج الحجاز والجزيرة العربية من أسرة الدولة العثمانية، كما رتبت السياسة البريطانية أمر تبعية الأشراف لها بعد أن كانوا مرتبطين بالخلافة الإسلامية، ودخول منطقة الخليج دائرة النفوذ البريطاني واحتلال عدن.

وبلغ النشاط الإنكليزي في نشر النفوذ البريطاني عن طريق المدارس الأجنبية، حدّاً فاق فرنسا، التي بدأت في هذا الميدان نشاطها مبكراً. وأكثرت إنكلترا من هذه المدارس حتى إنها افتتحت لها مدارس في القرى النائية ولا سيما بين الدروز.

وانتشر النشاط القومي العربي المرافق للعداء للدولة العثمانية

---

(١٢) ميم كمال، المرجع السابق ص ٩٩.

في مصر وغيرها من البلدان العربية، بمعنى: أنه خرج من دائرة بلاد الشام إلى سائر المنطقة العربية.

* * *

بناء على هذا، حدّ السلطان عبد الحميد من نشاط المحافل الماسونية، بإحكام الرقابة على تحرك الماسونيين، وإن لم يتمكن من حدّ نشاط المدارس الأجنبية بنفس القدر. وعمل على الإفادة من دعوته إلى الجامعة الإسلامية، بتكثيف الدعاية إلى اتحاد المسلمين وتعاونهم ضد الدول الأوربية. ويدخل في هذا النشاط بالطبع، خط سكة حديد الحجاز والحركة العمرانية الشاملة في البلاد والعناية بدور العبادة أي المساجد، والاهتمام بالزيارات المتبادلة لمشايخ المسلمين في مختلف بلدانهم. وقرب إليه شخصيات عربية هامة.

وفي تقرير للسفير الإنكليزي في استانبول روسبري عام ١٨٨٩ م إلى بلاده يوضح فيه أن السلطان عبد الحميد قد اتخذ وسائل للإنعاش الاقتصادي والتعمير في البلدان العربية.

* * *

قام السلطان عبد الحميد بمنع النشاط الصهيوني في فلسطين، وقام بكل التدابير الممكنة في المحافظة على البلاد، ولم ينس اتخاذ التدابير الشديدة من أجل ألّا يقع العرب في قبضة البلدان الغربية مثلما فعل في اليمن.

«إن السلطان عبد الحميد ـ بما اتخذه من إجراءات كثيرة ـ قد

خنق الفكرة القومية العربية وقد كانت ما تزال في بطن أمها. وكان العرب طوال فترة حكمه قد ارتبطوا به بصدق وإخلاص».

٨ - تحريض بريطانيا للأكراد ضد الدولة العثمانية وموقف السلطان عبد الحميد:

بدأت إنكلترا في الربع الأول من القرن التاسع عشر سياسة تحريض الأكراد ضد الدولة العثمانية، بهدف إيجاد عداء عثماني - كردي من ناحية، وانفصال الأكراد بدولة تُقتطع من الدولة العثمانية من ناحية أخرى.

وبقيام شركة «الهند البريطانية» زاد اهتمام الإنكليز بالعراق، وكان العراق قطعة من الوطن العثماني، وأرسلت بريطانيا «أشخاصاً» بهدف «خلق حركة بين الأكراد». وعقب وصولهم إلى بغداد أخذوا في القيام بجولة بين العشائر الكردية. كما قام «كولهون» الإنكليزي بمحاولات لإقناع الأكراد بالتعاون مع الإنكليز في سبيل استقلالهم. وتعددت زيارات العملاء من الإنكليز إلى المناطق الكردية، في محاولة لتوحيد العشائر الكردية ضد الدولة العثمانية.

وبالطبع كان للإنكليز مصالح استراتيجية في منطقة الموصل، ولهذا اتصلوا بالأكراد، كما أن قيام دولة كردية، كان في صالح بريطانيا، على اعتبار أن قيام مثل هذه الدولة منفصلة عن الدولة العثمانية، سيكون «منطقة عزل» تمنع روسيا من الوصول إلى الخليج العربي والمياه الدافئة.

* * *

وأمام هذا التحريض الإنكليزي للعشائر الكردية، قام السلطان عبد الحميد بعمل إجراءات لمنع هذا، منها موقفه المتصلب ضد قيام دولة أرمنية تقتطع من أراضي الدولة، وبذلك شعر الأكراد - المقيمون في نفس المنطقة - بالأمان. كما أنه قام بحماية المواطنين العثمانيين الأكراد من هجمات الأرمن الدموية ضدهم. وأرسل إلى شرق الأناضول - حيث يقيم الأكراد - وفوداً من علماء المسلمين للنصح والإرشاد والدعوة إلى التساند الديني الإسلامي. وأدّت هذه الوفود دورها في إيقاظ الأكراد تجاه الأطماع الغربية. كما اتخذ السلطان عبد الحميد إجراءات يضمن بها ارتباط أمراء الأكراد به وبالدولة، وأسس الوحدات العسكرية الحميدية في شرق الأناضول من الأكراد، للوقوف أمام الاعتداءات الأرمنية[١٣].

* * *

(١٣) قوجه باش صفحات ١٧٢ و١١٢ و١٧٦ و ٢١٠ و٢٠٩.

الفصل الثالث

سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الخارجية

(أطماع الدول الأوربية الأخرى في الدولة العثمانية)

١ ـ الأطماع النمساوية: سياسة «من فيينا إلى سلانيك»:

لعبت دولتان دوراً كبيراً في الصراع الدائم ضد الدولة العثمانية في عهدي ارتفاعها وتوقفها. واحدة منهما شرقية وهي «إيران»، والأخرى أوربية وهي «النمسا».

أما النمسا؛ فقد اتبعت سياسة عدم ترك المجر وأهالي الدانوب (الطونة) عرضة لفتوحات العثمانيين في أوربا. لكن هذه السياسة، لم تصمد أمام شدة العثمانيين. وظلّت النمسا مجبرة على الرضا بوضعها هذا حتى عام ١٦٨٣، وهو عام هزيمة العثمانيين أمام أسوار فيينا. وبذلك عاد الأمل إلى النمسا في إبعاد العثمانيين إلى جنوب الدانوب.

وأخذت سياسة النمسا في القرن الثامن عشر، هدفاً واضحاً وهو الوصول إلى سلانيك ـ وهي بلدة يونانية، كانت ضمن حدود

الدولة العثمانية في ذلك العهد ـ واتخذت النمسا وسيلتها في هذا: ربط نصارى الدولة العثمانية بها ـ أي النمسا ـ واستخدامهم في سبيل تحقيق أغراضها.

وفي ذلك الوقت بالضبط، قامت روسيا منافساً للنمسا. وزاد النمسا حرجاً: أن روسيا قامت باحتلال منطقتي الأفلاق والبُغدان العثمانيتين (في رومانيا الآن). وبالتالي أصبح الدانوب مفتوحاً أمام الروس. لذلك قامت النمسا ـ رغم أطماعها في بلاد المسلمين ـ بإجابة فورية لنداء أذاعته الدولة العثمانية، بطلب العون في صد التقدم الروسي في أراضيها. ووقعت النمسا بذلك معاهدة في ٦ يوليو عام ١٧٧١ م. ونصّت هذه المعاهدة: «على أن تقوم النمسا بمساعدة الدولة العثمانية بالوسائل الدبلوماسية، أو بالحرب ضد روسيا، لإعادة الأراضي العثمانية التي تحتلها القوات الروسية».

لكن النمسا ما لبثت أن تفاهمت بعد ذلك مع روسيا ضد العثمانيين. وكانت آخر محاولة أساسية في سبيل تقسيم أوربا العثمانية بين الدولتين، هي مشروع جرك Grek عام ١٧٨٦ م. وهو مشروع لم يتم، مما دفع النمسا إلى التصريح: بأن سياستها هي حماية وحدة الأراضي العثمانية. وكان «مترنيخ» رئيس الوزراء النمساوي هو صاحب هذه السياسة.

اتخذت روسيا موقف العداء تجاه الدولة العثمانية والنمسا. وكانت إمبراطورية النمسا تضم عناصر مختلفة: الجرمان والسلاف والمجريين. وكان العنصر الجرماني هو الذي يمتلك

السلطة. وكانت الدولة العثمانية تضم عناصر مختلفة أيضاً: الأتراك والعرب والروم (اليونانيين) والأرناؤوط (الألبانيين) والسلاف والأكراد والجركس وغيرهم، والسلطة كانت في يد الأتراك. وكان العنصر السلافي موجوداً في الدولتين. وكان هذا العنصر عوناً للروس، كما أن روسيا كانت تستغله وتحركه ضد الدولتين لتحقيق المطامع الروسية في كلتيهما.

ونتيجة للسياسة النمساوية المؤقتة، اشتركت الوحدات العسكرية النمساوية مع القوات العثمانية، في دخول إمارات الدانوب في ٢٢ أكتوبر ١٨٥٤ م، ضد القوات الروسية. ونتيجة لانهزام روسيا، وقعت معاهدة باريس ١٨٥٦ م.

وكان لا بد للنمسا من العودة إلى أصل هدفها، وهو تحقيق أطماعها في أراضي الدولة العثمانية. فقد أخذت النمسا عقب معاهدة باريس، تتخفف من سياسة تأييدها لوحدة الأراضي العثمانية. وهناك سبب آخر في ذلك: هو أنها كانت تخاف من روسيا لإثارتها العناصر السلافية الموجودة في داخل النمسا خاصة، وأن القومية السلافية كانت في دور الهياج.

وفي أول الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، أولت النمسا كل اهتمامها إلى أوربا الجنوبية ومنطقة البلقان العثمانية، مما حدا بها ـ أي بالنمسا ـ إلى تأييد العناصر السلافية، بل وإثارتها للتمرد ضد الحكم العثماني. وفي هذا كان لها أغراض ثلاثة: الأول: الظهور أمام روسيا بأنها تحاول إرضاءها حتى لا تثير لها مشاكل داخلية، والثاني: الظهور أمام السلاف في داخل

الإمبراطورية النمساوية نفسها، بمظهر المتعاطف مع بني جلدتهم، الواقعين ضمن إطار الدولة العثمانية، والثالث: تحقيق حلمها الرئيسي في إسقاط الدولة العثمانية حتى تمتلك النمسا ما تريده، من عاصمتها فيينا إلى سلانيك[1].

وقامت النمسا مع روسيا، بتحريض ومساعدة المتمردين في البوسنة والهرسك ضد الدولة العثمانية، وقام العملاء الروس والعصابات السلافية التي يتم تدريبها وإعدادها داخل النمسا، بتقديم كل العون الضروري للمتمردين ضد العثمانيين. وأدت هذه المساعدات إلى «تقوية المتمردين». وأدى هذا بالتالي: إلى بداية الاستعدادات العدائية ضد العثمانيين في كل من الصرب والجبل الأسود[2].

وأصبح واضحاً للعيان في عام ١٨٧٥ م، اشتداد تأييد النمسا للمتمردين ضد الدولة العثمانية، في كل من البوسنة والهرسك (في يوغوسلافيا الآن). ذلك لأن النمسا كانت تأمل في الاستيلاء على هذه الأراضي، وضمها لامبراطوريتها. وأدى هذا الأمل النمساوي إلى: أن تصبح البوسنة والهرسك الموضوع الأساسي بين روسيا والنمسا. مما أدى في عام ١٨٧٦، وبموجب معاهدة برلين الموقعة في هذه السنة، إلى: احتلال النمسا لكل من البوسنة والهرسك احتلالاً «مؤقتاً». وقالت هذه المعاهدة: «ببقاء

---

(١) سليمان قوجه باش، الجامعة السلافية (الصقلبية) في البلقان، ص ١٩١ - ١٩٧، استانبول ١٩٨٦.

(٢) قارال، التاريخ العثماني جـ٧ ص ٧٩.

سنجق يني بازار في حوزة العثمانيين» إلا أن من حق النمسا احتلال هذا السنجق عندما ترى هذا ضرورياً. وسنجق يني بازار هذا: هو الحدود بين البوسنة ـ الهرسك، وبين مقدونيا، أصبح مفتوحاً بالتالي إلى سلانيك، أمل النمسا في الأراضي العثمانية.

اتخذت النمسا بعد ذلك ـ وحتى ثورة «الاتحاد والترقي» عام ١٩٠٨ م ـ سياسة العمل على إضعاف الدولة العثمانية في إطار المحافظة على الوضع الراهن في بلاد البلقان، وبقاء هذه البلاد البلقانية تحت إدارة الدولة العثمانية الضعيفة. وبالتالي يسهل عليها ـ أي النمسا ـ التهام هذه المنطقة العثمانية التي تحلم بها.

قوّت ثورة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ م، آمال النمسا في إلحاق أراضي البوسنة والهرسك العثمانيتين إلى الحدود النمساوية. وبمجرد أن أعلن البلغاريون في «٥ أكتوبر ١٩٠٨ م» استقلالهم عن الدولة العثمانية، انتهزت النمسا فرصة انشغال الدولة العثمانية بذلك، فأعلنت إلحاق البوسنة والهرسك رسمياً إلى الإمبراطورية النمساوية، يوم ٦ أكتوبر ١٩٠٨ م، أي في اليوم التالي للثورة البلغارية.

تابعت النمسا سياستها «من فيينا إلى سلانيك»، وفي هذا السبيل أعلنت الحرب على جارتها الصرب عام ١٩١٤ م. إلاّ أن قيام الحرب العالمية الأولى غيّر جغرافية العالم من جذورها[٣].

---

(٣) قوجه باش، المرجع السابق صفحات ٢٠٢ ـ ٢٠٤ ـ ٢٠٦ ـ ٢٢٣.

٢ ـ الأطماع الإيطالية:

اتجهت إيطاليا بعد تحقيق وحدتها إلى الزج بنفسها في «الصراع الاستعماري». وكانت أقرب الأماكن لتحقيق سياستها الاستعمارية، هي الأراضي القريبة منها. وهي الأراضي العثمانية: تونس وألبانيا وطرابلس الغرب.

وكانت طرابلس الغرب (ليبيا) جزءاً من أحلام «ماتزيني» رئيس الوزراء الإيطالي الذي قال: «إن شمال إفريقيا، ميراث إيطالي» لكن فرنسا احتلت تونس وإنكلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا طرابلس الغرب ليبيا».

رسمت إيطاليا سياستها في طرابلس الغرب على ثلاث مراحل. الأولى: الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من «مؤسسات الخدمات». والثانية: العمل على أن تعترف الدول بآمال إيطاليا في احتلال طرابلس الغرب، بالطرق الدبلوماسية. والثالثة: إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلي.

وتوصف السياسة الإيطالية بأنها: سياسة لا تلفت النظر إلى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية أو الفرنسية في ذلك الوقت. وكان الإيطاليون يتحركون «بحكمة» و«هدوء» شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

لكن السلطان عبد الحميد «لم يبتلع هذا الطُعم الرقيق» في التعامل، بل كان متيقظاً وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط الإيطاليين في بلاده، وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول:

«إنَّ للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية، سواء في ليبيا أو في ألبانيا، هدفاً أخيراً هو تحقيق أطماع إيطاليا في الاستيلاء على كل من:

١ ـ طرابلس الغرب.
٢ ـ ألبانيا.
٣ ـ مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير ـ الإسكندرون ـ أنطاليا».

وقام السلطان عبد الحميد باتخاذ التدابير المشددة اللازمة، أمام الأطماع الإيطالية ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطالياً مسلحاً على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية في ليبيا بعدد «١٥,٠٠٠» جندي لتقويتها. وتأجّل تفكير إيطاليا في احتلال ليبيا بعد أن علمت بالاستعداد العثماني. وظل السلطان عبد الحميد يقظاً حساساً تجاه التحركات الإيطالية، يتابعها شخصياً وبدقة، ويطلع على كل المكاتبات الدبلوماسية الدائرة بين كل من «يلديز» و«سفير الدولة العثمانية» في روما ووالي طرابلس الغرب.

وثار الاتحاديون، وخلعوا السلطان عبد الحميد، ولم يكونوا أبداً في قدرته السياسية، ولا في يقظته ولا في حساسيته تجاه التحركات الإيطالية وأطماعها في ليبيا.

قامت حكومة «الاتحاد والترقي» بإخلاء ليبيا من السلاح، وكان ذلك بأن أمر «محمود شوكت باشا» قائد الانقلاب الاتحادي بنقل قسم هام من القوات العثمانية في ليبيا بأسلحتها ومهماتها

العسكرية إلى اليمن. وكان هذا إجراءً عسكرياً خاطئاً بالغ الخطأ بتعبير «محمود مختار باشا». كما أن حكومة انقلاب «الاتحاد والترقي» هذه قامت باتخاذ خطوة وُصفت بأنها «غريبة»: بأن أعْفَت «إبراهيم باشا» والي طرابلس من منصبه واستدعته إلى استانبول، دون أن تُعين أحداً مكانه. وكان هذا الوالي معروفاً بيقظته، وكان ينبّه استانبول دائماً إلى مخاطر إيطاليا. وكان الإيطاليون يكرهونه لدرجة: أن وزارة الخارجية الإيطالية، أرسلت برقية شكر إلى وزارة الخارجية العثمانية وكل حكومة الاتحاد والترقي، عقب إعفاء إبراهيم باشا من منصبه في ليبيا.

وظلت ليبيا بدون والٍ، إلى أن قامت إيطاليا باحتلالها. وكان ذلك بإرسال ثلاثين ألف جندي إيطالي مجهزين بأحدث الأسلحة، في أول إنزال إيطالي بحري على السواحل الليبية، ولم يقابلهم غير ألف وسبعمائة جندي فقط غير مجهزين بأسلحة كافية.

وانتهت الحرب الإيطالية في ليبيا، بمعاهدة «أوش» في ١٨ أكتوبر ١٩١٢، التي انسحبت بموجبها القوة العثمانية من ليبيا[٤].

٣ ـ الأطماع الروسية:

اندفعت روسيا القيصرية ـ بفعل ظروف دينية وجغرافية واقتصادية ـ إلى اتّباع سياسة «الوصول إلى المياه الدافئة».

---

(٤) قوجه باش، المرجع السابق صفحات ٢٠٢ ـ ٢٠٤ ـ ٢٠٦ ـ ٢٢٣.

وقد نصّ «بطرس الأكبر» (١٦٢٧ - ١٧٢٥ م) في وصيته للروس (في الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة): على ضرورة الصراع الحضاري ضد العثمانيين، إلى أن تنتهي الدولة العثمانية من الوجود.

يقول «بطرس الأكبر» في الفقرة التاسعة من وصيته:

«نقترب من القسطنطينية والهند بقدر الإمكان فمن يملك القسطنطينية فقد ملك العالم. بناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيين».

وفي الفقرة الحادية عشرة يقول:

«نشارك النمسا فيما قصدناه من إخراج العثمانيين من أوربا».

وفي الفقرة الثالثة عشرة يقول:

«وبعد التسلط على الممالك العثمانية، نجمع جيوشنا وتدخل أساطيلنا بحر البلطيق والبحر الأسود ونشرع في التفاوض مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة العالم بيننا»(٥).

لذلك أخذت روسيا في إثارة الحروب المتعددة ضد الدولة العثمانية، وتلتهم أجزاء من أراضيها قطعة بعد قطعة. أمّا في الأماكن التي لم تستطع الاستيلاء عليها، فقد عملت على قيام دول نصرانية مستقلة فيها، مثل رومانيا وبلغاريا والصرب واليونان.

---

(٥) إبراهيم حلمي بك، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ص ٢٤١، القاهرة ١٩٠٥ م = ١٣٢٣ هـ.

وتنفيذاً لهذه السياسة الروسية الهادفة إلى شن الحروب المتواصلة ضد الدولة العثمانية؛ لاستنزافها وإجهادها ـ خاصة ـ وهي في مرحلة ضعفها حتى تسقطها، وبالتالي: تستطيع روسيا ـ حسب أحلام أطماعها ـ الاستيلاء على مضيقي الدردنيل والبسفور؛ خروجاً منهما إلى البحر المتوسط. تنفيذاً لهذه السياسة، قامت روسيا ضد الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، بالحرب ضد الدولة عامي ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ م. أي الحرب العثمانية الروسية ـ أو حرب ٩٣ كما تُذكر في بعض المصادر ـ على جبهتين:

الأولى: جبهة الدانوب (= نهر الطونة).

وكان الروس في كثافة عددية في الجنود والعتاد (٢٥٠,٠٠٠ جندي) وفي مساعدة من رومانيا (٥٠,٠٠٠ جندي). أمام القوات العثمانية في الدانوب (الطونة) وبلغت (٢٠٠,٠٠٠ جندي). وتمكنت القوات الروسية من اجتياز نهر الطونة وأخذوا في التقدم. وانتصر العثمانيون انتصاراً بارزاً وأبلوا بلاءً حسناً. وهاجم الروس قصبة «بلاونة».

لم تكن القوات الروسية فقط هي التي تهاجم «بلاونة»، وإنما كانت القوات الرومانية معها. أخذت القوات المشتركة، تقصف «بلاونة» بمن فيها من القوات العثمانية. وكانت مدافع العثمانيين (٥٨ مدفعاً) في مقابل (٨٣٢) مدفع روسي روماني. وانتصر العثمانيون، بعد أن أبادوا مائة وأربعة عشر من القوات الروسية الرومانية.

واعتبر السلطان عبد الحميد أن هذا النصر، نصر عظيم، يستحق قائده «عثمان باشا» لقب الغازي وهو لقب عزيز في التاريخ العسكري العثماني.

واستطاع الروس والرومانيون، من إغلاق طريق «صوفيا ـ بلاونة»، وبالتالي حوصرت (بلاونة) من كل مكان. ونقصت الذخيرة من قوات «عثمان باشا»، وهدد الخطر قواته المحاصرة، فلم يجد وسيلة أخرى غير اختراق خطوط العدو.

وفي ١٠ ديسمبر ١٨٧٧ م، قام «عثمان باشا» بقواته بهجوم عنيف على الخطوط الروسية ـ الرومانية. واخترق بالفعل الخط الأول من خطوط العدو، لكنه أصيب بعيار ناري في ركبته. واضطر للتسليم خوفاً من ضيَاع جنوده.

لكن الروس أعجبوا كثيراً بشجاعة عدوهم «عثمان باشا» فقام «الجراندوق نيقولا» القائد العام للقوات الروسية، بتهنئة «عثمان باشا» على دفاعه الرائع وأعاد له سيفه احتراماً لقدرته القتالية وصبره. وأرسل «عثمان باشا» إلى روسيا في شهر ديسمبر من نفس العام ١٨٧٧ م، واستقبله القيصر بكل مراسم الاحترام. ولم يُعامل «عثمان باشا» معاملة الأسير.

* * *

قامت القوات الروسية ـ الرومانية ـ المشتركة بعد ذلك بالتقدم والاستيلاء على مدن حيوية واستراتيجية هامة من المدن العثمانية: (صوفيا وقيزانيق وفيلبه وأدرنه). ووصلت هذه القوات حتى ضاحية (أياستفانوس) من ضواحي استانبول.

وعلى الجبهة القوقازية: لم تكن القوات العثمانية متكافئة، عدداً وعدّة مع القوات الروسية المعتدية. وتقدمت هذه القوات وسيطرت على أماكن حيوية وأساسية، مثل (بايزيد) الشرقية و(أردهان). ولكن العثمانيين انتصـروا في موقعتين هـامتين «زيوين» و«حايلاز» ثم في معركة (كديـك لار) وقاومهم (أحمد مختار باشا) مقاومة بطولة واستبسال ومُنح لذلك لقب «الغازي» أيضاً. وانسحب الباشا مضطراً إلى (أرضروم).

واستولى الروس على «قارص» لكن (أرضروم) استعصت عليهم.

انتهت هذه الحرب بعقد معاهدة (أياستفانوس) (١٨٧٨ م) بعد أن تدخلت الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا، لكي يرضى الروس بعقدها.

عقدت هذه المعاهدة في ٣ مارس عام ١٨٧٨ م. ووقّعها «صفوت باشا» عن الدولة العثمانية وهو يبكي. وكان لا بد بالضرورة أن تحتوي هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية.

* * *

ولم يكن السلطان عبد الحميد راضياً في الأصل بدخول هذه الحرب. لذلك لم يصدق على المعاهدة. وقام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة، حتى أقنع بريطانيا في الوقوف إلى جانبه، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة

أياستفانوس، من ناحية، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا، لكي تصرف روسيا النظر عن الحرب.

وبالفعل عقدت معاهدة برلين في ١٣ يوليو ١٨٧٨ م كما أشير من قبل(٦).

* * *

بذلك ضمن السلطان عبد الحميد، تخلي الروس عن الجزء الخاص بإثارة الحروب ضد الدولة العثمانية، الوارد في وصية بطرس الأكبر.

وضمن مكاسب للدولة، قللت بنود الخسائر في المعاهدة الأولى.

ودلّت أحداث المعاهدتين على عبقرية السلطان عبد الحميد السياسية، التي تمثّلت في إحداث النفور بين دولة روسيا ودولة ألمانيا.

يقول الإمبراطور الألماني «غليوم الثاني» في مذكراته: «جرى لي حديث مع أحد كبار القواد الذين ألحقوا بخدمة البلاط القيصري في عهد «الكسندر الثاني» قيصر روسيا، عن العلاقات بين البلاطين الروسي والألماني وبين الجيشين والبلدين فقلت لهذا القائد: إني أرى انقلاباً محسوساً في هذه العلاقات. فقال لي: (الذنب في ذلك على مؤتمر برلين! تلك غلطة كبرى ارتكبها «بسمارك» فقد قضى على الصداقة القديمة التي كانت

(٦) عن الحرب العثمانية الروسية ونتائجها انظر أوزطونه ص ١٤٤ ـ ١٥٩.

بيننا، وأزال الثقة بألمانيا من البلاط الروسي ومن الحكومة الروسية. وجعل الجيش يشعر بأنه جنى عليه جناية عظمى بعد الحرب الدموية التي خاض غمارها عام ١٨٧٧ م)»[٧].

* * *

وبعد أن أيقنت روسيا أن السلطان عبد الحميد قد كتّل ضدها الرأي العام الأوربي والدول الأوربية، وأن لا سبيل لها إلى إيجاد فرصة للحرب بينها وبين الدولة العثمانية، تحقيقاً لأطماعها، أخذت السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية تأخذ شكل الحرب الباردة. وكان ذلك عن طريق تأليب مواطني الدولة العثمانية من النصارى، وإثارتهم للتمرد ضد الدولة، مثلما حدث في جزيرة كريت، وإثارة البلغاريين أيضاً للتمرد ضد الدولة، مما أدّى إلى تكاليف باهظة على الدولة العثمانية واستنزاف قواها.

٤ ـ الأطماع الفرنسية:

كانت فرنسا تطمع منذ قيام الثورة الفرنسية في تكوين إمبراطورية فرنسية بدأها «نابليون بونابرت» باحتلال مصر لكنه فشل في مشروعه هذا وعاد إلى بلاده.

وفي عام ١٨٣٠ م احتلت فرنسا الجزائر وأصبحت مجاورة لتونس.

وفي عهد السلطان عبد الحميد، انتهزت فرنسا أثناء انعقاد

---

(٧) مذكرات غليوم الثاني ص ١٨ ـ ١٩ ترجمها إلى العربية محب الدين الخطيب وأسعد داغر، القاهرة، ١٣٤١.

مؤتمر برلين ١٨٧٨ م، الفرصة لتخطط لاحتلال تونس. وهيّأت الرأي في الدول الأوربية لقبول ذلك. وادّعت الحكومة الفرنسية بأن قبيلة تونسية اعتدت على الجزائر، وعلى ذلك أرسلت في ٤ إبريل عام ١٨٨١ م، قوة قوامها (٢٠,٠٠٠ جندي) إلى تونس بحجة ضمان أمن الحدود، لكن هذه القوة تقدمت في الأراضي التونسية، وأجبرت (محمد الصادق) والي تونس العثماني على توقيع معاهدة (باردو) في ١٢ مايو عام ١٨٨١ م واضطرته بذلك إلى الاعتراف بالحماية الفرنسية على بلاده.

احتجت الحكومة العثمانية على ذلك الاحتلال بشدة، لكنها لم تستطع إرسال جيش إلى هناك لمحاربة فرنسا. وكانت الدولة في تلك الفترة بالذات في مواجهة غائلة الأطماع الأوربية في بلادها. لذلك كان دفاع الدولة العثمانية في ظل هذه الظروف أمراً مستحيلاً[٨].

٥ ـ الأطماع الألمانية: (سياسة ألمانيا في التوسع بالطرق السلمية):

لم تكن المستعمرات التي استولت عليها ألمانيا في عهد (بسمارك) صالحة للإسكان، وقد كان عدد سكان ألمانيا قد حقق ارتفاعاً ملحوظاً. لذلك فكّر الألمان في الاتجاه إلى الأناضول العثماني لحل مشكلات ألمانيا الاقتصادية ولا سيما أن القوة الإنتاجية الصناعية الألمانية في تزايد، وتجارة ألمانيا في توسع. وقد: «أصبح مستقبل ألمانيا الاقتصادي مرتبطاً بمقدرات

(٨) قارال جـ ٨ المرجع السابق ص ٨٦ واجيق كوز أوغلو ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

استانبول». وامتدت النظرة الاقتصادية الألمانية بالتالي إلى آسيا الصغرى وحوض دجلة والفرات وسوريا. وتلك امتدادات الأناضول.

لذلك أخذت ألمانيا تتجه إلى صداقة العالم الإسلامي، وفكّر الألمان في إنشاء سكة حديد تربط برلين بالأناضول، وتربط الأناضول بسورية والعراق. وكان الإمبراطور «غليوم الثاني» متحمساً لذلك.

التقى هذا الحماس، برغبة السلطان عبد الحميد في التخلص من السيطرة الغربية المكثفة على الدولة العثمانية، ورغبة السلطان أيضاً في إيجاد نوع من التنافس الدولي يبعد الأطماع الغربية عن بلاده. «لأنه كان يثق بالألمان بقدر ما ينفر من روسيا ويحتقر فرنسا ويخاف إنكلترا». وفي هذا يقول السلطان: «قلتُ وأكرر القول: إن كل مصيبة تلم بنا لا بد أن تكون إنكلترا مصدرها. والفرنسيون لا يحبون الخير البتة. مصيبتي الشخصية كانت على يد الإنكليز. وواقعة مقتل عمي السلطان عبد العزيز كانت بأيادٍ تحركها إنكلترا.. فقد حدثت المأساة على يد «مدحت باشا ورجاله».

بدأ التقارب العثماني الألماني بالميدان الثقافي عام ١٨٨٠م، فقد أرسلت الدولة العثمانية ضباطها للتحصيل العسكري والتدريب الحربي في ألمانيا. ثم بدأت تجارة المواد الحربية الألمانية وبيعها للعثمانيين. ثم حصول (ألفريد كوالا) وهو رجل أعمال ألماني يتحرك باسم «دويتش بانك» وبنك ألماني

آخر على امتياز تشغيل خط سكة حديد «حيدر باشا ـ أزميد» وكذلك امتياز إنشاء سكة حديد أزميد ـ أنقرة.

وزار الإمبراطور (غليوم الثاني) إمبراطور ألمانيا، استانبول عام ١٨٨٩ م. عند زيارة له إلى اليونان. وأكرمه السلطان عبد الحميد إكراماً بالغاً. وأعقب هذا قيام بنوك ألمانية ومراكز تجارية ألمانية في مختلف أرجاء الدولة العثمانية. واستطاعت الحكومة الألمانية إقناع السلطان عبد الحميد بمقترحات المهندس الألماني (فون بريسيل) بإنشاء خطوط حديدية طويلة تربط استانبول بالمدن الكبرى في الأناضول، وهذه بكل من سوريا والعراق والحجاز.

كان تفكير السلطان عبد الحميد في هذا الأمر كالتالي: إن قيام ألمانيا بإنشاء خطوط سكك حديدية طويلة هكذا سيربط ألمانيا بالدولة العثمانية رباطاً قوياً وهذا مما يجعل ألمانيا تقف مساندة للدولة العثمانية في مشاكلها السياسية والعسكرية. ووجود سكك حديدية طويلة في الدولة من شأنه الدفاع عن أطراف الدولة إذا لزم الأمر في سرعة إرسال الجنود ـ في حالة تهديد إنكلترا بعد أن استقرت في مصر ـ للعراق ولسوريا ولسواحل الأناضول. كما أن الحالة الاقتصادية للأهالي في الأماكن التي تمر بها هذه السكك الحديدية ستتحسن وترتفع بسرعة. وسيسهل نقل الإنتاج الزراعي وسيقل سعره. وسيساعد في توطين المهاجرين الذين طردتهم الجيوش الروسية من منطقة البلقان العثمانية وهاجروا إلى الأناضول[٩].

---

(٩) قارال جـ ٨/ ١٧٣ ـ ١٧٦ و ١٨٠.

وقام الألمان بإنشاء خط سكة (أسكيشهر ـ قونيه) وأتموه عام ١٨٩٦ م، ونشط سفراء الدول الغربية في هذا الخصوص، وقدموا طلبات امتياز خط سكة حديد يمتد من قُونْيه إلى بغداد ومن هناك إلى الخليج العربي.

زار الإمبراطور الألماني (غليوم الثاني) استانبول للمرة الثانية في ١٨ أكتوبر عام ١٨٩٨ م وزار القدس، وافتتح فيها كنيسة (لوثر) وزار دمشق وبالتالي مال ميزان التنافس على إنشاء هذا الخط نحو ألمانيا. وكان منح امتياز خط سكة حديد بغداد إلى الألمان من حيث المبدأ في عام ١٨٨٩ م، ووقِّع عام ١٩٠٣ م. ولم يتم نتيجة للظروف الدولية.

* * *

وعلى عادة السلطان عبد الحميد في الحذر في تعامله السياسي، فقد رأى أن الاهتمام بالصداقة العثمانية الألمانية، أمرٌ وإن كان مفيداً اقتصادياً وسياسياً وربما عسكرياً، إلّا أنه لم يدع علاقاته الشخصية بالإمبراطور الألماني تنسيه الوقوف على حياد ظاهر. وفي نفس الوقت، رأى أن يراقب الشركات الألمانية العاملة في هذه الخطوط مراقبة تامة. وأمر سفيره في برلين متابعة انعكاسات هذه الصداقة العثمانية الألمانية. ثم وجد السلطان عبد الحميد أن الأمر كالتالي:

١ ـ إن الشركات الألمانية تعمل على الاستعمار المقنّع، بالطرق السلمية. فإن الشركات الألمانية، قد اكتشفت وجود البترول، وتكتّمت عليه، وأخذت مسار السكة الحديد تبعاً لهذا. «تقرير المخابرات العثمانية».

٢ ـ إن الشركات الألمانية، أرادت أراضي مستملكة على جانبي خط سكة حديد بغداد، حتى تحتاط لنفسها في تملك حقول البترول بعد استخراجه. «تقرير المخابرات العثمانية».

٣ ـ أبلغ سفير الدولة العثمانية في برلين (عام ١٨٩٠ م) الدولة بأن الصحف الألمانية تناولت الحديث عن مسألة قيام الشركات الألمانية بإنشاء مستعمرات ألمانية بطول خط سكة حديد بغداد ومساره في الأناضول.

وكان تعليق السلطان عبد الحميد على ذلك هو:

«أبلغني سفيري في برلين عن تصور القيصر الألماني في تأسيس ساحة نفوذ ألمانية في الأناضول. ليس لديّ أدنى اعتراض على الإفادة من الألمان في تنظيم الاقتصاد العثماني، لكن الصحف الألمانية تتحدث عن قيام مستوطنات ألمانية على جانبي خط سكة حديد بغداد. ما هو الغرض الذي تهدف إليه هذه الصحف؟!»[١٠].

إنه في الأصل لم يكن في نيته التحالف مع الألمان، لكنه كان يريد أن يظهر بمظهر التحالف معهم، لأن هذا سيجعل اتفاقه مع إنكلترا يسيراً، فالاقتراب من الألمان في نظره كان اكتساب الألمان لفرصة الحركة في ساحة تمتد حتى الهند. وهذا لا يرضي الروس، ولا يرضي الإنكليز، وسيجعلهما يقدمان تنازلات، ويتفقان مع الدولة العثمانية[١١].

---

(١٠) قارال جـ ٨/ ١٧٣ ـ ١٧٦ و ١٨٠.

(١١) المذكرات ص ٦٨ و ٦٩.

وبعد أن أدرك الألمـان أن السلطان عبد الحميد قد كشف أطماعهم في الحصول على بترول الأناضول والخليج العربي، قاموا باحتضان أعداء السلطان عبد الحميد، عن طريق تدعيم أعضاء جمعية «الاتحاد والترقي» بالسيطرة على تنظيمات هذه الجمعية في (سالونيك)، وكانت وسيلة الألمان في ذلك المحافل الماسونية. تماماً كما فعل الإنكليز من السيطرة على تشكيلات حركة «الاتحاد والترقي» في مناستر. ومن المدينتين: (سالونيك) و (مناستر) خرج الثوار ليخلعوا السلطان عبد الحميد(١٢).

٦ ـ الأطماع اليونانية: (أطماع اليونان في إقامة دولة بيزنطية عاصمتها استانبول):

انتهت الدولة البيزنطية (= دولة الـروم) بدخـول الإسلام القسطنطينية على يد السلطان محمـد الفاتـح. إلاّ أن البطريركية الأرثـوذكسية في القسـطنطينيـة ـ رغم حسن معاملة الفـاتـح للنصارى ـ قد اتخذت استراتيجية لها عقب الفتح العثماني، قامت على الأسس التالية:

١ ـ العمـل على استمـرار حيـاة البـطريـركيـة الأرثــوذكسيـة بالقسطنطينية وكذلك الكنائس.

٢ ـ قيـام الكنائس بتـربية أتبـاعها على إحيـاء الإمبراطـورية البيزنطية.

٣ ـ إعادة تأسيس الإمبراطورية البيزنطية على حساب ضعف حاكمية العثمانيين.

---

(١٢) المذكرات ص ٦٨ و ٦٩.

وفي كتاب بعنوان «تركيا عام ١٨٥٥» فقرة تقول: إن النصارى الأروام «يؤمنون إيماناً مطلقاً بالنبوءات التي حدثت قبل (٤٠٠ سنة) بأن القسطنطينية (أي استانبول) ستعود إلى الأرثوذكس مرة أخرى».

والكتاب من تأليف F. H. Abucini وصدرت ترجمته التركية عام ١٩٧٧ م.

* * *

أطلق نصارى بيزنطة اسم «ميكالوآيْدِيَا» بمعنى «الرسالة العظمى» على فكرة إحياء الإمبراطورية البيزنطية وإنهاء الوجود العثماني.

* * *

واتّحدت مصالح البطريركية الأرثوذكسية في القسطنطينية، بالمصالح الروسية عندما أخذت روسيا في سياسة الوصول إلى المياه الدافئة. ولوحظ تاريخياً: أنه كلما ضعفت الدولة العثمانية زادت وقويت الصلات بين البطريركية الأرثوذكسية في القسطنطينية وبين موسكو. وهذه البطريركية تسمى «بطريركية الفنار» وكانت ترى في تحالفها مع روسيا استفادة الكنيسة من قوة الروس، لتحقيق هدف الإحياء البيزنطي. وترى روسيا في تحالفها مع الكنيسة فائدة استخدام النصارى التابعين لها في الأناضول والبلقان ضد الدولة العثمانية.

أخذ التحالف الوثيق بين بطريركية (الفنار) وبين (موسكو) ضد العثمانيين شكل حرب لا حدود لها. ومن خصائص هذه

الحرب: استهداف البنية الثقافية للدول العثمانية، وتخريب المؤسسات الإسلامية العثمانية.

* * *

تكشف هذه العلاقة بمخططاتها، وثيقة توصف بأنها «مثيرة للغاية» يفصح عنها الجنرال (أغناتيف) سفير روسيا في استانبول. يقول الجنرال:

«وصلت إلى مقر البطريركية. وأثناء حديثي مع البطريق (برمانوس)، قرأ لي بنفسه مسوّدة خطاب أرسله سلفه البطريق (جريجوريوس) إلى القيصر ـ الروسي ـ الكساندر». في هذا الخطاب، توصيات جديرة جداً بالاهتمام ضد العثمانيين. وهذه التوصيات هي:

«من المستحيل سحق العثمانيين وهدم دولتهم، ذلك لأنهم يتحلون بالصبر البالغ والمقاومة العنيدة. كما أن الكبرياء وعزّة النفس، مسألتان واضحتان في خلقهم. هذه الخصائص الأخلاقية أساسها ارتباطهم بدينهم، ورضاؤهم بالقدر، وطاعتهم لسلطانهم ولقادتهم ولكبارهم».

«لذلك لا بد أولاً من تدمير إحساسهم بالطاعة، وتحطيم روابطهم المعنوية، وإضعاف متانتهم الدينية. وأكثر الطرق اختصاراً لهذا هو: تعويدهم على الفكر الخارجي الذي لا يتواءم مع معنوياتهم. وتعويدهم على التصرفات الخارجة عما تعودوه. وعندما تهتز معنويات العثمانيين ستهتز القوى الأصلية التي تقودهم دوماً إلى النصر. ولهذا السبب لا يكفي الانتصار في

ميادين القتال فقط لتصفية الدولة العثمانية. إن الشيء الذي يمكن فعله هو: إتمام هذا العمل المخرب في بنية العثمانيين دون أن يشعر العثمانيون بذلك..».

يعقّب السفير الروسي في استانبول الجنرال (أغناتيف) على هذه التوصيات بقوله: «ولقد تجلّى تماماً، وبشكل مصيب للغاية، هذا التشخيص، أثناء عملي لدى الدولة العثمانية»[١٣].

* * *

وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، قامت (كاترينا الثانية) إمبراطورة روسيا بتأجيج أماني الأرثوذكس في الدولة العثمانية، لإعادة إمبراطورية بيزنطة. ووقعت روسيا مع النمسا عام ١٧٨٧ م معاهدة «المشروع اليوناني» تنص: «على تقسيم الدولة العثمانية بين روسيا والنمسا». كما نصت معاهدة المشروع اليوناني هذه: «على إقامة إمبراطورية بيزنطة تحت الحماية الروسية على أن تكون القسطنطينية (= استانبول) عاصمتها».

وتشمل دولة الروم المقترحة (وهي دولة بيزنطة) ضمن حدودها، كلاً من بلغاريا ودُوبْرُوجَه (في رومانيا الآن) وتراقيا والمورة ومقدونيا وألبانيا والجبل الأسود. ويُعَيَّن إمبراطوراً على هذه الدولة بشكلها هذا، «الأمير قسطنطين» (المولود عام ١٧٧٩ م) وهو حفيد «كاترينا» إمبراطورة روسيا.

* * *

---

(١٣) قوجه باش، الصراع التركي ـ اليوناني ص ٣٠.

ثم تأسست عام ١٨١٤ م جمعية نصرانية باسم جمعية «إيتريا»، جمعية سرية للعمل ضد الدولة العثمانية، ولم يأت عام ١٨١٨ م، إلا وكان لهذه الجمعية فروع في مختلف أرجاء الدولة العثمانية: سلانيك وطرخاله وتشامليجه والمورة والأفلاق والبغدان والقدس والإسكندرية وجزر بحر إيجه واستانبول وبوخارست. وكان لها فرع أيضاً في موسكو.

وكثّفت هذه الجمعية فعاليتها في الأماكن التي يكثر فيها الروم، وهي شبه جزيرة المورة على وجه أخص. وهدفت الجمعية، إلى: «إنشاء دولة يونانية مستقلة في شبه جزيرة المورة» بدايةً لانطلاق هذه الدولة لتوسعة حدودها على حساب الدولة العثمانية. ويستمر هذا التوسع حتى إحياء إمبراطورية بيزنطة وعاصمتها استانبول.

أيّدت روسيا هذه الجمعية أيضاً، بل انضم لها القناصل الروس في كل من الأفلاق والبغدان والمورة. كما انضم بعض الضباط الروس للجمعية.

وكان أكبر مؤيد للجمعية، في داخل روسيا هو «كابوديستريا» مستشار وزارة الخارجية الروسية، وهو من أصل رومي يوناني، كان اشترك في مؤتمر فيينا عام ١٨١٤ م. وأيّد الأروام اليونانيين في خطاباته في المؤتمر علانية. مما أدى إلى ازدياد فعاليات النصارى الروم الأرثوذكس ضد الدولة العثمانية.

وقررت هذه الجمعية، تفجير تمرد ضد الدولة العثمانية (عام ١٨٢١)، يقوم به الروم. وأثناء هذا التمرد، أرسل بطريق

القسطنطينية (جريجوريوس) رسالة إلى (بطرس) قيصر روسيا يقول له فيها ما يلي:

«عندما علمنا بقراركم إنشاء مدرسة عامة (يقصد بمفهوم الشفرة: الدولة الرومية اليونانية) من أجل نشر العلوم اليونانية (يقصد استقلال اليونان وكانت وقتها تابعة للدولة العثمانية) سعدنا كثيراً».

ووقع هذا الخطاب في يد المخابرات العثمانية، واكتشف العثمانيون بوضوح العلاقة بين البطريق (جريجوريوس) وبين أعضاء جمعية (إيتريا). فقامت السلطات العثمانية بإعدام هذا البطريق على الباب الأوسط للبطريركية في استانبول في ٢٢ إبريل عام ١٨٢١ م. وظل هذا الباب منذ ذلك الحين، وحتى الآن، مغلقاً علامة على حِدَاد البطريركية.

وكان إعدام البطريق ـ كما وصفه بعض المؤرخين الأتراك ـ خطأً سياسياً بالغاً. وقد اتُّخِذَ وسيلة قوية للدعاية ضد الدولة العثمانية في الخارج. وأدى إلى تعاطف أوربا مع النصارى الأرثوذكس في الدولة.

واستمر تمرد الروم هذا، وازداد اشتعاله، وساندت أوربا قضية المتمردين، وأصبحت المسألة «صراعاً بين الإسلام والمسيحية» بتعبير أوربا. وطلب أعضاء جمعية (إيتريا) من نصارى أوربا مساعدة «أحفاد اليونانيين القدماء، معلمي الحضارة الأوربية!» وتأسست في العواصم الأوربية لجان يونانية، تجمع الأموال، وتجهز المتمردين، ويلقي أعضاؤها الخطب. واندفع التجار

الأوربيون لتدعيم المتمردين مادياً، وقام المغامرون من فرنسا وإنكلترا وألمانيا، وكذلك قام بعض العسكريين، بالتوجه إلى المورة لمساعدة المتمردين ضد الدولة العثمانية، حتى إن أكبر شعراء العصر الحديث في أوربا وهو الشاعر الإنكليزي (اللورد بيرون)، هجر حياته الرغدة المترفة في إيطاليا، وترك زوجته التي كان يحبها حبّاً جماً، ووهب حياته للقضية اليونانية ضد العثمانيين.

واستطاع «محمد علي باشا» والي مصر من قِبَل الدولة العثمانية في عام ١٨٢٧ م، إخماد التمرد.

* * *

وينبغي القول هنا بأن اليونانيين، اعتبروا جزيرة كريت جزءاً لا يتجزأ من «الرسالة العظمى» أي إحياء دولة بيزنطة، على حساب تصفية العثمانيين. لذلك قاموا ببث فكرة التمرد في الجزيرة ضد الدولة العثمانية وكانت كريت عثمانية.

* * *

وعقب مؤتمر برلين الذي أعطى اليونان ٨٠٠٠ كم^2 من الأراضي العثمانية، طلبت اليونان من الدولة العثمانية، تعديل حدودها معها. ولم يرغب السلطان عبد الحميد في إعطاء اليونان «شبراً واحداً من الأراضي». فقامت العصابات اليونانية باختراق الحدود العثمانية لكنها دُحرت.

وبعد محاولات من الدول الأوربية، تمّ عقد معاهدة تنظيم

الحدود بين الدولة العثمانية واليونان في ٢٤ مايو عام ١٨٨١ م. على أن تحصل اليونان على ١٣,٤٠٠ كيلومتراً مربعاً و(٢٩٠,٠٠٠) نسمة.

والواقع أنَّ هذا مهارة سياسية من السلطان عبد الحميد إذ إنه لو كان نفذ قرارات مؤتمر برلين في هذا لخسرت الدولة (٨٠٠٠) كيلومتراً مربعاً.

«وأن تنظيم الحدود بالصورة السياسية التي أدارها السلطان عبد الحميد بدون إراقة دماء لمهارة كبرى».

أخذت اليونان بعد ذلك تعمل - في سبيل إقامة إمبراطورية الروم البيزنطية، على حساب الدولة العثمانية - إلى ضمّ كل من كريت وإيبير ومقدونيا إليها، فأعلنت الحرب على الدولة، وداهمت القَوات اليونانية الحدود العثمانية لكنها ارتدّت خائبة.

وحدثت واقعة كان لها شأن كبير في تطور الأحداث، بين الدولة العثمانية واليونان. ففي ٢٦ مارس عام ١٨٩٨ م قام اليونانيون في «اشقودره» بذبح خنزير في الليل وتركوه وهو يدمي في محراب أحد المساجد هناك. وملأوا جدران المسجد برسم الصلبان (جمع صليب). وعندما رأى المسلمون في الصباح هذا، غضبوا وهاجوا وهجموا على مساكن النصارى. وقامت بين الجماعتين المسلمين العثمانيين والنصارى اليونانيين مذابح، تدخلت على إثرها الدول الكبرى. ووجهت هذه الدول في ٤ إبريل (من نفس العام) مذكرة إلى الطرفين للتحذير من الحرب وأن البادىء بالحرب سيكون هو المسؤول. ولم تهتم اليونان

بذلك واجتازت الحدود العثمانية. وعند ذلك أعلنت الدولة العثمانية الحرب على اليونان دفاعاً عن نفسها.

وتولى السلطان عبد الحميد بنفسه قيادة مسألة هذه الحرب. فكلف (أدهم باشا) بقيادة الجيش، وأمره بالقيام بحرب خاطفة، لجعل الدول الكبرى أمام الأمر الواقع. وخلال ثلاثة أسابيع، كانت القوات اليونانية مهزومة على كل الجبهات.

وأخذ الجيش العثماني طريقه إلى (أثينا) عاصمة اليونان بعد انتصار العثمانيين على اليونانيين، في موقعة (دوميقة) في ١٧ مايو ١٨٩٨ م. واستقالت الحكومة اليونانية، وقامت الحكومة الجديدة، بطلب النجدة من قيصر روسيا (نيقولا) ومن كل الدول الأوربية، وطالبتها بالتدخل، لإنقاذ اليونان، وحماية أثينا من العثمانيين. وأرسل القيصر الروسي (نيقولا) برقية إلى السلطان عبد الحميد يهنئه فيها بالانتصار العثماني على اليونان، ويرجوه ألّا تتقدم الجيوش العثمانية في اليونان أكثر من هـذا. وآزرت الدول الأوربية أيضاً اليونان. واستجابت الدولة العثمانية لهذا التوسط الأوربي الروسي بشرط حصولها على تساليا، وعلى عشرة ملايين، كتعويضات حرب. وقال «اللورد سالسبوري» رئيس وزراء بريطانيا: «مستحيل أن نسمح بدخول الهلال في بلد أوربي سبقه الصليب إليه». وبالتالي لم تستطع الدولة العثمانية الحصول على تساليا. وتكتلت الدول الأوربية حتى لا تدفع اليونان تعويضات للحرب. وتمّ لها ذلك بحجة ضعف الميزانية اليونانية. وعن كريت تم الاتفاق الدولي على أن تكون تابعة

للدولة العثمانية، بشرط موافقة «أثينا» على الوالي الذي يعينه السلطان العثماني حاكماً لجزيرة كريت. وانسحبت القوات العثمانية، ووعد الوالي بحماية المسلمين الباقين في الجزيرة.

واستمرت اليونان في أطماعها في اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية، لإحياء الدولة البيزنطية مرة أخرى من ناحية، وطرد العثمانيين من البلقان واستانبول والأناضول. لأن استانبول هي عاصمة الروم في المخطط اليوناني(١٤).

* * *

ولم تسفر هذه الحرب على منفعة مادية للدولة العثمانية. لكنها في مقابل هذا كان للانتصار العثماني تأثيره المعنوي الكبير؛ فقد تلقاه العالم الإسلامي بآمال عريضة. وانهالت على قصر يلديز ـ حيث مقر السلطان عبد الحميد ـ التهاني من زعماء المسلمين في المحيط الهندي والمحيط الباسفيكي، ومن الشعوب الإسلامية في العالم. وقام الخطباء في المساجد والجوامع في أواسط إفريقيا وفي الهند وفي المحيط الأطلسي بشكر الله على هذا النصر الذي حققته «جيوش الخليفة».

إن هذا الانتصار ـ رغم بساطته ـ قد جعل للسلطان عبد الحميد، الذي كان «يجلس في (يلديز) متواضعاً منزوياً» تأثيره المعنوي البالغ على تبعته ورعاياه. وأصبح «وسيلة لكي ينبض العالم الإسلامي الضخم كأنه القلب الواحد».

---

(١٤) قوجه باش، المرجع السابق ص ٥١ و ١٠٠ ـ ١٠٦.

وفي عيد الأضحى الذي أعقب هذا النصر وقف جنباً إلى جنب في مراسم التبريك بالعيد أمام السلطان عبد الحميد، ممثلون عن العالم الإسلامي الذين جاؤوا لتهنئة السلطان بالعيد وبالنصر، من مختلف أرجاء العالم: أمراء من الهند، ومشايخ من بلاد العرب وزعماء قبائل. وقال أحد أمناء السفارة البريطانية في استانبول ـ وقتها ـ في رسالة كتبها لوالده يقول له فيها: «لقد أحدث عيد الأضحى هذا تأثيراً بالغاً في نفسي. لقد أثبت هذا العيد أن السلطان ـ عبد الحميد ـ له مكانة عظيمة، ومقام رفيع، بين المسلمين جميعاً. كما أن محاولات الإساءة إليه فاشلة»[١٥].

* * *

ومما يقال في هذه الحرب التي أوقفت مطامع اليونان إلى حد، على بساطتها: إنها ـ أي الحرب ـ أظهرت النيّات الحقيقية لجماعة «الاتحاد والترقي» صراحة أمام المسلمين فلقد أعلن أعضاؤها: «إن المتمردين ضد الدولة العثمانية إنما هم أبطال الحرية». لكن الرأي العام الإسلامي جاء على لسان أمير الشعراء العرب أحمد شوقي في قصيدته التي هنأ بها السلطان عبد الحميد على انتصاره على اليونانيين بقوله:

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ... وينصر دين الله أيان تضرب[١٦]

---

(١٥) ضيا نور في تاريخ الإسلام تأليف شهبندر زاده أحمد حلمي ص ٧٧٠، استانبول ١٩٨٢.

(١٦) الشوقيات، الجزء الأول ص ٤٢.

البَابُ الثالث

الجَامِعَة الإسْلاميَّة

الوحْدَة الإسْلاميَّة في سياسَة السُّلْطان عَبْد الحَميد الخَارجيَّة

الفَصل الأوّل

مِن المسألة الشَرقيّة إلَى الجامعَة الإسلاميّة

(الدولة العثمانية من اليأس إلى الأمل)

تعرف المسألة الشرقية: «بأنها قضية اتفاق الدول الأوربية وروسيا على إنهاء وجود الدولة العثمانية ـ وهي رأس العالم الإسلامي المُعَبَّر عنه بالشرق ـ وبذلك يتفتت العالم الإسلامي ويكون طواعية للأطماع الغربية خاضعاً للحركة الاستعمارية العالمية».

وبدأت المسألة الشرقية بهذا المعنى حين ضعف آل عثمان، بعد قوة وشموخ وانتشار، وصاحب هذا الضعف، نهضة الدول الأوربية وروسيا، وأخذها بالعلوم الحديثة وقيام هذه الدول بالتحالف ضد العثمانيين.

* * *

أما الجامعة الإسلامية، فلم تظهر في معترك السياسة العالمية، إلا في عهد السلطان عبد الحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السلطان عبد الحميد عرش الدولة العثمانية عام ١٨٧٦ م. ووجد

أن السياسة في دولته إنما يقوم بالتخطيط لها وتنفيذها، وزراء يأخذون مثلهم الأعلى من أوربا. وقد آمنوا بفكرها، وجدّوا في السير على منوالها. وقام هؤلاء في أوائل أيام سلطنة السلطان عبد الحميد، بالزج بالبلاد العثمانية ـ وهي على ضعف ظاهر ـ إلى الحرب ضد روسيا ـ القوية قوة ظاهرة ـ ولم تتح للسلطان فرصة المعارضة. فنال البلاد العثمانية من الأذى ما أسهم في تأخرها، زيادة على تأخرها السابق. فانتهز السلطان عبد الحميد فرصة التقاط أنفاسه، حاكماً جديداً، وجرّد هؤلاء المتأثرين بالفكر الأوربي من سلطاتهم، وتولى هو قيادة البلاد، قيادة حازمة، وأحسن التعامل السياسي في المعترك العالمي، بحيث جعل البلاد الأوربية التي تولت حماية اليونان، تقف موقف الحياد في النزاع العثماني اليوناني، وأدار السلطان بنفسه الحرب العثمانية اليونانية ـ على صغرها ـ فانتصرت القوات العثمانية انتصاراً باهراً، فهرولت الوفود الإسلامية من مختلف بقاع الأرض، لتهنئة السلطان بالانتصار، وقام شعراء المسلمين في مختلف بلاد الإسلام بنظم القصائد في مدح «خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني». وشكل السوريون اللجان لجمع التبرعات ـ أثناء هذه الحرب ـ لمساعدة الدولة العثمانية. كما شكّلوا لجان الهلال الأحمر، لمعالجة جرحى هذه الحرب، ومواساة أهلها. وأقام مسلمو شمال إفريقيا الأفراح ابتهاجاً بانتصار الجيوش العثمانية على اليونان، رغم معارضة سلطات الاحتلال الفرنسية لذلك. ووصفت هذه السلطات فرحة المسلمين في شمال إفريقيا لهذا الانتصار العثماني بأنه «ناتج عن التعصب

الديني الأعمى»[1]. وكوّن مسلمو الهند اللجان لجمع التبرعات وإرسال المساعدات المالية والطبية للدولة العثمانية، لمساندتها في حربها مع اليونان، وإرسال ممثلين عن الجمعية الإسلامية في حيدر آباد الدكن، إلى جريدة المؤيد المصرية يقولون: «إننا مسلمون وجلالة السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين الأعظم. فنحن إذن من رعيته. لذلك نرى من الواجب علينا: أن نلبي دعوته ونؤدي ـ مثلنا في ذلك مثل العثمانيين ـ المعونة العسكرية التي فرضها جلالة السلطان ليقوي بها جيشه الحامي لعرش الخلافة المقدسة»[2].

هذا الشعور الإسلامي العام، والتربية الشخصية للسلطان عبد الحميد، وتفكيره المعاكس للغرب، جعل السلطان يدرك، أنه من الممكن إيجاد بديل للسياسة العثمانية، ووجد هذا البديل: «الاتجاه إلى داخل الأمة لإصلاح الدولة» عوضاً عن «الاتجاه إلى الخارج للإصلاح» فأخذ في سياسته القائمة: على

---

(١) إحسان ثريا صيرما، وثيقة عن فعاليات السلطان عبد الحميد الإسلامية ضد الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا، مجلة معهد التاريخ، استانبول ١٩٧٧، مُسْتَلَّة، ص ١٨٠.

(٢) أحمد فهد الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٠٩ م، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور صلاح العقاد والدكتور محمد حرب، مجازة من جامعة عين شمس عام ١٩٨٣ م، الرسالة ص ٢٩٠ عن جريدة المؤيد العدد ٣٠٨٦ في ١٨٩٧/١/٢٧ م مقال بعنوان «الدعوة إلى مساعدة الخليفة الأعظم». وسيشار إلى هذا المرجع الذي حوى نُقُولاً مفيدة، باسم الشوابكة.

تحدي الأطماع الغربية في بلاد المسلمين بتكتيل المسلمين على كلمة واحدة وشعور واحد.

لم يكن السلطان عبد الحميد يهدف إلى إقامة رابطة سياسية تضم كل بلاد المسلمين، في وحدة سياسية واحدة. وإنما أراد جمع شعور المسلمين في حركة واحدة، تؤكد وحدتهم وتقويهم في مواجهة أعدائهم. وبذلك:

- يقف المثقفون ثقافة غربية، والذين توغلوا في المراكز الإدارية والسياسية الحساسة، في أجهزة الدول الإسلامية عموماً، وفي أجهزة الدولة العثمانية خصوصاً، عند حدهم، عندما يجدون أن هناك سدّاً إسلامياً ضخماً وقوياً يقف أمامهم.
- تقف الدول الاستعمارية الأوربية وروسيا، عند حدها عندما تجد أن المسلمين، قد تكتلوا في صف واحد، وقد فطنوا إلى أطماعهم الاستعمارية فطنةً بمنظار جديد، هو منظار «الوحدة الإسلامية».
- إثبات أن المسلمين يمكن أن يكوّنوا قوة سياسية عالمية، يحسب حسابها في مواجهة الغزو الثقافي والفكري والعقدي الروسي - الأوربي النصراني.
- تأخذ الوحدة الإسلامية الجديدة دورها في التأثير على السياسة العالمية.
- تستعيد الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة الإسلامية قوتها - بعد ضعف تاريخي - وبذلك يمكن إعادة تقويتها، وتجهيزها بالأجهزة العلمية الحديثة، في الميادين كافة وبذلك تستعيد

هيبتها، وتكون درساً تاريخياً يقول: «إن العمل على تقوية الكيان السياسي والاجتماعي الإسلامي، أفضل من إلقائه أرضاً، وتكوين كيان غريب فكرياً واجتماعياً على نفس الأرض».

- إحياء منصب الخلافة، ليكون أداة قوية، وليس صورياً كما حدث لفترة. وبذلك لا يكون السلطان وحده فقط هو الذي يقف في مواجهة أطماع الغرب وعملائه في الداخل، وإنما هي وحدة شعورية بين شعوب المسلمين جميعاً. يكون هو الرمز والموجّه والموحّد.

وإلى هذا أشار المؤرخ البريطاني «آرنولد توينبي» في قوله: «إن السلطان عبد الحميد، كان يهدف من سياسته الإسلامية، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين»(٣).

* * *

(٣) إحسان ثريا صيرما، دور الطرق الصوفية في سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الخارجية، مجلة الإسلام، أنقرة نوفمبر ١٩٨٤ ص ٤٠ - ٤٣. انظر في ذلك أيضاً: محمد حرب؛ المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحركة حزب السلامة في تركيا، بحث في ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر بالبحرين عام ١٩٨٥، ص ٤٤٢.

الفصل الثاني

وسائل السلطان عبد الحميد لتحقيق الجامعة الإسلامية

استخدم السلطان عبد الحميد، لتحقيق الجامعة الإسلامية، كل الإمكانات المتاحة في ذلك الوقت، من اتخاذ الدعاة من مختلف جنسيات العالم الإسلامي، من العلماء والمبرِّزين في مجالات السياسة، والدعاة الذين يمكن أن يذهبوا إلى أرجاء العالم الإسلامي المختلفة، للالتقاء بالشعوب الإسلامية وفهم ما عندهم وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السلطان الخليفة ونشر العلوم الإسلامية، ومراكز الدراسات الإسلامية، في الداخل والخارج، وطبع الكتب الإسلامية الأساسية، ومحاولة اتخاذ اللغة العربية لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية، لغة للدولة أو ما يسمى بالتعبير المعاصر «تعريب» الدولة العثمانية، والعناية بالمساجد والجوامع من تجديد وترميم وبناء الجديد منها، والقيام بحملات تبرع لإحياء المساجد في العالم، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية، واستمالة زعماء القبائل العربية، وإنشاء مدرسة في عاصمة الخلافة، لتعليم أولاد رؤساء العشائر

والقبائل، وتدريبهم على الإدارة، واستمالة شيوخ الطرق الصوفية، والاستفادة من الصحافة الإسلامية في الدعاية للجامعة الإسلامية، واتخاذ بعض الصحف وسيلة للدعاية لهذه الجامعة، والعمل على تطوير النهضة العلمية والتقنية في الدولة العثمانية، وتحديث الدولة فيما هو ضروري.

ويمكن تفصيل ذلك في الآتي:

أ ـ الدعاة:

وكانوا كثيرين نقتصر هنا على إيراد الشخصيات الأكثر بروزاً، على أساس تقديم نماذج قيادية، على أساس تقسيم جغرافي فنقول:

١ ـ من أفغانستان: السيد جمال الدين الأفغاني:

تعتبر شخصية السيد جمال الدين الأفغاني شخصية غريبة الأطوار، فهو قوي الشخصية، لا يخشى في الحق لومة لائم، الحق كما يراه. شخصية قيادية، يدعو إلى الوحدة الإسلامية، وترابط المسلمين، ووقوفهم وقفة رجل واحد. يستخدم كل ما يستطيع استخدامه ـ من أشخاص ومؤسسات وأفكار ـ لتحقيق أهدافه، في الوحدة الإسلامية. يمكن أن يوصف بالثورية، أو بمعنى التعجل في تحقيق أهدافه. أصاب شهرة واسعة في كل أرجاء العالم الإسلامي، شهرة لم يصبها أحد في مثل وضعه. يستبعد وسائل الإصلاحات الجزئية، كإصلاح الإدارة فقط، أو إصلاح التعليم فقط، فوسائل الإصلاح الجزئية «لم تعمل على

تحسين أحوال هذه الدول ـ الإسلامية ـ ولم تسهم في حل مشاكلها. كما لم تمكنها من الوقوف في وجه أعدائها».

وعند السيد جمال الدين الأفغاني: أن الوسيلة في نهضة العالم الإسلامي إنما تنحصر في «إنهاض دولة إسلامية من حالة ضعفها، وتنبيهها للقيام على شؤونها وإيصالها إلى مصاف الدول القوية».

ولم يكن غير الدولة العثمانية، دولة إسلامية بأوصاف جمال الدين[1].

* * *

ويرى الأفغاني، ضرورة أن تأخذ الدولة العثمانية سياسة اللامركزية، وتكون ولاياتها عبارة عن كيانات مستقلة، استقلالاً ذاتياً، لا ترتبط باستانبول إلّا بالمسائل الهامة فقط، مكونة بذلك دولة اتحادية. ثم تنضم إليها بعد ذلك كافة الممالك الإسلامية الأخرى، كإيران وأفغانستان والهند.

ويرى الأفغاني أيضاً، أنه يمكن أن يكتفي المسلمون باتحاد

---

(١) عبد الرحمٰن الرافعي، جمال الدين ص ١٧٧ و ١٧٨ ومحمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٧٣؛ وأحمد أمين، زعماء الإصلاح ص ٨٩؛ وفرنو «يقظة العالم الإسلامي» ترجمة بهيج شعبان ص ١٠٧؛ ومحمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٧٣؛ والرافعي، جمال الدين ص ٤٨ والمخزومي ص ٢٤؛ وميرزا لطف الله خان ص ٧١ والمخزومي أيضاً ص ١٨، وأحمد شفيق مذكراتي في نصف قرن جـ ١ ص ١٠٩؛ على التوالي نقلاً عن الشوابكة ١٣٣ وما بعدها.

الاتجاه والهدف والشعور، دون أي تفكير في وحدة سياسية، تنتظم كافة دولهم وحكوماتهم[٢].

ويبدو أن تراجع الأفغاني عن مشروعه الكبير في الدولة الاتحادية الإسلامية، والاكتفاء بتوحيد وجهة العالم الإسلامي، قد حدث بعد أن قابل الأفغاني السلطان عبد الحميد في استانبول، وعرض عليه مشروعه، فاكتشف السلطان أن الأفغاني كان نظرياً في تفكيره، ولم يتعمق في فهم الوضع السياسي والفكري في بلاد المسلمين وقتها.

* * *

لم يتخذ الأفغاني في مجال دعوته للوحدة الإسلامية برنامجاً متكاملاً، محدد المراحل، واضح الأهداف. بل إنه كان متعجلاً، يريد أن يرى أثر نجاحه وثمرة غراسه في حياته. وقد أوجز المفكر الفرنسي «فرنو» في كتابه «يقظة العالم الإسلامي» حركة الأفغاني بقوله: «قد أيقظ النفوس أكثر مما دلّها على طرق جديدة»[٣].

* * *

اتخذ الأفغاني في سبيل نشر أفكاره الخاصة بتوحيد المسلمين تحت راية واحدة، الآتي:

١ ـ حركته الشخصية: من وقوفه خطيباً، ولقاءاته بالزعماء والملوك، وإعداد الخطباء وكبار المثقفين المسلمين، مثل (عبد الله النديم) في القاهرة و(محمد عاكف) في استانبول.

(٢ و٣) المصدر السابق.

٢ ـ **الكتابة في الصحف**: فقد أنشأ جريدة (العروة الوثقى) وأصدرها في باريس، بمساعدة من تلميذه الشيخ (محمد عبده) للدفاع عن قضايا العالم الإسلامي، و«تنبيه الشرقيين» إلى ما فرّطوا فيه من واجبات، أدّت إلى سقوط العالم الإسلامي وضعفه، وبيان الطرق التي يجب أن يتّبعها المسلمون ـ في رأي الأفغاني ـ لتدارك ما فاتهم. وإيقاظ الهمم وإيجاد رابطة بين الأمم الغربية والشرقية، وتلمس المنافع المشتركة بينها: «تقوية العلاقات العمومية بين الأمم، وتتلمس المنافع المشتركة بينها، كما تؤيد ـ جريدة العروة الوثقى ـ السياسات القويمة التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين»(٤).

٣ ـ **إنشاء الجمعيات والمؤسسات، واستخدامها وسيلة لنشر أفكاره**: وهذه في «تكتيك» الأفغاني ـ كما يبدو ـ لا يُنظر فيها إلى التفرقة المذهبية، أو السياسية أو العقدية.

أما عن الجمعيات والمؤسسات التي أخضعها الأفغاني لخدمة القضية فهي على أنواع:

الأول: جمعية «العروة الوثقى»:

وهي جمعية إسلامية عالمية. تقوم على أساس إسلامي بحت. تضم جماعة من كبار الشخصيات الإسلامية. وكان على العضو فيها «بذل كل ما في وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية، وألّا يقدم إلّا ما قدمه الدين، وألّا يؤخر إلا ما أخّره الدين، وألّا يسعى قدماً واحدة يتوهم فيها ضرراً يعدو على الدين جزئياً أو كلياً»(٥).

(٤ و ٥) المصدر السابق.

وقامت لهذه الجمعية فروع، في شمال إفريقيا ومصر والهند وغيرها من أقطار المشرق الإسلامي. وهي جمعية يقول من أرخوا للأفغاني: إنها سرية في تنظيماتها وأشخاصها وعلاقاتها، شأنها شأن كل التنظيمات التي أنشأها الأفغاني أو أشرف عليها[٦].

الثاني: جمعية «تنظيم الحزب الوطني»:

وهو قائم على أساس وطني قومي بحت. ويقول (ميرزا لطف الله خان): «إن الأفغاني أقدم في مصر على إنشاء هذا الحزب، الذي التف حوله الشباب، وقد افتتح الأفغاني ندوة الحزب الأولى التي ضمت ثلاثة ملايين من الشباب المصري». والحزب أنشىء في مصر عام ١٨٧٩ م.

ويعلق أحد الباحثين المسلمين على ذلك بقوله: «ومن الواضح أن في هذا الرقم مبالغة كبيرة، وقد امتدت هذه المبالغة والتهويل لتشمل ما قيل عن إنجازات هذا الحزب وأعماله الخيالية»[٧].

وامتدح «اللورد كرومر» ـ المعتمد البريطاني في مصر ـ صنيع الأفغاني في إنشاء الحزب الوطني قائلاً: «إن الحزب الوطني هو أوضح مظهر لنهضة العرب منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان»[٨].

الثالث: محفل الشرق:

وهو محفل ماسوني تابع لمحفل الشرق الفرنسي. وكان

(٦ و ٧ و ٨) المصدر السابق.

الأفغاني قد اتخذ من انضمامه للماسونية وسيلة لتحقيق أهدافه. فانضم أولاً إلى المحفل الماسوني في القاهرة عام ١٨٧٨ م. وقال بصدد ذلك: «وأول ما شوّقني في بناية الأحرار (يقصد الماسونية) عنوان كبير خطير - حرية وإخاء ومساواة - ومنفعة الإنسان وسعي وراء دك صروح الظلم وتشييد معالم العدل المطلق»[٩].

ولما تبين للأفغاني عقم الأساليب التي يتبعها هذا المحفل وقصوره عن تحقيق الأهداف التي يرمي إليها، تركه الأفغاني - وكان محفل القاهرة هذا يتبع المحفل الإسكتلندي البريطاني - لينشىء محفلاً آخر تابعاً لمحفل الشرق الفرنسي ضمّ إليه تلامذته والمعجبين به. وبلغ عدد المشتركين فيه ثلاثمائة. وكان من بين المنتمين إليه ولي العهد «محمد توفيق» الذي أصبح والي مصر بعد ذلك[١٠].

الرابع: جمعية إيران الفتاة:

وهي جمعية من البابيين الإيرانيين، الذين فروا من إيران بعد سلسلة من أحداث الشغب والإرهاب التي اقترفوها في بلادهم إيران عام ١٨٥٠ م. ومؤسس هذه الحركة البابية هو «محمد علي» رئيس مذهب الشيخية الباطنية، الذي أُعدم في ٨ يوليو عام ١٨٥٠ م، مع أحد مريديه في تبريز، وفزع زعماء طائفة البابيين إلى بغداد، فراراً بأنفسهم من العقاب وعلى رأسهم «صبح الأزل» وأخوه «بهاء الله». وعلى ذلك طلبت الحكومة الفارسية

(٩ و ١٠) المصدر السابق.

إلى الباب العالي، أن ينقلهم إلى مكان أبعد، في داخل الدولة العثمانية وهكذا حُملوا في صيف سنة ١٨٦٤ م إلى استانبول، ثم نقلوا إلى أدرنة، وهناك ادعى «بهاء الله» أنه المظهر الأوّل للإرادة الإلّهية كما قال بها الباب «مؤسس الحركة». عندئذ نشب الخلاف بينه وبين أخيه الأكبر، بعد أن رفض هذا وحزبه الاعتراف بدعوة «بهاء الله». وقام نزاع دامٍ بين الفريقين، تدخّل على أثره الباب العالي (الحكومة العثمانية)، فنفى بهاء الله وأتباعه إلى عكا، ونفى صبح الأزل وأتباعه إلى قبرص. وهكذا عاش البابيون والبهائيون مشتتين منفيين في الدولة العثمانية[١١].

وبعد أن قام السلطان عبد الحميد بتوجيه دعوة إلى السيد جمال الدين الأفغاني عام ١٨٩٢ م لزيارة استانبول، أقام الأفغاني في قصر خصصته له الحكومة العثمانية في حي شيشلي في العاصمة العثمانية، وفيها قام الأفغاني بنشاط متشعب في سبيل دعوته ومن هذا النشاط أنه كان بمثابة «مرجع ومستشار» للبابيين[١٢]..

قام السيد جمال الدين الأفغاني بتنظيم جمعية لهؤلاء البابيين في استانبول أسماها جمعية «إيران الفتاة» كما أرسل بعضاً منهم سراً إلى إيران للقيام بالدعاية ضد الحكم في إيران. وكانت مجموعة من هؤلاء البابيين تعتاش على عملية نقل مطبوعات «تركيا الفتاة» و«الاتحاد والترقي» ـ وهي مطبوعات ممنوعة من

---

(١١) بروكلمان، المرجع السابق ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦.

(١٢) شريف ماردين ص ٥٥.

قبل السلطات العثمانية - من أوربا لتوزيعها على أعضاء «الاتحاد والترقي» في داخل البلاد العثمانية كما كان هذا القسم من البابيين يقوم بطباعة الأعمال الإعلامية والأدبية التي يكتبها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد المخالفة للنظام العثماني(١٣).

ويذكر «إبراهيم تيمو» مؤسس جمعية «الاتحاد والترقي» أن «رضا العجمي» - تلميذ جمال الدين الأفغاني وقاتل شاه إيران الذي قال له عند قتله له خذها بيد جمال الدين - كان يمدّه في استانبول بالصحف الممنوعة، التي تصدرها معارضة عبد الحميد في أوربا وتدخل البلاد العثمانية خلسة(١٤).

والجدير بالذكر أن الأفغاني أقام رابطة بين جماعتي إيران الفتاة وبين تركيا الفتاة في البلاد العثمانية وأوربا. وغير معروف حتى الآن مقررات جمعية إيران الفتاة في استانبول - ويسميها المؤرخ العثماني «أبو الضيا توفيق» باسم الشركة الإيرانية - ولا يعلم أحد أعمالها. ويبدو أنها سارت على خطة الأفغاني في التكتم(١٥).

* * *

---

(١٣) شريف ماردين ص ٥٥.

(١٤) إبراهيم تيمو؛ مذكرات إبراهيم تيمو مؤسس الاتحاد والترقي (رومانيا ١٩٣٩) واستانبول ١٩٨٧ ص ٥٩.

(١٥) الشوابكة ص ١٣٤؛ ومصطفى كامل باشا، المسألة الشرقية جـ ١ ص ٢٨؛ وكتاب صادق آل بايراق بعنوانه التركي «أفغاني يه ردِّيه»، أي الرد على الأفغاني وهو «السيوف القواطع» إنما بحروف لاتينية؛ وجريدة اللواء في ٥ مارس عام ١٩٠٠؛ ومصطفى كامل المسألة الشرقية جـ ١ =

وُفِّق الأفغاني في انتقاء شخصيات شابة من مختلف البلاد التي يحل بها أو من الذين يعجبون به، كان يهتم بهم ويعنى بتربيتهم، لكي يأخذوا دورهم مستقبلاً في بناء الأمة الإسلامية. وكان ـ كعادته ـ محايداً في انتقائه لمن يقربهم منه، ذلك أن الهدف النهائي هو الأساس في حركته. على ذلك اختار من استانبول شاباً أصبح فيما بعد رائد التيار الإسلامي في تركيا، وهو الداعية الإسلامي وشاعر الإسلام «محمد عاكف». كما انتقى الأفغاني أيضاً ومن استانبول الشاعر «محمد أمين» وبث الأفغاني فيه ثوريته وأصبح محمد أمين هذا هو الشاعر القومي الرائد في تركيا، والذي جمع في أشعاره بين القومية ـ وجعل لها المقام الأول ـ وبين الإسلام. وتأثير جمال الدين الأفغاني في فكر الاتحاد والترقي «القومي» إنما جاء إلى الاتحاديين عن طريق زميلهم محمد أمين.

ومن تلامذة الأفغاني الذين اختارهم من استانبول الحقوقي النابه «محمد سيد أفندي» الذي أصبح ـ فيما بعد ـ محمد سيد بك، القانوني التركي البارز، صاحب كتاب «الخلافة: ماهيتها الشرعية» وصدر في استانبول عام ١٩٢٤. وهذا الكتاب عبارة عن خطبته في البرلمان التركي ـ في عهد أتاتورك ـ وقدم «محمد سيد بك» فيها الصيغة القانونية لموجبات إلغاء الخلافة

= ص ٢٢٦؛ ومجلة العالم الإسلامي (مصر) العدد ٩٤ في يناير ١٩٠٧؛ ومصطفى كامل أيضاً جـ ١ ص ٥: نقلاً عن الشوابكة، بالتوالي، صفحة ١٤٦ (الرسالة) وما بعدها.

الإسلامية، وقد ألغيت. وكان محمد سيد يرى الفصل بين الالتزام الشخصي بالإسلام وبين الشريعة الإسلامية.

ومن تلامذة الأفغاني من مصر الشيخ الإمام محمد عبده والزعيم (سعد زغلول) قائد ثورة مصر عام ١٩١٩ م تحت شعار «الدين للّه والوطن للجميع» ووحّد المصريين مسلمين وأقباطاً ضد الإنكليز. والجدير بالذكر أن سعد زغلول هو مؤسس «حزب الوفد» في مصر أول حزب يفصل بين الدين والدولة وحفز المصريين مسلمين ونصارى للتكتل لمقاومة العدو الأجنبي وهو الإنكليز.

* * *

أيّد السيد جمال الدين الأفغاني، دعوة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية. وقدّم مشروعات أكبر بكثير من طموح السلطان. ولم يكن السلطان يأمل في أكثر من وحدة هدف بين الشعوب الإسلامية، ووحدة حركة بينها. وهي وحدة شعورية عملية، في نفس الوقت، تكون الخلافة فيها ذات هيبة وقوة.

لكن الأفغاني عرض على السلطان مشروعاً، يرمي إلى توحيد أهل السنّة مع الشيعة. وكانت نظرة السلطان عبد الحميد لا ترمي في هذا الصدد أكثر من توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمي.

واستفاد السلطان عبد الحميد كثيراً من الأفغاني، في الدعاية إلى الجامعة الإسلامية، رغم الاختلاف الواضح بين فكر السلطان وفكر الأفغاني.

ومن أسباب الاختلاف:

١ - إيمان الأفغاني بقضية وحدة المسلمين، وتأييده في نفس الوقت للثوّار ضد السلطان عبد الحميد، من القوميين الأتراك والعثمانيين عامة.

٢ - دعوة الأفغاني لوحدة الشعوب الإسلامية، بحيث تكون كالبنيان الواحد، وبقلب واحد، في مواجهة الدول الأوربية الرامية إلى تقسيم الدولة العثمانية العاملة على انهيارها، وفي نفس الوقت، لم يتعرض الأفغاني للاستعمار الفرنسي، ولو بكلمة تنديد. في وقت احتاج فيه السلطان عبد الحميد إلى مقاومة الفرنسيين في شمال إفريقيا[١٦].

٣ - تنديد السيد جمال الديـن بالاستعمار الإنكليزي في حين يذكر السلطان عبد الحميد أن المخابرات العثمانية، حصلت على خطة أُعدَّت في وزارة الخارجية الإنكليزية، واشترك فيها السيد جمال الدين الأفغاني وبلنت الإنكليزي وتقضي هذه الخطة بإقصاء الخلافة عن السلطان عبد الحميد وعن العثمانيين عموماً.

و «بلنت» هذا سياسي إنكليزي يعمل في وزارة الخارجية الإنكليزية، ومؤلف كتاب «مستقبل الإسلام» ودعا فيه صراحة إلى العمل على نزع الخلافة من العثمانيين، وتقليدها للعرب. وقد ردّ مصطفى كامل باشا زعيم الحركة الوطنية في مصر على «بلنت» في كتـاب مصطفى كامل باشـا المشهور «المسـألة الشرقية» قائلاً:

---

(١٦) المصدر السابق.

«وبالجملة فإن حضرة مؤلف كتاب مستقبل الإسلام يرى ـ وما هو إلّا مترجم عن آمال بني جنسه ـ أن الأليق بالإسلام أن ينصّب إنكلترا دولة له بل إن الخليفة يجب أن يكون إنكليزياً»[١٧].

٤ ـ رغم الأطماع الروسية والحروب الروسية، ضدّ الدولة العثمانية واقتطاع الروس لأجزاء من الأراضي العثمانية، فقد كان موقف السيد جمال الدين الأفغاني من مبدأ التوسع الروسي غريباً على مفهوم الجامعة الإسلامية، لأنه يعترف بما للروس من مصالح حيوية واستراتيجية في الهند، تدفعهم لاحتلالها. وأن ليس لدى الأفغاني اعتراض على هذا الاحتلال إذا حدث، بل ينصح الروس باتباع أسلم السبل وأسهلها لتنفيذه، وذلك بأن يستعينوا بدولة فارس، وبلاد الأفغان، لفتح أبواب الهند، شريطة أن تساهمهما في الغنيمة وتشركهما في المنفعة.

٥ ـ الخلاف العقدي الذي ظهر بين العلماء في استانبول وبين السيد جمال الدين الأفغاني وظهور كتاب الشيخ «خليل فوزي الفيليباوي» «السيوف القواطع» للرد على عقيدة الأفغاني. وسكوت الأفغاني على هذا، وعدم دفاعه عن نفسه. والكتاب باللغة العربية، ومترجم وقتها إلى اللغة التركية العثمانية.

٦ ـ ميل السلطان عبد الحميد، إلى تركيز كل السلطات في يده بعد أن ذاق الأمرّين من وزرائه وضباط جيشه وصدوره العظام

---

(١٧) المصدر السابق.

المتأثرين بالفكر الغربي، والذين هدفوا إلى إقامة ديمقراطية أوربية، تضم مجلساً منتخباً يمثل كل شعوب الدولة العثمانية، ومعارضة السلطان عبد الحميد لهذا بحجة أن عدد النواب المسلمين سيكون حوالي نصف العدد الكلي للبرلمان. في حين أن السيد جمال الدين الأفغاني يميل إلى الديمقراطية، وعدم تركيز السلطات في يد شخص واحد بعينه، وميل الأفغاني إلى الحرية في التعبير عن الرأي.

٢ ـ من مصر: مصطفى كامل باشا:

علم السلطان عبد الحميد، وهو يدعو إلى الجامعة الإسلامية، أن بمصر شاباً نابغة هو «مصطفى كامل»، حقوقي مصري متخرج من جامعة (تولوز) في فرنسا قبل بلوغه العشرين من عمره، فصيحاً ساحر البيان، انصرف إلى مقاومة الاحتلال الإنكليزي لمصر، بخطبه ومقالاته وكتبه ويميل إلى الجامعة الإسلامية.

أرسل السلطان عبد الحميد دعوة إلى مصطفى كامل، لزيارة استانبول فلبّى مصطفى كامل الدعوة، عقب تخرجه بسنتين اثنتين، أي عندما كان مصطفى كامل في الثانية والعشرين من عمره.

أعقب السلطان هذه الدعوة، بدعوة ثانية، فلبّاها مصطفى كامل (في ٣٠ يونيو ١٨٩٦ م) وزيارة مصطفى كامل الثالثة لاستانبول كانت بعد ذلك بثلاث سنوات (٢٥ مايو ١٨٩٩ م). وفيها أنعم عليه السلطان عبد الحميد برتبة (متماين). وفي نفس

عام هذه الزيارة ـ أي في ١٨٩٩ م ـ وفي شهر أغسطس منه أنعم عليه السلطان بالرتبة (الثانية). وفي ١٨ سبتمبر عـام ١٩٠٠ م وأثناء زيارة لمصطفى كامـل لاستانبـول أنعم عليه السلطان عبد الحميد بالنيشان المجيدي الثالث. وفي آخر نفس هذا العام عاد مصطفى كامل إلى استانبول فأنعم عليه السلطان عبد الحميد بالوسام المجيدي الثاني. أمّا في عام ١٩٠٤ م فقد بدّل السلطان بعد إعجاب شديد بحماسة مصطفى كامل للجامعة الإسلامية، رتبته إلى «مير ميران».

* * *

أما فكر مصطفى كامل داعية الجامعة الإسلامية، فقد كان كالتالي:

إن السلطان عبد الحميد، حكيم وقدير في السياسة، وإنه يعمل عملاً دؤوباً في سبيل أن يعيد للمسلمين سابق مجدهم وعزتهم ووحدتهم.

وإن بعض السياسيين البريطانيين أمثال (بلنت) يتحاملون على السلطان عبد الحميد، وسبب هذا راجع إلى ما يبديه السلطان من ميل شديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية، وتعميق سياسة الجامعة الإسلامية بينهم، وهو أمر يحول بين الإنكليز وبين ما يطمحون إليه من إيجاد الشقاق بين المسلمين وخروجهم على السلطنة العثمانية.

ويشهد مصطفى كامل أنه «أول من يشهد أمام الله، وأمام

الناس، أنه ـ السلطان عبد الحميد ـ سيد الحكماء، وقدوة الساسة، وقادة الأمم».

ويعتقد مصطفى كامل، أن السلطان عبد الحميد «أشد حناناً على مصر من أحب أبنائها لها وأصدقهم نحوها. وأن أسمى رغائبه أن يرى المسلمين في رفعة وسؤدد مجتمعين حول لواء الخلافة»(١٨).

ويرى مصطفى كامل أن «المصاعب تحيط بالدولة العثمانية من كل جانب، وأعداؤها يدسون لها الدسائس من كافة أنحائها، والدول كلها متحدة ضدها».

ولذلك «يبذل السلطان عبد الحميد أقصى جهده في تنظيم الأمور وإصلاح الأحوال ودفع المصائب ودرء الأخطار»(١٩).

ويقول مصطفى كامل عن حبّ بلاده مصر، وأهله المصريين، وحبّه هو للدولة العثمانية، رائدة حركة الجامعة الإسلامية، يقول: «تسمعون من يقول: ما بال المصريين يحبون الدولة العثمانية، ويتفانون في نفعها، ولا يألون جهداً في إعلان ذلك الحبّ؟ إننا نحب الدولة العثمانية، لأننا قبل كل شيء نريد أن نرى دولة شرقية تصدر منها الأنوار إلى كل أمة شرقية، نحبّها لأننا بصفتنا مسلمين، نرى أنها تحمي المسلمين في الشرق، وتحفظ البلاد الطاهرة المقدسة.

فمملكة الخلافة الإسلامية، هي في الحقيقة مملكتنا، وقبلتنا

(١٨ و ١٩) المصدر السابق.

التي نلجأ إليها، ونحوها نتجه، وإذا قصرنا في واجب نحوها، نكون بلا ريب قد قصّرنا في أعظم واجب»[٢٠].

* * *

واعتبر مصطفى كامل المسألة الشرقية، مسألة دينية، قائمة على أساس معاداة أوربا المسيحية للعالم الإسلامي، والدولة العثمانية بصفة خاصة. وقال: إن بقاء الدولة العثمانية، ليس ضرورياً للمصريين والمسلمين فقط، بل هو ضروري للنوع البشري عامة. وإن بقاء سلطانها فيه سلامة أمم الغرب والشرق.

* * *

وكان مصطفى كامل يعدُّ الدعوة إلى نقل الخلافة من الدولة العثمانية ـ وهذا يعني الدعوة إلى خلافة عربية ـ يعدها دسيسة بريطانية، كان قصد الإنكليز منها أن يكون عِقْد الخلافة في جيدهم لا في صدر الإسلام.

* * *

لقد استخدم مصطفى كامل قدرته الخطابية، وقلمه في الدعاية للجامعة الإسلامية، وتضامن المسلمين، ومحاولة درء الأخطار الغربية عن العالم الإسلامي. واستطاع أن يوظف ـ بنجاح كبير ـ العناصر الدينية والسياسية والوطنية، في خدمة الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

* * *

---

(٢٠) المصدر السابق.

بقي القول: بأن السلطان عبد الحميد كان يتفق مع مصطفى كامل باشا في المقاومة العاقلة السلمية، وفي استبعاد المواجهة العسكرية مع دول الغرب، حيث لم تكن الدولة العثمانية على استعداد لهذه المواجهة.

٣ - من سوريا: الشيخ أبو الهدى الصيادي:

عُرف عن أهل الشام سَبْقُهم إلى الاتصال بالعثمانيين، لإنقاذ بلادهم من اشتداد الظلم المملوكي[٢١]، كما عرف عنهم محافظتهم على التراث الإسلامي، ووقوفهم أمام غزو مظاهر الثقافة الغربية الوافدة إليهم من الغرب عن طريق بيروت. ولم يستطع قنصل أجنبي دخول دمشق، إلا في حراسة إبراهيم باشا المصري عام ١٨٣٣ م عندما سمح هذا الباشا لقنصل إنكلترا بدخول دمشق، ومع ذلك فقد ثار أهل دمشق لهذا.

وانحاز أهل الشام إلى جانب الدولة العثمانية في نزاعها مع محمد علي باشا، عند غزوه سوريا عام ١٨٣٢ م. ووقف السوريون وقفة أخوة مع بقية العثمانيين والدولة العثمانية أثناء حربها ضد اليونان، عام ١٨٩٧ م.

ونتيجة للضغوط الثقافية من الدول الأوربية وفرنسا على وجه الخصوص على بلاد الشام، ومقاومة الأهالي عموماً لهذا الضغط المتمثل في المدارس الأوربية، وعلاقات نصارى الشام بالغرب، أراد السلطان عبد الحميد، أن يؤكد ثقة الدولة العثمانية

---

(٢١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ١٧٠.

بالسوريين عموماً. فأكثر من الاستعانة بهم في المناصب الكبرى والحسّاسة في الدولة، من سياسية وعسكرية، وجعل منهم المستشارين. ومن هؤلاء «عزت باشا العابد» الدمشقي و «نسيم باشا ملحمة» اللبناني و «سعيد باشا الكردي»، كما أخذ منهم الشيخ «أبو الهدى الصيادي» مستشاراً له.

* * *

والشيخ (أبو الهدى الصيادي) من أشهر علماء الدين في عصره، ومن مناصبه نقيب أشراف عموم ولاية حلب. وكان في الخامسة والعشرين من عمره، (عام ١٨٧٣ م) زمن السلطان عبد العزيز.

قرّبه السلطان عبد الحميد، وقلّده مشيخة المشايخ في دار الخلافة، وأصبح يُلقب بلقب «مستشار المُلْك» وقضى في خدمة الدولة العثمانية ثلاثين عاماً، يدافع عن الخلافة العثمانية، ويؤكد واجب المسلمين في الاعتراف بها، والتمسك بها، والوقوف إلى جانب سلطانها.

وانعكست هذه العلاقة بين السلطان عبد الحميد، وبين أبي الهدى، على بعض أبناء سوريا، فأوصلهم أبو الهدى إلى مراتب عالية في العاصمة العثمانية نفسها (استانبول)، وفي حلب وفي طرابلس. وعطف على العلماء والفقهاء بصفة خاصة.

وكان الشيخ أبو الهدى الصيادي، مخلصاً النصيحة للسلطان عبد الحميد، وذلك من خلال الوثائق والأوراق التي ضبطها رجال حكومة «الاتحاد والترقي» بعد خلعهم السلطان، حيث تبيّنوا من

خلال هذه الوثائق: أن الشيخ أبا الهدى الصيادي لم يكن مع السلطان في مقام المنافق والمتجسس ـ كما زعم أعداؤه وأشاعوا عنه ـ بل كان في مقام الناصح المرشد، وأنه لم يخاطب السلطان مدة اتصاله به إلا بما فيه نفع الأمة والدولة ورعاياها.

ويبدو أن الحملة التي تعرّض لها أبو الهدى، والتي جاء أكثرها من أبناء بلدته قديماً وحديثاً، لا تخرج عن نطاق النزاعات الأسرية، التي عُرفت بها حلب في هذه الفترة، حيث وقفت بعض الأسر الحلبية، مثل (أسرة الكواكبي) موقف العداء «الناشىء عن الحسد» من (آل الرفاعي) التي ينتمي إليها الشيخ أبو الهدى الصيادي، لما نالته أسرته من مكانة وحظوة في استانبول.

وكان الشيخ الصيادي، بمثابة المستشار الأول للسلطان في تنظيم أمور حركة الجامعة الإسلامية. وكان يرأس ما يمكن اعتباره اللجنة المركزية لمشروع الجامعة الإسلامية في العاصمة. وهذه اللجنة تعمل تحت الإشراف المباشر للسلطان عبد الحميد.

لم يكتف الشيخ أبو الهدى الصيادي بالفكر والحركة في خدمة الجامعة الإسلامية، بل ألف في بيان مظاهر أهميتها في حياة المسلمين، موضحاً أن الأسس الهامة فيها هو منصب الخلافة. وأكد على ضرورة التفاف المسلمين حول منصب الخلافة، وبخاصة في ظروف العداء الخارجي للدولة المسلمة، وأسمى

تأليفه وكتابه هذا باسم «داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد»[٢٢].

٤ ـ من سيبريا: عبد الرشيد إبراهيم:

وهو داعية إسلامي، كاتب وقاضٍ ورحّالة. ولد في سيبريا عام ١٨٥٣ م. ومات في اليابان، أثناء اشتغاله بالدعوة الإسلامية بين اليابانيين عام ١٩٤٤ م. تلقى تحصيلاً دينياً في مكة والمدينة، ووصل إلى استانبول، وأصبح من دعاة الجامعة الإسلامية، وأوقف حياته على هذا المبدأ. والجامعة الإسلامية كانت نقطة حركته، ومرتكزها في سياحته الطويلة، للدعاية للإسلام وللجامعة الإسلامية، في كل من تركستان ومغولستان والصين واليابان ومنشوريا وبلاده سيبريا، وفي كوريا وسنغافورة وبلاد الهند والحجاز. وكانت الجامعة الإسلامية هي لبّ لقاءاته بالناس في كل هذه البلاد.

وكان بحثه عن سر تقدم اليابان، ومحاولته تشخيص أسباب انحطاط العالم الإسلامي، ينطلق من تفكيره في ضرورة الوحدة الإسلامية.

ومن الأمور التي اهتمّ بها عبد الرشيد إبراهيم، كيفية تبليغ الدعوة الإسلامية لليابانيين. وكان هذا الأمر يؤرقه، ويسلب النوم منه. ذلك لأن اليابانيين ـ كما يقول عبد الرشيد إبراهيم ـ كانوا

---

(٢٢) جريدة لسان الحال السورية في ١٠ مارس ١٨٨٦؛ ويوسف الحكيم، سوريا في العهد العثماني ص ٥٨؛ ومحمد كرد علي، مذكراته جـ ١ ص ٢٤٦: نقلاً عن الشوابكة من ص ٦٦ إلى ص ٦٩.

قريبين جداً من الإسلام في عاداتهم وأخلاقهم وأسلوب حياتهم وبنيانهم العائلي المتماسك. ولاحظ أن البعثات التنصيرية تقوم بتخريب البنية الأخلاقية لليابانيين. لذلك أخذ عبد الرشيد إبراهيم، يدعو علماء المسلمين، إلى المسارعة إلى اليابان لنشر الإسلام وربط اليابانيين باستانبول عاصمة الخلافة ومقر حركة الجامعة الإسلامية.

* * *

يثير عبد الرشيد إبراهيم همّة الهنود بنقده بأسلوب صريح وحاد، سياسة الإنكليز في الهند، وأنّ الإنكليز يظلمون الشعوب الإسلامية، ويستغلونها بعد أن يرتدوا أقنعة مزيفة، تظهرهم أمام هذه الشعوب بمظهر مختلف. ويرى أن الإسلام هو أكبر عدو للإنكليز المستعمرين، لذلك استهدف الاستعمار الإنكليزي الإسلام نفسه، ليضعفه في نفوس المسلمين، حتى تسهل قيادة الإنكليز للشعوب المسلمة.

يقول عبد الرشيد إبراهيم إنّه «سيأتي زمان يلجأ فيه كل المجوس في الهند إلى الإسلام. ولن يصمد براهما وزردشت وبوذا أمام الإسلام». و«بقدر ما يبعد المسلمون عن الإسلام بقدر ما تقترب الأمم الأخرى منه».

* * *

وفي معرض حديث عبد الرشيد إبراهيم عن الجامعة الإسلامية يقول: «لو عمل المسلمون بالإسلام، لم تكن تستطيع روسيا ـ ليس فقط قيادة وتوجيه مائتين وخمسين ألف جندي مسلم

يعملون في جيوشها ـ وإنما لم تكن تستطيع مجرد الاحتفاظ بالمسلمين ضمن حدودها. ولما اشترك المسلمون في الحروب المغايرة للإنسانية التي تقوم بها روسيا. ولما كانت إنكلترا تستطيع أن تدفع بجنود مصر لضرب مسلمي السودان، ولما كانت إنكلترا تستطيع كذلك دفع مسلمي الهند للاعتداء على أفغانستان»..

وعن الصراع بين المسلمين وغيرهم يقول عبد الرشيد إبراهيم:

«أمامنا صراع مستمر بين الشرق والغرب. والنتيجة ـ إذا فكرنا ـ هي أن المسلمين مهزومون أمام الغربيين ـ في الآونة الأخيرة ـ هزيمة فكرية، أكثر منها هزيمة عسكرية؛ إن آلات الحرب في العالم الغربي اليوم ليست في الواقع من أجل الحرب. إنها عبارة عن تخويف الفكر المضاد لهم في سبيل تدعيم أفكارهم هم. ولو طالب المسلمون بحرياتهم، من وجهة نظر الإسلام وقدروا معنى الإسلام بحق، فسيدركون معنى الحياة. وبالتالي يمكنهم أن يكونوا بمثابة الهادي والرائد لبلدان الشرق كلها. ولا شك أن كل آمال البلدان الغربية في ذلك الوقت ستصاب من أساسها بالدمار. في ذلك الوقت ستنير الحضارة الحقيقية كل أرجاء العالم. والحضارة الحقيقية هي الإسلام».

* * *

خدم عبد الرشيد إبراهيم فكرة الجامعة الإسلامية، بتجواله الكثير في البلدان الإسلامية، والبلدان غير الإسلامية، يشرح

الإسلام، ويعظ ويشد الانتباه إلى القيم الإسلامية، وضرورة الالتفاف حول الإسلام، وحول خليفة المسلمين. وقام بشرح تجربته من تجواله هـذا، إلى النخبة المثقفـة إسلاميـاً في استانبول، فتأثّر بها شاعر الإسلام «محمد عاكف» وظهر هذا التأثير في أشعاره وقصائده.

كما قام عبد الرشيد إبراهيم بدور كبير في توعية مسلمي تركستان بالخطر الروسي وأبعاده. وقام بتأسيس المساجد، وافتتاح المدارس الإسلامية في بعض الأماكن التي ارتحل إليهـا وزارها. وجاهد كثيراً، حتى اعترفت الحكومة اليابانية بالإسلام (عام ١٩٣٩ م). وافتتح جامع طوكيو (١٩٣٧ م). وعلّم فيه كثيراً من الطلبة اليابانيين. وجاهد عبد الرشيد إبراهيم في استقرار الإسلام في اليابان. وقد توفي هذا الداعية المجدّ في ٣١ أغسطس ١٩٤٤ م.

* * *

ولعبد الرشيد إبراهيم سبعة كتب، أشهرها (رحلته في آسيا) في أوائل القرن العشرين، وكتاب (آسيا في خطر)، وهو ترجمة تركية عن اللغة اليابانية، وكتاب (دين الفطرة) وكلها باللغة التركية وطبعت في استانبول[٢٣].

---

(٢٣) عبـد الرشيـد إبراهيم رحلتـه في العـالم الإسـلامي واليـابـان جـ١ ص ١١ ـ ١٤ ودائرة معارف اللغة التركية وآدابها جـ١ ص ٢/٢٢.

ب ـ الطرق الصوفية:

اعتمدت الحكومة العثمانية منذ تأسيسها على شيوخ الطرق الصوفيـة من الزهاد في بعض أسس سياستها الخارجية. ففي عهد الفتوحات العثمانية في أوربا، كانت الحكومة العثمانية ترسل هؤلاء الزهاد إلى المناطق الأوربية المراد فتحها، فيقيمون فيها، ويتعرفون على الأهالي، ويتعرف الأهالي عليهم، وهذا نوع من الدعاية العثمانية للإسلام، حتى إذا جاءت الجيوش العثمانية الفاتحة بعد ذلك، تجد أرضاً تعرفها وتعرفهم.

ثم استخدمت الحكومة العثمانية هؤلاء الزهاد في معرفة الرأي العام الإسلامي واتجاهاته؛ سواء في داخل الدولة، أو في خارجها، من أقصى تركستان إلى شمال إفريقيا.

وسار السلطان عبد الحميد على نفس السياسة في الدعاية للجامعة الإسلامية، فاتخذ هؤلاء المتصوفة الزهاد المتطوعة لخدمة الجامعة الإسلامية، وبخاصة أنها تمثل عندهم أساساً في تفكيرهم. وكوّن السلطان رابطة بين مقر الخلافة ـ استانبول ـ وبين تكايا ومراكز تجمع الطرق الصوفية في كل أنحاء العالم الإسلامي.

وينبغي هنا إضافة، أن السلطان عبد الحميد وإن كان قد اتخذ من هؤلاء المتصوفة الزهاد وسيلة للدعاية للجامعة الإسلامية، فإنه اتخذ غيرهم من غير المتصوفة الزهاد أيضاً وسيلة ودعامة لفكره في التجمع الإسلامي.

* * *

تكوّنت في عاصمة الخلافة لجنة مركزية، مكوّنة من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية، الذين عرفوا بالتقوى والزهد والغيرة الدينية، حيث عملوا مستشارين للسلطان في شؤون الجامعة الإسلامية: الشيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشريفة في الحجاز، والشيخ (أبو الهدى الصيادي) شيخ الطريقة الرفاعية، والشيخ (محمد ظافر الطرابلسي) شيخ الطريقة المدنية، والشيخ (رحمة الله) أحد علماء الحرم المكي، كانوا أبرز أعضاء هذه اللجنة المركزية للجامعة الإسلامية، وكان معهم غيرهم.

وكان هناك هيئات فرعية لهذه اللجنة في مناطق مختلفة من الدولة العثمانية. واحدة في مكة المكرمة تحت إشراف شريف مكة، ومهمتها نشر مفهوم الجامعة الإسلامية في موسم الحج بين الحجاج. وأخرى في بغداد. وتقوم بنفس المهمة بين أتباع الطريقة القادرية، الذين يأتون بكثرة من شمال إفريقيا لزيارة الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة. وقد قدّرت أعداد هؤلاء في إحدى السنوات بحوالي (٢٥,٠٠٠) نسمة. وكانت لجنة بغداد تعمل على تهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الإسلامية، ولمقاومة الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا. ووصفت المخابرات الفرنسية ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشمال الإفريقي من بغداد، من أعمال ضد الفرنسيين وضد الاستعمار الفرنسي بأنها: «استفزازات بعض رجال الدين التابعين للطريقة القادرية»[٢٤].

(٢٤) إحسان ثريا، وثائق فرنسية عن نشاط الطرق الصوفية التي لعبت دوراً في =

وللجنة المركزية للجامعة الإسلامية في استانبول، فرع إفريقي يعمل في شمال إفريقيا، وهو يعمل في سرية تامة، مهمته تنسيق العمل بين الجماعات الدينية هناك، لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وهذه الجماعات هي: الشاذلية والقادرية والمدنية[٢٥].

* * *

وبلغ من نفوذ هذه الحركة وهيبتها: أن وصفتها إدارة المخابرات الفرنسية في شمال إفريقيا بقولها:

«.. ويمكن للسلطان عبد الحميد ـ بصفته رئيساً للجامعة الإسلامية ـ أن يجمع ـ من خلال ارتباطاته الوثيقة بالجماعات الدينية في شمال إفريقيا ـ جيشاً محلياً منظماً، يتمكن ـ إذا لزم الأمر ـ أن يقاوم به أي قوة أجنبية»[٢٦].

* * *

ويبدو أن السلطات الفرنسية قد فشلت في الكشف عن وسائل تابعية المسلمين في شمال إفريقيا بعاصمة الخلافة استانبول، وكل ما استطاعت عمله، هو محاولتها إضعاف هيبة السلطان عبد الحميد في نفوس مسلمي شمال إفريقيا، ومحاولة هذه

= سياسة السلطان عبد الحميد الإسلامية في شمال إفريقيا، ص ٢٨٧؛ ونفس المرجع ص ٢٨٦؛ ووثيقة عن فعاليات السلطان عبد الحميد المرجع السابق ص ١٧٩؛ ودور الطرق الصوفية، مجلة الإسلام بأنقرة ص ٤٠ ـ ٤٣.

(٢٥ و ٢٦) المصدر السابق.

السلطات ضرب سياسة الجامعة الإسلامية. وذلك باتباع سياسة فرنسية تقوم على:

١ ـ إغراء بعض شيوخ الطرق الصوفية بالمال وبالمركز، للوقوف مع فرنسا وسياستها في شمال إفريقيا.

٢ ـ منع الحجيج من الحج، حتى لا يلتقوا بدعاة الجامعة الإسلامية بالسبل المناسبة. بمعنى: عدم إعلان منع الحج، واتخاذ أسباب صحية لتخويف الناس منه، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا[٢٧].

* * *

وأرسل السلطان عبد الحميد قافلة من المتصوفة والزهاد إلى الهند، لتعمل على القضاء على المحاولات الإنكليزية الداعية إلى سلب الخلافة من العثمانيين، لإعطائها للعرب. واتصلت هذه القافلة أيضاً ببعض حكام الجزيرة العربية ولا سيما الحجاز[٢٨].

* * *

وهناك اتصالات بين السلطان عبد الحميد بوصفه رئيساً للجامعة الإسلامية، وخليفة المسلمين، وسلطان الدولة العثمانية، وبين تجمعات الطرق الصوفية وشيوخها في تركستان، وفي جنوب إفريقيا، وفي الصين. بعضها كشف عنه النقاب، وأكثرها لم تكشف عنه الوثائق بشكل كاف بعد.

---

(٢٧) المصدر السابق.
(٢٨) المذكرات ص ٧٢.

جـ ـ تعريب الدولة العثمانية:

كان السلطان عبد الحميد يرى ـ منذ أن تولى الحكم ـ ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة العثمانية. وفي هذا يقول: «اللغة العربية لغة جميلة. ليتنا كنا اتخذناها لغة رسمية للدولة من قبل. لقد اقترحت على (خير الدين باشا) ـ التونسي ـ عندما كان صدراً أعظم أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر اعترض على اقتراحي هذا. وقال: «إذا عرّبنا الدولة فلن يبقى ـ للعنصر التركي ـ شيء بعد ذلك. كان (سعيد باشا) رجلاً فارغاً، وكلامه فارغاً. ما دخل هذه المسألة بالعنصر التركي؟! المسألة غير هذا تماماً. هذه مسألة، وتلك مسألة أخرى. اتخاذنا اللغة العربية لغة رسمية للدولة من شأنه ـ على الأقل ـ أن يزيد ارتباطنا بالعرب»[٢٩].

* * *

والواقع: أن السلطان عبد الحميد كان يشكو ـ وبخاصة في بدايات حكمه ـ من أن الوزراء وأمناء القصر السلطاني، كانوا يختلفون عنه في التفكير، وأنهم متأثرون بالغرب وبالأفكار الغربية. ويشكلون مجموعة ضغط على القصر، سواء في عهد والده السلطان عبد المجيد، أو في عهد عمه السلطان عبد العزيز، أو في عهده هو.

* * *

(٢٩) ضيا قارال، المرجع السابق صفحة ٤٠٣ نقلاً عن مذكرات الدكتور عاطف حسين الطبيب المعالج للسلطان عبد الحميد نقلاً عن السلطان نفسه في =

لم يقتصر الأمر في معارضة اقتراح السلطان عبد الحميد بتعريب الدولة العثمانية على الوزراء المتأثرين بالغرب فقط: بل تعداه إلى معارضة من بعض علماء الدين[٣٠].

* * *

د - نشر العلوم الإسلامية، وإنشاء مراكز للدراسات الإسلامية:

بدأ السلطان عبد الحميد عهده بالاهتمام بالحركة التعليمية، نتيجة حبّه للمعارف. ورفع درجة المدرسة المُلْكِيَّة إلى مدرسة عليا، لتخريج موظفين واعين لإدارة البلاد. وأنشأ مدرسة للحقوق اهتماماً بالقضاء. ودفع من جيبه الخاص مبلغاً كبيراً إسهاماً في مصاريف إنشاء المدرسة التجارية.

ولكن حدث أن قدّمت المخابرات العثمانية تقريراً للسلطان؛ بأن المدرسة المُلكية، قد تحولت إلى ميدان لتيار القومية التركية، وإعداد دعاة لهذه القومية.

تنبّه السلطان عبد الحميد لذلك، وبخاصة أنه يتعارض مع سياسته الإسلامية المعارضة أصلاً للقوميات. فقام بنقل الأساتذة

= حديث خاص للدكتور. انظر الدفتر رقم ١١ من هذه المذكرات في مكتبة المجمع التاريخي التركي بأنقرة.

(٣٠) شهاب الدين تكين ضاغ - أستاذي عليه رحمة الله - في بحثه المقدم إلى المؤتمر الدولي الرابع للدراسات التركية - شعبة التاريخ، بعنوان انهيار الدولة العثمانية، عُقد المؤتمر في أستانبول في سبتمبر ١٩٨٢.

القوميين، إلى أماكن أخرى. فقام الطلبة بمظاهرة ضد السلطان لذلك[٣١].

رأى السلطان أنّ المدارس، ونظام التعليم، أصبح متأثراً بالفكر الغربي، وأنّ التيار القومي: هو التيار السائد في هذه المدارس، فتدخل في شؤونها ووجّهها ـ من خلال نظرته السياسية ـ إلى الدراسات الإسلامية. فأمر بالآتي:

ـ استبعاد مادة الأدب والتاريخ العام من البرامج الدراسية.
ـ وضع دروس الفقه والتفسير والأخلاق في برامج الدراسة[٣٢].
ـ الاقتصار فقط على تدريس التاريخ الإسلامي بما فيه العثماني.

وجعل السلطان مدارس الدولة تحت رقابته الشخصية، ووجهها لخدمة الجامعة الإسلامية: سياسته وسياسة الدولة العثمانية.

ومن إجراءاته التعليمية في خدمة سياسته الإسلامية: أنشأ السلطان عبد الحميد في استانبول، باعتبارها مقر الخلافة ومركز السلطنة «مدرسة العشائر العربية» من أجل تعليم وإعداد أولاد العشائر العربية، من ولايات حلب وسورية وبغداد والبصرة والموصل وديار بكر وطرابلس الغرب واليمن والحجاز، وسناجق بنغازي والقدس ودير الزور.

ومدرسة العشائر العربية، في استانبول، أقيمت لتتسع

(٣١ و٣٢) عثمان أركين، تاريخ التربية التركية صفحات: ٦١٤ ـ ٦١٥ و٨٤٠ و١١٨٠ ـ ١١٨٢ على التوالي.

(لخمسين) طالباً. يختارون بالقرعة وبالاختيار. وزاد هذا العدد فيما بعد إلى (٢٥٠) طالباً. وكان المتخرجون في هذه المدرسة، يدخلون المدارس العسكرية العالية. ويحصلون بعد ذلك على رتب عالية. كما يمكنهم كذلك أن يدخلوا المدرسة المُلكية - وهي مدنية - يدرسون فيها سنة ويحصلون بعدها على رتبة قائمقام، ثم يعودون إلى بلادهم.

ومدة الدراسة في مدرسة العشائر العربية في استانبول خمس سنوات، وهي داخلية، تتكفل الدولة العثمانية بكل مصاريف الطلاب، ولكل طالب «إجازة صلة الرحم». وهي إجازة مرة كل سنتين. وسفر الطالب فيها على نفقة الدولة.

وبرنامج مدرسة العشائر العربية، في إستانبول كان كالآتي:

السنة الأولى: القرآن الكريم - الأبجدية - العلوم الدينية - القراءة التركية - إملاء - تدريب عسكري.

السنة الثانية: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - الإملاء - الحساب - القراءة التركية - تحسين الخط - تدريب عسكري.

السنة الثالثة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - قصص الأنبياء - القراءة والصرف التركي - الإملاء - حسن الخط - الحساب - الجغرافيا - الفرنسية - التدريب.

السنة الرابعة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - الصرف العربي - اللغة الفارسية - الكتابة والنحو التركي -

الجغرافيا - الحساب - حسن الخط - المعلومات المتنوعة - الرسم - اللغة الفرنسية - حسن الخط الفرنساوي - التدريب.

السنة الخامسة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - النحو العربي - اللغة الفارسية - التاريخ العثماني - القواعد العثمانية - الكتابة والقراءة التركية - المكالمة التركية - الجغرافيا - الحساب - الهندسة - حسن الخط - المعلومات المتنوعة - حفظ الصحة - أصول إمساك الدفاتر - اللغة الفرنسية - حسن الخط - حسن الخط الفرنساوي - الرسم - التدريب[٣٣].

* * *

كما أنشأ السلطان عبد الحميد «معهد تدريب الوعاظ والمرشدين» الذي أقيم لإعداد الدعاة للجامعة الإسلامية، ويتخرجون فينطلقون إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي، يدعون للإسلام، ويدعون للخلافة، وللجامعة الإسلامية[٣٤].

* * *

ولا شك أن كل طلاب الدراسات الدينية، في المدارس والمعاهد كانوا بالضرورة دعاة للإسلام، وللجامعة الإسلامية.

ومن نشاط السلطان عبد الحميد واهتمامه بالعلوم الإسلامية، نشاطه في الصين:

خرجت الصحافة في استانبول، بخبر مفاده أن عدد مسلمي

---

(٣٣) المصدر السابق.

(٣٤) مصطفى طوران، الانقلاب العثماني ص ٣٧، القاهرة، بدون تاريخ.

الصين يقرب مـن سبعين مليون نسمة، وأن مسلمي الصين متحمسون، يحبون العلم ويـرغبون الاستفـادة من المعارف الإسلامية، وأن لديهم مؤسسات تعليمية ومدارس، وأن في بكين وحدها ثمانيةً وثلاثين مسجداً وجامعاً، يؤدي المسلمون فيها الصلاة، ويدعون فيها لخليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني، وأن خطبة الجمعة في مساجد وجوامع بكين تُقرأ باللغة العربية، ثم تترجم إلى اللغة الصينية، وأنّ الدعاء للسلطان عبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لا يقتصر على بكين فقط، بل ويمتد إلى كل مساجد الصين وجوامعها(٣٥).

* * *

تأسست في بكين ـ عاصمة الصين ـ جامعة أطلق عليها المسلمون الصينيون اسم «دار العلوم الحميدية». نسبة إلى السلطان الخليفة عبد الحميد الثاني، أو بتعبير السفير الفرنسي في استانبول اسم «الجامعة الحميدية في بكين» وذلك في تقرير له إلى وزارة خارجيته في باريس.

وقد حضر افتتـاح هذه الجـامعة، الآلاف من المسلمين الصينيين. وحضره أيضاً مفتي المسلمين في بكين، والكثير من علماء المسلمين هناك. كما حضره أيضاً من وزارة المعارف الصينية، عدد كبيـر من الموظفين والمسؤولين. وقـرر وزير المعارف الصيني، حضور الافتتاح بنفسه، لكنه لم يتمكن من ذلك لظروف خارجة عن إرادته. فقد قامت عاصفة جليدية منعته

(٣٥) جريدة «ترجمان حقيقت» مقال «رسالة من بكين» في ١٣٢٥/١٢/٢٦.

من الحضور، إذ كانت الجامعة الحميدية على بعد ساعتين من منزله.

وفي مراسم الافتتاح، أُلقيت الخطبة باللغة العربية، ودعا الخطيب للسلطان الخليفة عبد الحميد. وقام مفتي بكين بترجمة الخطبة والدعاء إلى اللغة الصينية. و«بكى أغلب المسلمين الحاضرين بكاءً حاراً بدافع فرحتهم» و«إن مسلمي الصين مترابطون فيما بينهم ترابطاً واضحاً برباط الدين المتين. وإن إيراد الخطبة باللغة العربية لغة المسلمين الدينية، ورفع علم الدولة العثمانية على باب هذه الجامعة، قد أثّر تأثيراً بالغاً في هؤلاء الناس الطيبي القلب، وحرّك الدموع في أعينهم»[٣٦].

* * *

هـ ـ خدمة الحرمين الشريفين:

اهتمّ السلطان عبد الحميد ببناء المساجد، وتعمير القديم منها، وصرف جهداً كبيراً في بناء وترميم الأسواق التجارية، وسبل المياه، والمدارس، وبناء المساجد، والتبرع لإنشاء المساجد في العالم.

وكان إذا طرق سمعه أن في بلد من بلدان الدولة العثمانية ـ أو قرية أو ناحية ـ لم يكن فيها مسجد، أو جامع، تقام فيه الجمعة، يصدر إرادته ببناء جامع أو مسجد فيها. وقد بنى وأعاد بناء عدد

(٣٦) إحسان ثريا، جامعة السلطان عبد الحميد في بكين؛ التعليق ص ١٦١ ـ ١٦٢.

من المساجد المهمة في المدن العربية. وشجع الحج[٣٧].

وبجانب هذه العناية بالمساجد والجوامع في الدولة وفي خارجها، صرف عنايته إلى المسجد الحرام بمكة المكرمة، فكلّف ـ أي السلطان عبد الحميد ـ القائمقام أركان حرب السيد (محمد صادق) بعملية تعمير وإصلاح في الحرم المكي بناءً على تقرير هذا الضابط. يقول فيه: «إن الحاجة تقتضي ذلك لعدة أسباب:

منها تعذر قراءة اللوحات الخطية الموجودة في الحرم وهي عشر لوحات: على مبنى زمزم، وعلى باب السلام العتيق. ولأن شكل الجدران في الحرم المكي، قد أصبح رديئاً نتيجة سقوط طلاء الجدران، وتكسر الحجارة المفروشة على أرض المطاف، وعلى منطقة أسفل القباب، وتفلقها مما يمكن أن يعيق حركة الحجيج. وإن الحرم المكي في حاجة إلى إعادة بناء بعض المباني مما حول الكعبة، وفي إطار الحرم.

ويبرز تقرير الضابط المهندس السيد (محمد صادق) عدداً من الاحتياجات الأخرى:

---

(٣٧) سعيد سفر الغامدي، موقف المعارضة في المشرق العربي من حكم السلطان عبد الحميد الثاني؛ الشام ومصر ١٢٩٣ ـ ١٣٢٧ هـ = ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ م رسالة دكتوراه بإشراف الدكتور محمد محمود السروجي مُجازة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٦ ـ ١٩٨٥ م. وستذكر فيما بعد باسم الغامدي. مصطفى الواعظ، الروض الأزهر ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ الموصل ١٩٤٨ نقلاً عن الغامدي ص ٨٤.

منها ضرورة إنشاء عدة آبار كبيرة، ليصب فيها زمزم. وتحديد أماكن صلاة النساء بشبكة حديدية. وغير ذلك من الاحتياجات.

وقدّر كبير المهندسين العثمانيين، القائمقام أركان حرب السيد «محمد صادق» احتياج الحرم المكي بألفين وثمانمائة وثمان وأربعين ليرة عثمانية(٣٨).

* * *

ويذكر (حسين باسلامه): أنّ السلطان عبد الحميد، قد عمّر في سنة ١٢٩٩ هـ في الكعبة المعظمة، وفرش باطنها بالرخام.

* * *

«وفي عام ١٢٩٧ هـ صدرت إرادة سنية من السلطان عبد الحميد بتجديد بعض مداخل سقف الكعبة. وتجديد رخام المطاف، وتجديد الأحجار في أرضية الكعبة. وفي نفس السنة أيضاً تمّ تجديد مفتاحين للكعبة، صنعا من الفضة في استانبول، وتجديد المفتاح الفضي مع الستارة والقفل في مقام إبراهيم الخليل عليه السلام. أما ستارته القديمة، فقد أرسلت مع موظف مخصوص إلى استانبول. وكان هذا الموظف هو الشيخ «محمد

---

(٣٨) محمد حرب، خريطة لمنطقة الحرم المكي وتقرير هندسي عنها، مجلة الدارة، الرياض، العدد الثالث، السنة الثالثة عشرة ربيع الآخر ١٤٠٨ - نوفمبر ١٩٨٧ م ص ٤٣ - ٥٤؛ وحسين باسلامه، تاريخ الكعبة المعظمة ص ٢٢٣، جدة ١٣٥١. وقد نقل حسين باسلامه عن الفتوحات الإسلامية للسيد أحمد دحلان.

الأمين المكي». وفي نفس العام تمّ ترميم مقام إبراهيم عليه السلام، والعتبة العليا لباب إبراهيم، كما تمّ تجديد الطلاء والنقش والزخرفة فيهما. كما أهدى السلطان عبد الحميد تسع شمعدانات ضخمة مصنوعة من الفضة مع مجموعة من المباخر لإيقادها كل مساء عند عتبة البيت المعظم. وتم تعمير أرض الحرم الشريف وطلائها بصورة ممتازة. وتعمير ستة أعمدة من الرخام في جهة المدرسة الداودية. وتجديد بعض القباب أمام مدخل باب علي، وتعمير كل الأرصفة الكائنة تحت القباب.

أمّا في عام ١٢٩٩ هـ فقد تمّ توسعة دائرة الحرم المكي الشريف بناءً على صدور إرادة سنية بذلك من السلطان عبد الحميد.

وفي عام ١٣٠١ هـ تـمّ تجديد العلامات في الصفا والمروة، وأزيلت الرمال المتراكمة في وادي إبراهيم، وأزيلت أيضاً الرمال التي جرفها السيل إلى أبواب الحرم الشريف. كما أمر السلطان بتجديد الدهان والنقوش في كل من مقام إبراهيم وبئر زمزم. وأمر بشمعدانات فضية وقناديل بمبلغ (٢٥١٤٤) قرشاً عثمانياً لمكة المكرمة. وبإرسال مصاحف وكتب دينية إليها.

كما أمر بتجديد وإنشاء مجرى عين زبيدة وطرقها، وهي عين هامة لمكة المكرمة. وكان العمل في هذا المشروع برئاسة لجنة تعمير، على رأسها (عثمان نوري باشا) وعضوية الأمير (آلاي صادق بك) وآخرين. وقد بدأت هذه اللجنة أعمالها، من وادي نعمان ـ وكان يبعد مسافة ثمان ساعات عن مكة المكرمة ـ وهو

مجرى ماء عين زبيدة. واستمر العمل في ذلك أربع سنوات ليلاً ونهاراً. وعمل بالمشروع أكثر من (ثلاثة آلاف عامل) كانوا يعملون ليلاً ونهاراً، وبذلك أقاموا وعمّروا وجددوا بقوة وهمّة عملاً ييسر للحجاج موارد الماء العذب النقي.

قامت لجنة عين ماء زبيدة، بإنشاء ثمانية عشرة خزاناً وعين ماء في أماكن مكة المكرمة كافة. وأقامت عيون ماء متعددة الصنابير في أطراف الحرم الشريف لكي يتوضأ منها الحجاج. ومُدّت كذلك ماسورة مياه لكل واحدة من المنشآت التالية: مستشفى الغرباء، ومطعم خاصكي سلطان الخيري المجاني، ودائرة الحكومة، وثكنة المدفعية السلطانية، ودار البرق (التلغراف)، والفرن العسكري، ومراكز الخفر النظامية، والحمامات.

وكانت قِرْبَة الماء قبل ذلك تباع في موسم الحج بمبلغ ريال واحد. فانخفض سعرها بالتالي إلى عشرين بارة فقط.

وتكونت لجنة مالية لهذه الإنشاءات برئاسة مفتي مكة المكرمة الحنفي، ورئيس العلماء الشيخ عبد الرحمٰن سراج.

وكان كل ذلك عام ١٣٠١ هـ.

* * *

بعد الانتهاء من مشروع عين زبيدة وملحقاته، صدرت إرادة سلطانية تقضي بالعمل في مشروع مياه عين الوزيرية لخدمة

سكان جدة. وكان عدد سكان جدة في ذلك الوقت (عام ١٣٠٣ م) (٣٠,٠٠٠) نسمة.

عمل في مشروع مياه الوزيرية (٣٥٠٠) عامل. ومياه الوزيرية في الجهة اليمانية من رغامة علـى بعد ساعتين ونصف ساعة من جدة. واستمر العمل في هذا المشروع ثلاث سنوات ونصف سنة، حتى تمّ تزويد جدة بالمياه. وبذلك تخلص أهالي جدة، وعشرات الآلاف من الحجاج المسلمين من مضرّة شرب الماء من الحُفر التي تعفنت فيها المياه. وتمّ إنشاء خزانات بعيون ماء في أحياء جدّة، كما مُدَّت ماسورة مياه إلى كل من الثكنة السلطانية، ودائرة الحكومة، والمستشفى العسكري. وكان من ضمن الذين أسهموا بجهود كبيرة في هذا المشروع ـ بجوار الفنيين العسكريين العثمانيين ـ كل من (أحمد قمصاني) رئيس بلدية جدّة، وكاتب لجنة الإنشاءات علي المصري وكذلك السيد (محمد طاهر الداغستاني).

* * *

وفي نفس العام (١٣٠٣ هـ) تـمّ تطهير وتعمير أحواض المياه في عرفات. وتمّ تنفيـذ مشروع مـدّ «منى» بالمـاء من ماء عين زبيدة، الذي عبر من وادي المفجر، مع إنشاء خزانين ضخمين للمياه (١٣٠١ هـ). وفي منى أيضاً تمّ إنشاء صيدلية، ومستشفى، تستوعب أربعين سريراً (١٣٠٠ هـ). وتمّت تسوية وتعمير الطرق المؤدية إلى جبل ثور، لأن طرقه كانت حادّة للغاية وغير منتظمة مما كان يتسبب عنه مشقة عظيمة للزوار والحجاج (١٣٠٦ هـ).

وبناء على الإرادة السلطانية، تمّ إنشاء مطبعة الولاية في مكة المكرمة، لطبع الكتب الدينية، باللغات العربية والتركية والفارسية والهندية والجاوية. وتطبع الكتب الإسلامية وتوزعها على البلدان الإسلامية.

* * *

كما تمّ إنشاء دار للبريد والبرق في طابقين، وكان أمام مبنى الحكومة في مكة المكرمة، وإنشاء خطوط برقية (تلغرافية) من كابل تلغراف سواكن من جدة إلى مكة المكرمة وإلى الطائف. وصرف مبلغ (٥٦٠٠٠٠) قرشاً عثمانياً لخط البرق (التلغراف) بين معان ومكة المكرمة.

* * *

وتمّ تعمير المنبر في الحرم المكي الشريف، بشكل ممتاز وبأيدي عمال مهرة، استقدموا من استانبول وصُنِّع علمان مقصَّبان ليعلقا كل جمعة على منبر البيت المعظم، وصُنِّعا أيضاً في استانبول لإهدائهما إلى المكان. (١٣٠١ هـ).

* * *

وتمّ ـ بناء على إرادة سلطانية ـ بناء دورتين في مستشفى غرباء المسلمين في مكة المكرمة[٣٩].

* * *

---

(٣٩) محمد الأمين المكي، خدمات خلفاء آل عثمان للحرمين الشريفين ص ١١ ـ ١٣ استانبول ١٣١٨ هـ.

أما خدمات السلطان عبد الحميد للمدينة المنورة، فقد تمثّل في الآتي:

أمر ـ السلطان عبد الحميد ـ بصرف مبلغ (٧٥٣٨٠) قرشاً عثمانياً للأعمدة المرتكزة على قاعدة قبة قبر الرسول ﷺ، والجسر الذي بينهما. وأمر بتعمير الأماكن التي تحتاج إلى تعمير في أبنية خدم النبي، وتجديد الرصاص والدهان والنقش والزخرفة في قبّة الرسول ﷺ، وداخل الحرم النبوي الشريف. وتقديم القناديل الكلية للروضة المطهرة، وتجديد دهان وزخرفة قبّة الروضة، وأبواب الحجرة النبوية. وأمر بتصنيع وإرسال قناديل وشمعدانات فضية، بمبلغ (٣٨٤٠٤) قرشاً عثمانياً. وتصنيع وإرسال شعار ومشاعل بمبلغ (٦٣٢٢٥) قرشاً عثمانياً خصيصاً للمحال العالية في المدينة المنورة. وتجديد تعمير المسجد المعروف باسم قبة الرؤوس في المدينة المنورة، ومسجد شهداء بدر، وتعمير مسجد المنيف، وأرسلت ستائره من استانبول. وتعمير مسجد العشرة المبشرة بالجنّة في المدينة المنورة.

كما أرسلت سجاجيد قيِّمة للغاية إلى الحرم النبوي الشريف، لفرشها وهي من إنتاج المصنع السلطاني.

* * *

وأرسل السلطان مجموعة من الكتب الإسلامية إلى المدينة المنورة.

* * *

وعمّر المحكمة الشرعية بالمدينة المنورة، وأنشأ مدرسة

رشدية وإعدادية ومركز شرطة، وقوس باسم خليفة المسلمين في العنبرية.

* * *

وصرف مبلغ (٢٦٤٠٢٢) قرشاً عثمانياً لأهالي الحرمين الشريفين، إعانة نقدية، و«إكرامية أهالي الحرمين الشريفين» وهي (٢٦٤٠٢٢) قرشاً عثمانياً، على العادة السنوية، مع الصرّة السلطانية. وصرف مبلغ (٢٦٤٠٠٠) قرشاً عثمانياً للمتضررين من القحط عام (١٣٠٧ هـ)، من أهالي الحرمين الشريفين. وصرف مبلغ (١٠٠٠) ليرة عثمانية من جيب السلطان الخاص لفقراء الحجاج القادمين من المحيط الهندي. وصرف مبلغ (٢٦٤٠٢٢) قرشاً عثمانياً للمرة الثالثة لأهالي الحرمين الشريفين وعربانهما ممن أصابهم القحط. وصرف مبلغ (١٥٠٠) ليرة عثمانية «إعانة الحجاز»[٤٠].

* * *

و ـ الاهتمام بوسائل المواصلات:

يوصف عهد السلطان عبد الحميد بأنه «عهد الجامعة الإسلامية»، إلا أن بعض مؤرخي الترك، يحلو لهم أن يضيفوا إلى هذا بأنه: «عهد إنشاء السكك الحديدية وتشغيلها».

لقد كان الوضع المالي في الدولة العثمانية سيئاً؛ لذلك اضطرت الدولة لإحالة مشروعات السكة الحديد إلى الشركات

(٤٠) محمد الأمين المكي، المرجع السابق ص ٦ ـ ١١.

الأجنبية. وإن كانت الدولة العثمانية قد نفّذت بعض المشروعات المحلية لإنشاء خطوط سكك حديدية، إلّا أن مدّها وتشغيلها أحيل على شركات أجنبية. هذا باستثناء خط سكة حديد الحجاز.

كانت سياسة إنشاء السكك الحديدية، ضرورة من الناحيتين الاستراتيجية والعسكرية والتجارية والزراعية. لذلك كان السلطان لا يوافق على فكرة إنشاء خطوط سكك حديدية في مناطق الحدود، حتى لا تستغلها دولة أجنبية في حالة نزاع بينها وبين الدولة. وكانت السلطات العسكرية العثمانية توصي بعدم إنشاء خطوط سكة حديد إلّا في الأماكن البعيدة عن السواحل بقدر الإمكان، حتى لا تكون معرضة لتخريب الأساطيل الأجنبية.

ومن الناحية السياسية، كان السلطان عبد الحميد يرى أن ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي يمكن أن يحيل عليها مسألة إنشاء قطارات السكة الحديد بثقة محدودة، وحذراً من اتفاق بين إنكلترا وروسيا ضد الدولة العثمانية في «المسألة الشرقية» ولا سيما أن إنكلترا ـ بعد احتلال مصر ـ قد اقتربت من شبه الجزيرة العربية، والخطر الروسي قد اقترب من الأناضول، فقد وجد السلطان عبد الحميد، أنه لدرء هذه الكارثة الوشيكة الحدوث، أن يوافق على خط السكة الحديد الذي يمر بالأناضول ويصل إلى البصرة، ويستفيد الألمان من إقامته ويقف هذا الخط أيضاً سداً ضد الخطر الإنكليزي والروسي الوشيك(٤١).

---

(٤١) قارال، المرجع السابق ص ٤٦٩.

● **خط سكة حديد الحجاز:**

وكان أهم مشروعـات السكك الحـديديـة لدى السلطان عبد الحميد، هو خط سكة حديد الحجاز. وقد عبّر السلطان عن هذا المشروع بقوله: «إن إنشاء سكة حديد الحجاز هو حُلمي القديم».

بدأ مشروع سكة حديد الحجاز عام ١٩٠١، ليربط الحجاز بالعاصمة استانبول لفائدة الحجاج، ولربط أواصر المسلمين في مختلف البقاع بالخليفة. وأن يكون (١٥٠٠) كيلومتراً طولاً ويصـل إلى المدينـة المنورة عـام ١٩٠٨ م. ويربط دمشق بالمدينة، وحوران بدرعا ويرتبط بالبحر الأبيض عن طريق حيفا، وقد خدم هذا الفـرع الحجيج المصري الذي كان يقدم بالسفن من الإسكندرية إلى حيفا، ومنها بالسكة الحديد إلى الحجاز.

وقد جمعت التبرعات لهذا المشروع من الدولة العثمانية، ومن سائر أرجاء العالم الإسلامي. واستحدثت له بعض ضرائب محلية، وطوابع بريد عثمانية، ويستفيد منه الكثير من المهندسين العثمانيين، والعمال المهرة، والعمال العاديين، في اكتساب الخبرات[٤٢].

ومن فوائد سكة حديد الحجـاز أن الدولة العثمانية لم تعد في حاجة إلى قناة السويس، التي تسيطر عليها بريطانيا. كما كان لإنشاء الخط نتيجة معنوية، لأن الدولة العثمانية أقامته بنفسها،

---

(٤٢) حكمت بايور، تاريخ الانقلاب التركي جـ ١ ص ١٤٤.

وبالتالي أصبح دليلاً على: «أننا أمة لديها الاستعداد للتقدم»[٤٣].

* * *

لم يكن مشروع سكة حديد الحجاز، يلقى في بدايته رواجاً. فقد اعترض عليه الصدر الأعظم (سعيد باشا). و«شاع على أفواه بعض الخواص والعوام جملة اعتراضات وإيرادات، منها وهو أهمها «أن عرب البادية الحجازية، وبعض سكان مكة المكرمة، والمدينة المنورة، لا يساعدون على إنشائها، بل يعاكسون ولا يسكتون عليه، بل يعارضون، لما سوّل لهم أصحاب الغايات، ووسوس إليهم ذوو الافتراءات من أن هذه السكة تضر بتجاراتهم، وتسيء معيشتهم، لكون كسبهم محدوداً بنقل الحجاج والزوار والتجار على دوابهم في تلك الأقطار. وأن هذه السكة تكون سبباً لتعطيل دوابهم، فتنمحق أرباحهم ويصبحون فقراء معدمين فتسحق أرواحهم»[٤٤].

تصدّى لهذه الأقاويل والإشاعات، علماء الدين والمثقفون المسلمون ووعظوا في فائدة السكة الحديد، وكتبوا فيها الرسائل والكتب، وفندوا الدعايات المضادة، وقالوا: «اعلم أن في إنشاء هذه السكة الحديدية، تسهيل اتصال المؤمنين بعضهم ببعض». ومثل هذه السكة «مثل استحضار السلاح والمدافع والبارود

(٤٣) قارال، المرجع السابق ص ٤.
(٤٤) محمد عارف، السعادة النامية الأبدية في السكة الحجازية الحديدية ص ٢٨٦.

والفشنك والخيل وأمثالها، لا يكون بينها فرق بل يكون إنشاء السكة الحديدية أحق بالتقديم»(٤٥).

وذكر السيد (محمد عارف الدمشقي) إمام الشافعية في الشام فوائد السكة الحديدية للمسلمين عموماً، ولأهـالي الحرمين خصوصاً، ردّاً على فرية تعطيل أعمال أهل الحجاز فقال:

«الفائدة الأولى: تكثير الحجاج والزوار والتجار، فإن مدّ هذا الخط الحديدي من الشام إلى مكة يزيد الحجاج إلى أضعاف مضاعفة، فإذا كان عدد الحجاج الآن ـ في عهده ـ من نفس الشام ألفاً مثلاً يكون بعد وجود هذه السكة عشرين أو ثلاثين ألفاً بلا شك ولا ريب.

والفائدة الثانية: «أنه يمكن للدولة العلية ـ العثمانية ـ وقت اللزوم أن ترسل لتلك الجهات، ما تحتاج إليه من الإمدادات والتجهيزات في أي وقت شاءت. فيصل إليها في أقرب وقت، ويمتنع بسبب ذلك تعدي العرب المتوحشين، وتحصل تلك الأقطار وأهاليها والحجاج على الأمن التام».

والفائدة الثالثة: . . أراضي الحجاز من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة كلها قابلة لزراعة الحبوب والبقول والبطيخ والقثاء والخيار وما أشبهها، ولغرس الأشجار المختلفة الأثمار، كالعنب والنخيل والرمان والتين والجوز والموز والسفرجـل والليمون

---

(٤٥) محمد عارف، المرجع السابق صفحة ٢٠٩ وصفحات ٢٨٧ ـ ٢٩٠ و٢١٦ و٢١٤ و١٩١ ـ ١٩٢ على التوالي.

والأترج بجميع أنواعه وما أشبهها، وأنه لا يؤخذ لمكة منها إلّا من وادي فاطمة، ووادي الليمون، والباقي يبقى في أرضه لأنه يفسد، بطول مدة النقل، وأما التمر وما ماثله مما لا يفسد بالنقل فمن الأراضي القريبة منها لا من البعيدة. ومع هذا فإن أثمانها لا تفي بمصارفها، ولذا اقتصروا منها على غرس ما يكفيهم، والمياه الموجودة عندهم لا ينتفعون بها الآن حق الانتفاع. فإذا مدّ الخط الحديدي من أرضهم أو في جوارهم، يسهل عليهم النقل، فلا تفسد المحصولات، وبالضرورة تكون الأجرة أرخص من أجرة النقل على الجمال، فيربحون ويزيدون حينئذ من الزرع والغرس والتجارة، وكذا في جوار المدينة المنورة.

والفائدة الرابعة: أنّ بدو الحجاز لا صنائع الآن عندهم، بل ولا في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ويأخذون جميع ملبوساتهم المنسوجة وغيرها من تجار الركب الشامي حينما يمرون عليهم... وكذلك جميع أمتعتهم وأثاث بيوتهم ومفروشاتهم بقيمة غبن فاحش، ومن بعض تجار الحرمين من لا يراقب الله تعالى في تجارته، فيتجرون في أخس الأشياء وأقربها للبلى، ويبيعونها بقيمة الحسنة القوية.. ويبيع أولئك البدو محصولاتهم بثمن بخس جداً، وذلك مثل جلود الغنم والبقر والإبل والصوف وبعض محصولاتهم لا ينتفعون بها أصلاً مثل اللبن والحطب وشعر المعز، فإذا أنشئت هذه السكة في تلك الجهات سهل عندهم تأسيس مكاتب ـ مدارس ـ للصنائع والزراعة، ولو مختصة بما يتعلق بتلك البلاد أولاً ثم تعمم. فإذا تعلموا وعرفوا كيف يتصرفون بمحصولاتهم، ويستفيدون منها،

ويجدون ما يحتاجون لأنفسهم عندهم، مثل دباغة الجلود وحياكة القطن والصوف والشعر، والنجارة والحدادة، وعمل الجبن والسمن، صاروا من أهل الترفه وأولي الثروة. واستغنوا عمّا يجلب لهم من غير البلاد، وشن الغارات على بعضهم ومن يمر بأرضهم.

والفائدة الخامسة: أنه ـ بواسطة السكة الحديدية ـ يسهل التفتيش على المعادن في هذه الصحارى والقفار التي لم تزل إلى الآن غائبة، وكنوزها فيها مخفية، فإذا تمّ إنشاء هذه السكة سهل الجولان في تلك الأقطار، وحفر التراب ونبش الرمال وجوب الأحجار، فيظهر ما استكن فيها من الفحم والمعادن، وأودع فيها من الأسرار، وبذلك تصبح هذه البلاد في دور ثان من أدوار الازدهار. فتضيء شمسها، وينير بدرها، وتمسي في بحبوحة الغناء والثروة، متمتعة بالعيشة الراضية والرفاهية الباهية.

والفائدة السادسة: تأسيس المدنية والحضارة فيهم، وانتشار العلوم والمعارف بينهم، والأمن على الأنفس والأموال والأولاد.

والفائدة السابعة: أن الدولة العلية ـ العثمانية ـ تستخدم منهم من يليق للاستخدام في أمور هذه السكة الحديدية، وتعطيهم أجرة لأنفسهم.

والفائدة الثامنة: أنهم يبيعون المارين عليهم في السكة، مأكولات ومشروبات وغير ذلك، مما لا يباع بغير واسطة السكة

الحديدية أصلاً، مثل الخبز واللحم والبيض والماء المعلل المبرد. . وفيها ربح عظيم.

والفائدة التاسعة: أن المواشي تكثر عندهم بواسطة السكة الحديدية، وذلك كما قررنا تزداد الزراعة وتعمم، فإذا ازدادت الزراعة وجد المرعى والعلف للدواب فتكثر وتنمو. وأهل الحرمين في احتياج شديد لزيادة المواشي، ولا سيما الغنم والبقر، لأجل اللبن والسمن واللحم و. . هذه الفوائد عدا فائدة إيجار البدو وجمالهم من مكة إلى عرفات. . .».

وردّاً على الاعتراض القائل: بأن سكة حديد الحجاز ستكون سبباً لتعطيل دواب عرب البادية الحجازية، وبعض سكان مكة المكرمة والمدينة المنورة. يقول الشيخ محمد عارف الدمشقي:

«إن الجمال التي يؤجرها بدو الحجاز من ينبع إلى المدينة المنورة، للزوار والتجار والحجاج، يزيد عددها بعد مدّ السكة الحديدية أضعافاً مضاعفةً، وذلك لأن أهل الجهات الذين يمرون على ينبع إلى جدة، إما أن يخرجوا إلى ينبع فيستأجرون مع القوافل إلى المدينة، ومنها مع الركوب التي تخرج من مكة للمدينة، أو مع الركب الشامي، ومنها إلى ينبع تواً إلى جدة، ومنها إلى مكة، ثم مع القوافل التي تخرج من مكة للمدينة، أو مع الركب الشامي، ومنها إلى ينبع إلى بلادهم وهؤلاء الزوار إنما يزورون مرة واحدة قبل الحج أو بعده حسبما يتيسر لهم، ولا يزورون مرتين للمشقة، وخوف الطريق، بالركوب مع القوافل،

أما بعد وجود السكة الحديدية فحيث تحصل الراحة، وأمن الطريق، فيأتون كلهم إلى ينبع، ومنها للمدينة، فيركبون السكة منها إلى مكة، ويرجعون عليها للمدينة، ومنها إلى ينبع وإلى بلادهم، فيربح بدو الحجاز أصحاب القوافل من ينبع إلى المدينة ضعفي ما كانوا يربحون أولاً إذا لم نلتفت للزيادة المحققة بواسطة راحة السكة، وأمن الطريق بوجودها هذا من ينبع».

* * *

يستفيد من سكة حديد الحجاز ـ مشروع السلطان عبد الحميد الرئيسي ـ بدو الشام أيضاً. ويبين إمام الشافعية في دمشق أنَّ إنشاء هذه السكة إنما هو أيضاً من قبيل إعداد القوة المأمور بها المسلمون. وأن في إنشائها إعماراً للحرمين الشريفين. وإن إنشاء هذه السكة، إنفاق في سبيل الله. وفيها أيضاً إعانة للمؤمنين على أداء فريضة الحج، والعمرة، وزيارة الرسول ﷺ، والتجارة والصناعة والزراعة، وتمدين المتوحشين وإغناء الفقراء، وإشباع الجياع، وثروة البلاد، وتسهيل اتصال المؤمنين بعضهم ببعض.

ويدرج الشيخ (محمد عارف) الدمشقي باب (في وجوب طاعة الأمير على كل مؤمن بالإعانة على إنشاء هذه السكة وحرمة مخالفته والتخلف عنه)، شعراً:

طاعة السلطان حق واجب   جاءنا القرآن فيها والحديث

* * *

بدأ العمل في مشروع خط سكة حديد الحجاز عام ١٩٠١ م. وكان السلطان قد عيّن (عزت باشا) رئيساً للجنة

المشروع. وقد وجّه هذا نداءً للعالم الإسلامي للتبرع، لتغطية نفقات المشروع، وقد افتتح السلطان عبد الحميد قائمة التبرعات بمبلغ «خمسين ألف ذهباً عثمانياً من جيبه الخاص» وتقرر دفع (مائة ألف) ذهب عثماني من صندوق المنافع، وطُبعت أوراق بمليون و«أسست الجمعيات الخيرية وتسابق المسلمون من كل جهة للإعانة على إنشائها بالأنفس والأموال»(٤٦).

* * *

وتبرّع للمشروع الشخصيات الهامة في الدولة، مثل الصدر الأعظم ووزير الحربية (حسن باشا) ووزير التجارة والأشغال (ذهني باشا)، ورئيس لجنة المشروع (عزت باشا).

وتبارى موظفو الشركات في التبرع، مثل موظفي شركة البواخر العثمانية. وكذلك موظفو الدولة العموميون، والولايات مثل ولاية بيروت ودمشق وحلب وبورصة وغيرها.

وشارك القصر الحاكم في مصر، في حملة التبرعات، وشكلت في مصر لجنة للدعاية للمشروع وجمع التبرعات له برئاسة (أحمد باشا المنشاوي). كما شاركت الصحافة المصرية في حملة سكة حديد الحجاز بحماس ومثال على ذلك جريدة المؤيد. وجمعت جريدة «اللواء» المصرية تبرعات للمشروع

---

(٤٦) محمد عارف، المرجع السابق صفحة ٢٠٩ وصفحات ٢٨٧ ـ ٢٩٠ و٢١٦ و٢١٤ و١٩١ ـ ١٩٢ على التوالي.

بلغت ـ حتى عام ١٩٠٤ م ـ ثلاثة آلاف ليرة عثمانية. وكان يرأسها (مصطفى كامل باشا)، كما جمع (علي كامل) مبلغ (٢,٠٠٠) ليرة عثمانية للمشروع حتى عام ١٩٠١ م.

* * *

ونفّذ المشروع فوصل إلى المدينة المنورة في سبتمبر ١٩٠٨ م آخر مراحله. وعن استمرار الخط إلى مكة المكرمة وجد المشروع معارضة من الشريف حسين خوفاً على سلطته ومكانته.

* * *

وصاحب فكرة المشروع هو عزت باشا العابد ـ الذي أصبح فيما بعد رئيس لجنة المشروع ـ وإن كان محمد كرد علي يذكر أنّ التفكير في إنشاء هذا الخط بدأ عام ١٨٨٠ م عندما قدّم وزير الأشغال العثماني إلى الحكومة فكرة هذا المشروع الذي حال دون تنفيذه وقتها صعوبات مالية[٤٧].

وأسهم في هذه الحملة، جريدة (المنار) وجريدة (الرائد المصري) وشكلت لجان تبرع للمشروع في كل من القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن مصر.

وكان مسلمو الهند أكثر مسلمي العالم حماساً وعاطفة وتبرعاً للمشروع. وقد تبرع أمير حيدر آباد بالهند بإنشاء محطة المدينة المنورة في المشروع كما تبرع شاه إيران بمبلغ (٥٠,٠٠٠) ليرة عثمانية.

---

(٤٧) محمد كرد علي في خطط الشام جـ ٥ ص ١٨٨ عن الشوابكة ١٨٦ ـ ١٩٩.

ورغم احتياج المشروع لبعض الفنيين الأجانب في إقامة الجسور والأنفاق، فإنهم لم يستخدموا إلّا إذا اشتدت الحاجة إليهم، مع العلم بأن الأجانب لم يشتركوا إطلاقاً في المشروع، ابتداءً من محطة الأخضر ـ على بعد ٧٦٠ كيلومتراً جنوب دمشق ـ وحتى نهاية المشروع. ذلك لأن لجنة المشروع استغنت عنهم واستبدلتهم بفنيين مصريين.

وبلغ عدد العمال غير المهرة عام ١٩٠٧: (٧٥٠٠) عاملاً.

وبلغ إجمالي تكاليف المشروع (٤,٢٨٣,٠٠٠) ليرة عثمانية. وتمّ إنشاء المشروع في زمن وتكاليف أقل مما لو تعمله الشركات الأجنبية في أراضي الدولة العثمانية.

* * *

ويبدو أن الحكومة العثمانية استجابت لدعوة «المنار»، في ٢٣/١١/١٩٠٨، حينما قالت: «إنه مما لا ريب فيه أن السكة الحجازية إذا أمكن إيصالها إلى القطر اليماني لكانت من خير المشروعات النافعة لبلاد العرب والمسلمين عامة. . لا سيما بعد أن صار البحر الأحمر مزدحماً بعدة دول أجنبية، وكان من قبل بحيرة عثمانية». ذلك لأن بين الوثائق العثمانية، وثائق فيها تخطيط ودراسة لمد خط سكة حديد الحجاز إلى اليمن[٤٨].

---

(٤٨) المصدر السابق.

● **سكة حديد بغداد:**

كان المقصود بهذا الخط الربط بين استانبول والبصـرة. وأعطى السلطان عبد الحميد امتياز إنشاء خط قونية ـ البصرة الحديدي إلى الـدكتـور (سيمينز) رئيس مجلس إدارة شركة خطوط سكة حديد الأناضول (عام ١٨٩٩ م). وتحقق هذا الامتياز عام ١٩٠٢ م حيث بدأ العمل. وتم افتتاح القطاع الخاص الموصّل من قونية إلى أركلي في عام ١٩٠٤ م. أما الجزء الخاص الواصل من أركلي إلى بلغورلي فتمّ إكماله في الفترة الأخيرة من حكم السلطان عبـد الحميد. ولم يكمـل المشروع[٤٩].

* * *

ز ـ سياسة التودد والاستمالة:

أخذ السلطان عبد الحميد ـ في الناحيتين المعنوية والدعائية ـ بسياسة التودد، إلى الشخصيات ذات النفوذ في الأوساط الشعبية في مختلف البقاع. فمن ناحية كان يظهر احترامه لأهل العلم، ويعلي من قدرهم، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ، ورتّب رواتب لأعضائه. وكان حسن النية مع مرشديهم. وكان أرباب العلم ذوي رتب عالية.

ومن ناحية أخرى، يتودد إلى الشخصيات البارزة التي تؤيد أفكاره، مثل (مصطفى كامل باشا) في مصر. ويصبر على أخطاء

---

(٤٩) قارال ص ٤٦٧.

البارزين ـ إذا كانوا يحسنون النية معه، ما داموا يؤازرونه في فكرة الجامعة الإسلامية ـ مثل (نامق كمال).

ومن سياسة الاستمالة هذه، إنشاء مدرسة العشائر العربية في استانبول، وهؤلاء الطلاب كانوا يختارون بالقرعة من ناحية ومن ناحية أخرى كان يختار بعض طلبتها من أبناء العائلات الأصيلة العريقة ذات النفوذ والسطوة والسمعة الطيبة من أبناء زعماء العرب. وقد توسعت هذه المدرسة فيما بعد فأخذت أيضاً من أبناء الأكراد والألبان.

ولما وجد السلطان عبد الحميد أن بريطانيا تتصل بشيوخ القبائل العربية لتحريضها ضده ـ كما جاء ذلك في مذكرة الكولونيل (هربرت تشارم سايد) التي أثبتت اتصال بريطانيا (بشريف مكة) و (بالشيخ حميد الدين) وشيخ عسير وبعض شيوخ القبائل ـ وتحرضهم بواسطة جواسيسها المنتشرين بكثرة في البلاد العربية، بالخروج على طاعة السلطان عبد الحميد، والانفصال عن الدولة العثمانية. لم يكتف السلطان بالسؤال المباشر عن هؤلاء، كما سأل شريف مكة عن سر اتصاله بالإنكليز عن طريق قناصلهم، ولم يكتفِ بتحذيره من عاقبة عمله، وإنما أرسل خطابات الود إلى رؤساء القبائل والأمراء في جزيرة العرب وغيرها، ومعها الرسل لاستمالة هؤلاء، وأرسل إليهم الرتب والنياشين(٥٠).

* * *

(٥٠) الغامدي ص ٨٢ ـ ٨٣.

لكن السلطان عبد الحميد، لم يتوان أيضاً عن «حجز» الذين يشك في ولائهم له وللخلافـة في استانبول تحت مسميات المناصب والمرتبات، حتى يأمن انقلابهم ضده، كما فعل مع شريف مكة عندما عيّنه عضواً في مجلس شورى الدولة في استانبول، ليمنعه من العودة إلى مكـة. وقد عبّـر السلطان عبد الحميد عن رأيه في الشريف حسين، أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا. قال السلطان عبد الحميد: «إن الشريف حسين لا يحبنا. إنه الآن هادىء وساكن، لكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً!»(٥١).

* * *

لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين إلى ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبد الحميد.

فلما حكم الاتحاديون، أعادوا الشريف حسين إلى مكة. ومن هناك قام بثورته، وحدث الانفصال بين العثمانيين وبين العرب.

* * *

(٥١) جلال الدين باشا، عكس الوسام، استانبول ١٩٧٠ ص ٨.

البَابُ الرَّابع

المُعَارَضَة في عَهْدِ السُّلطان عَبْدالحميد

الفَصل الأوَّل

معَارضَة أَصحَاب الأديَان الأخرى والمذاهبْ الفكريَّة الوَافدة مِنَ الغَربْ

أ ـ المعارضة اليهودية:

١ ـ المعارضة اليهودية باسم العلم:

ـ المستشرقون اليهود في أوربا:

كانت معارضة اليهود تنقسم إلى قسمين؛ الأول نظري: وهو عبارة عن نشاط المستشرقين اليهود في أوربا. فقد كان لهؤلاء المستشرقين المبادرة في التنظير للقومية التركية بكتاباتهم ونشرياتهم، وعلى رأس هؤلاء الذين ابتدعوا الفكرة القومية الطورانية كل من (لاملي دافيدز) و (ليون كاهون) و (فامبري). وهؤلاء أسهموا بالفكر والتأييد لجمعية «الاتحاد والترقي». والأخير منهم عمل فترة مستشاراً للسلطان عبد الحميد، لكنه كان في الواقع جاسوساً لبريطانيا، وكان السلطان يدرك حقيقته، لكنه لم يُظهر في أي وقت من الأوقات معرفته بذلك.

أما أبرز المفكرين اليهود في الخارج من غير المستشرقين، فهو (إميل دوركايم) اليهودي الفرنسي صاحب المذهب

الاجتماعي والذي نَظَّر للقومية. وترك آثاراً في فكر رائد القومية التركية وفيلسوفها (محمد ضيا كوك آلب).

وكان المستشرقون اليهود في أوربا على صلة فكرية بالمفكرين القوميين اليهود داخل الدولة العثمانية. وهؤلاء الأخيرون كانوا «العقل المفكر» لجمعية «الاتحاد والترقي». وكان تأثير يهود الداخل عظيماً في أوساط الضباط الشبان أعضاء الخلايا السرية للاتحاد والترقي.

ـ المفكرون اليهود في داخل الدولة العثمانية.

أبرز يهود الداخل هو: (موئيز كوهين). وكان يكتب باللغة التركية في الصحف والمجلات التركية. وكان عضواً أساسياً في جمعية الاتحاد والترقي. ومن مهماته التعريف بجمعية (الاتحاد والترقي) والدعاية لها في الصحف الأوربية. وأسهم (موئيز كوهين) في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية، التي سارت عليها فيما بعد حكومة الاتحاد والترقي بعد خلع السلطان عبد الحميد. وكان تأثير (موئيز كوهين) خطيراً ولا سيما في الجيش العثماني، فيما يتعلق بضرورة قيام دولة تركية طورانية، تجمع أتراك العالم في دولة واحدة، وبضرورة تتريك البلدان التابعة للدولة العثمانية. وهذه الفكرة هي أول سبب جوهري في نفور العرب من الأتراك.

ومن يهود الداخل أيضاً (أبراهام غالانتي) الكاتب والمفكر البارز.

ومن العلامات البارزة من يهود الداخل (إيمانويل قراصّو) وهو

أستاذ أعظم في الماسونية، ومن كبار مسؤولي الاتحاد والترقي وعضو الوفد الذي قابل السلطان عبد الحميد لإبلاغه بقرار خلعه[1].

٢ ـ المعارضة اليهودية الحركية:

● حركة هرتزل:

والقسم الثاني من المعارضة اليهودية، عملي حركي: تمثل في الحركة اليهودية الصهيونية العالمية التي تزعمها (تيودور هرتزل) الذي استطاع جمع التأييد الأوربي للمسألة اليهودية: ألمانيا وبريطانيا وفرنسا، وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبد الحميد، وطلب فلسطين منه. وكان القيصر الروسي فقط ولأسباب دينية يكنّ الكراهية الشديدة لليهود، وهو الوحيد الذي رفض مؤازرة (هرتزل) والطلب اليهودي.

جاء (هرتزل) ليقابل السلطان عبد الحميد، وطلب إقامة وطن يهودي في سنجق القدس. وكان يتكلم مع السلطان باسم اليهود الصهاينة. ولكن أساس مطلب (هرتزل) إقامة قرى يهودية في فلسطين في مكان تحدده الحكومة العثمانية، وتعهد بأن يتّبع اليهود القادمون من الخارج قوانين الدولة العثمانية.

وتعهّد (هرتزل) بأن يقدم اليهود في مقابل هذا «الخدمات والتسهيلات اللازمة للدولة العثمانية للقضاء على مشاكلها المالية الناجمة عن ديونها الخارجية» على أن يقدم (هرتزل) المستندات

---

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٥١.

اللازمة ضماناً كتابياً. ورأى السلطان عبد الحميد مجموعة موانع في هذا. وكان يرى أن «فلسطين بمقاماتها المباركة تشكل أرضاً للمطامع والطموحات السياسية».

وكما أشير من قبل أصدر السلطان عقب هـذا: إرادتين سلطانيتين: الأولى في ٢٨ يونيو والثانية في ٧ يوليو من عام ١٨٩٠ م. يقضيان: بضرورة «عدم قبول الصهاينة في البلاد العثمانية، وإعادتهم إلى الأماكن التي جاؤوا منها». وأمر السلطان عبد الحميد نظارة الشؤون العقارية، بعدم بيع أراضٍ للمهاجرين إلى فلسطين.

ولما وجد اليهود ـ وعلى رأسهم هرتزل ـ ألّا فائدة من اكتساب السلطان عبد الحميد، وأنهم لا يمكنهم تحقيق آمالهم في إقامة وطن لهم، على حساب المسلمين في فلسطين. تحـركت اليهودية العالمية، لتدعيم أعداء السلطان عبد الحميد، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون في البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية(٢).

* * *

● **مؤامرة اليهودي (نوردلنج) لاغتيال السلطان عبد الحميد:**

وهي مؤامرة اليهودي السويدي الذي ادّعى الإسلام، وسمّى نفسه «علي نوري» ودخل في سلك الدولة العثمانية، وكان يحمل بطاقة عليها اسمه ووظيفته «علي نوري بك قنصل أول عثماني

---

(٢) المصدر السابق ص ٤٣.

سابقاً». دخل البلاد العثمانية وهو في الثامنة عشرة من عمره، وادعى الإسلام. وقابل هرتزل ـ وكان في الواحد والأربعين من عمره ـ وعرض عليه فكرته، وهي عبارة عن: «بارجتين لا يكلفان أكثر من (٤٠٠,٠٠٠) ليرة ذهبية عثمانية، والمسألة كلها لا تكلف أكثر من نصف مليون ذهباً عثمانياً أي يبقى (١٠٠,٠٠٠) منها، وتأجير ألف رجل. تدخل البارجتان البسفور وتدمران قصر يلديز، بحيث يُقبض على السلطان عبد الحميد، أو تُغمض العيون عن فراره، وينصّب مكانه سلطان آخر، ويُعلن قيام حكومة مؤقتة، وعن طريقها يحصل اليهود على امتياز فلسطين».

ولم يتم الاتفاق الكامل بين (هرتزل، ونوردلنج) لأن الأول خاف ـ فيما بعد ـ من حدوث مجزرة لبني جلدته اليهود داخل الدولة العثمانية إذا فشلت هذه المؤامرة[٣].

* * *

ب ـ المعارضة النصرانية:

١ ـ في مصر:

كان الحزب الوطني في مصر وعلى رأسه (مصطفى كامل باشا) يقول: إن الوسيلة الوحيدة للتخلص من الإنكليز في مصر، هو التوجه نحو الدولة العثمانية، وتأييد سياسة السلطان عبد الحميد.

---

(٣) حكمت طانيو، المرجع السابق جـ ١ ص ٤٧١ وعن هرتزل في مذكراته في يومي ١٩٠٤/٢/٢٤ و١٩٠٤/٤/١٠ م. ومقال شاهين ألب آي في هذا الخصوص في مجلة المجتمع والتاريخ العدد ٣ عام ١٩٨٤.

«وكان الشباب الأقباط يجدون بعض الأشياء من الدعوة الدينية، في الحزب الوطني وكذلك الدعوة العثمانية، وكان منطقهم يقول: إذا كنتم تدعون إلى جامعة إسلامية، وإلى تأييد الحقوق العثمانية، فإن لنا الحق في الاعتماد على الاحتلال البريطاني»(٤).

وكانت الصحافة القبطية في مصر، هي أبواق المعارضة: صحيفة الوطن وصحيفة مصر. وكانت صحيفة الوطن تكثر من الطعن في السياسة العثمانية وتنتقد مواقف الدولة العثمانية وناصرت صحيفة الوطن القبطية الإنكليز وحملت على الجامعة الإسلامية(٥).

ووقفت صحيفة مصر موقفاً عدائياً من الدولة العثمانية، أثناء الحرب العثمانية ـ اليونانية عام ١٨٩٧ م. وزعمت صحيفة مصر ـ عندما وجدت حماسة المصريين لمناصرة الدولة العثمانية، وتأييد الخليفة السلطان عبد الحميد ـ «إن الدولة العثمانية ليست بحاجة إلى هذه المساعدات، وإذا كان لا بد من التبرعات، فليكن ذلك باسم غير اسم الجامعة الإسلامية»(٦).

ويدخل ضمن المعارضة النصرانية في مصر، الصحف الشامية النصرانية المهاجر أصحابها إلى مصر وهي: صحيفة «المقطم» المؤيدة للسياسة الإنكليزية. والتي دأبت على الطعن

(٤ إلى ٦) سلامة موسى في مذكراته في مجلة الكاتب المصري المجلد ٣ العدد ١٠، وجريدة الوطن (المصرية) في ١٥ يونيو ١٩٠٨ على الترتيب نقلاً عن الشوابكة صفحات ١٧١ ـ ١٧٢ و ١٧٤ و ١٠٤ على التوالي.

في الدولة العثمانية ورجالاتها، والتعريض بسياساتها الخارجية والداخلية، وخاصة أحوالها المالية. ووقفت إلى جانب الفئات الثائرة على الدولة العثمانية، وأكثـرت الحديث عن الأرمن وثوراتهم وأوضاعهم في الدولة العثمانية.

ونكاية في السلطان عبد الحميد، أفسحت جريدة «المقطم» لأعضاء حزب الاتحاد والترقي الهاربين إلى مصر فرصة الكتابة فيهـا، ومهاجمـة السلطان عبد الحميـد، والـطعن فيـه على صفحاتها. وعارضت المقطم كل أساليب الدعم، التي أبداها المصريون للدولة العثمانية في أزماتها المالية، وفي حروبها مع أعدائها. وطالبت المقطم الحكومة المصرية بنشر منشور في الصحف يؤكد أن الإعانات التي يجمعها المصريون ليست من أجل جهاد الدولة العثمانية، وإنمـا من أجل إعـانة الـدولة العثمانية.

ومن هذه الصحف أيضاً صحيفة «الضياء» التي أنشأها في القاهرة إبراهيم اليازجي عام ١٨٩٨ م. وكانت سيفاً مسلطاً على العثمانيين، وصحيفة «المشير» التي أصدرها (سليم سركيس) في الإسكندرية عام ١٨٩٤ م. وانتقلت في عام ١٨٩٩ م، إلى نيويورك. وكانت شديدة كل الشدَّة على العثمانيين وعلى الحكم العثماني، وعلى الجامعة الإسلامية. فقد كانت «المشير» ترى ضرورة هدم كيان الخلافة العثمانية. وكانت تحرض السوريين على الثورة ضد الحكم العثماني، لدرجة أن محكمة الجزاءات في مصر أصدرت أمرها بتسليم (سليم سركيس) صاحب هذه

الجريدة إلى السلطات العثمانية. وطلبت ولاية بيروت من مصر تسليمها إياه، ورفض اللورد (كرومر) المعتمد البريطاني في مصر تسليمه بل وفّرَ له الحماية الكافية.

ومن صحافة السوريين النصارى في مصر، التي كانت ضد الحكم العثماني ومعارضة للجامعة الإسلامية صحيفة «تحرير سوريا» التي صدرت عام ١٩٠١ م بالقاهـرة عن جمعية الإصلاح السورية. وكان يشرف عليها (جورج عسّاف).

٢ ـ في الشام:

اتخذت معارضة حكم السلطان عبد الحميد في الشام شكل جمعيات أدبية وعلمية أعضاؤها من النصارى العرب وعناصر من النصارى الأجانب، وعملت بعد ذلك على «ضمّ عناصر إسلامية إلى عضويتها للتغطية على طبيعتها وأهدافها»(٧).

ورغم المسميات التي اتخذتها هذه الجمعيات؛ إلا أن محور عملها ونشاطها كان معاداة الحكم العثماني، ومعارضة التجمع الإسلامي، وحركة الجامعة الإسلامية، والعمل ضد السلطان عبد الحميد، واتهام العثمانيين باغتصاب الخلافة بدعوى أن العرب أحق بها.

وظهر في الشام كتّاب نصارى ينـاهضون حكم السلطان وسياسته في الجامعة الإسلامية. أبرزهم (شبلي شميل) وهو أرثوذكسي، اعتنق نظرية (داروين) في التطور وروّج لها في البلاد

---

(٧) المصدر السابق.

العربية، ودفعه كرهه للسلطان عبد الحميد، إلى أن ينضم لمناوئيه من جماعة تركيا الفتاة.

و «نجيب العازوري» أيضاً من هؤلاء الكتّاب، وهو أرثوذكسي، وعمل في خدمة الدولة العثمانية في القدس. وهو الذي كوّن عصبة الوطن العربي في باريس لمناوئة الحكم العثماني. وأصدر من فرنسا مجلة شهرية بالفرنسية، بعنوان «الاستقلال العربي» وكان نجيب العازوري هذا ينادي ـ أثناء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ـ إلى نزع الخلافة من العثمانيين، ونقلها إلى العرب. كما دعا ـ مثله في هذا مثل (شبلي شميل) ـ إلى علمانية دولة الخلافة العربية عند إنشائها، وذلك بإقامة سلطتين واحدة منهما روحية في الحجاز والأخرى زمنية في أي مكان.

وكانت الصحافة السورية النصرانية مناوئة للعثمانيين وللجامعة الإسلامية، ومن أبرز عناصر هذه الصحافة: صحيفة (الجنان) التي أنشأها (بطرس البستاني) في يناير عام ١٨٧٠ م. وصحيفة (مرآة الأحوال) التي أنشأها (رزق الله حسون) في استانبول عام ١٨٥٤ م. ثم نقلها إلى لندن عام ١٨٧٦[٨].

---

(٨) أنشأ لويس صابونجي الحلبي جريدة عربية في لندن وسمّاها (القِبْلَة) ودعا فيها إلى نقل الخلافة إلى العرب ويجدر بالذكر هنا أن «المؤتمر العربي» عقده القوميون العرب في باريس عام ١٩١٣ م وقال فيه الرصافي شاعر العراق:

لو كان في غير باريس اجتماعهم ... ما كنت أحسبهم قوماً مناحيسا =

٣ ـ في المناطق التابعة للدولة في أوربا:

كانت المناطق العثمانية في أوربا، تغلي بالحركات الانفصالية والاستقلالية. وكان المحرك لهذه الحركات كل من (المذهب القومي) وتحريض (روسيا وإنكلترا والكنيسة). والذي نورده هنا هو دور الكنيسة في الحركة البلقانية ضد الدولة العثمانية.

كانت سياسة العثمانيين ـ بعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية ـ هي عدم التدخل في شؤون أهالي الديانات الأخرى. ولم تتدخل الدولة بالتالي في شؤون الكنيسة. وكان لكل كنيسة مدارسها ومؤسساتها. والدراسة في هذه المدارس يقوم بها الرهبان والقسس. وتحولت الكنيسة إلى «حكومة داخل الحكومة».

لكن البطارقة ورجال الدين الأرثوذكس، أساؤوا استخدام هذه الامتيازات الممنوحة لهم.

قامت البطريركية؛ بإيقاظ المشاعر القومية لدى «الشعب» النصراني الذي تجمّع حول الكنائس، واطمأن لقيادة البطريركية. وازداد هذا الاهتمام بالمشاعر القومية مع مرور الأيام. كما أعلنت البطريركية نفسها حامية وموجهة، لمبدأ إحياء بيزنطة من جديد، وطرد العثمانيين من البلقان وأوربا والأناضول إلى صحراء آسيا الوسطى كما جاؤوا منها.

لم تكتف البطريركية، بإشعال نيران الإحياء البيزنطي بين

= وقد أعدم جمال باشا والي سوريا وأحد أقطاب الاتحاد والترقي الثلاثة الكبار عدداً كبيراً منهم أثناء الحرب العالمية الأولى.

أتباعها في أوربا العثمانية، عن طريق مدارسها وقسسها ـ هؤلاء المعلمين المدربين لهذا الأمر ـ بل ألغت البطريركية اللغة العثمانية ـ وهي لغة الدولة ـ من مدارسها مع التوسع في تدريس اللغة اليونانية.

وتعاونت البطريركية، مع جمعية «إيتريا» السرّية ـ التي أسست لتنفيذ فكرة الإحياء البيزنطي ـ في قيام تمرد (المورة) ضد الدولة العثمانية. كما ساعدت البطريركية اليونان في مشروعاتها التوسعية على حساب الأراضي العثمانية، كما آزرت البطريركية اليونان عندما أعلنت هذه الحرب، واخترقت الحدود العثمانية عام ١٨٩٨ م.

كما كانت البطريركية، هي التي تدير تمرد (كريت) الذي أرهق الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد.

ولقد عبّر (فنزيلوس) ـ فيما بعد ـ عن دور البطريركية في تحقيق الآمال الدينية والقومية الرومية اليونانية في منطقة أوربا العثمانية على حساب العثمانيين في عبارته: «إن دور العبادة والمدارس التابعة للبطريركية قد تحولت إلى مخازن للأسلحة» ضد السلطان عبد الحميد، وضد الدولة العثمانية. ومعنى هذا «إن البطريركية ومؤسساتها قد قامت ـ عبر التاريخ ـ بدور المراكز السياسية والقواعد العسكرية».

وبلغ من حماس البطريركية، أن قامت ـ فيما بعد ـ بقيادة أتباعها في هجوم ليلي مفاجىء على جامع أياصوفيا في استانبول

لاحتلاله، كرمز لفكرة الإحياء البيزنطي، وكان رجالها، يحملون معهم علماً يونانياً وناقوساً كنسياً[٩].

* * *

جـ ـ معارضة أصحاب المذاهب الفكرية الوافدة من الغرب:

كان للفكر الأوربي أثره الكبير، في قلب أوضاع الدولة العثمانية. وكان من جملة الأسباب التي أدّت إلى سقوطها مذاهب: القومية والإنسانية والعلمانية والديمقراطية الأوربية. وجاءت هذه المذاهب، لكي تكسب أنصاراً من الشباب العثماني ـ عن طريق الترجمة والابتعاث ـ فينضوي تحت لوائها، ومن ثم يعارض نظام الدولة العثمانية، التي يعيش في كنفها. وفي مقدمة هذه المذاهب: القومية.

١ ـ القوميون:

والقومية، كانت متبلورة بين الشباب العثماني واضحة ومرتبطة بالإسلام ويعبّر عنها بالملّية. والقومية في العالم العربي ارتبطت بالنصرانية، بمعنى: أن نصارى الشام حملوا لواء القومية وبمفهومها العلماني، ونشروا هذا عن طريق جمعياتهم وصحافتهم. وارتبطت القومية في منطقة أوربا العثمانية، بالكنيسة ارتباطاً جذرياً. ولم يعد من الممكن التفرقة بين النصرانية والقومية.

---

(٩) م. ثريا شاهين، البطريركية الأرثوذكسية اليونانية وتركيا، ص ٢٤٠، استانبول ١٩٨٠.

والقومية في الشام، ارتبطت أيضاً بحركة التنصير العالمية، وبالتعليم الأجنبي، في المدارس التي أقامها هناك كل من (الجزويت) و (الكاثوليك) و (البروتستانت) وغيرهم. وبثوا من خلالها الفكرة الدينية المرتبطة بالحث على الانفصال عن الدولة العثمانية. فالمنصرون البروتستانت أنشأوا كلية في بيروت عام ١٨٦٢ م. وجعلوا على رأسها (دانيال بِلِسْ) وتطورت هذه المدرسة لكي تصبح «الكلية السورية الإنجيلية» وهي اليوم «الجامعة الأمريكية» في بيروت.

وارتبطت القومية في الشام بالتنصير كما حدث في محاولة ما سُمّي بمحاولة «تحضير البدو في بادية الشام»، للوصول إلى اجتذاب أبنائهم إلى النصرانية. مما دعا السلطان عبد الحميد إلى الأمر بإغلاق مدارس المنصّرين (عام ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨ م).

وكان المنصرون يثيرون الفتن في الدولة العثمانية، ويتجسسون لدولهم سياسياً وعسكرياً، ويبعثون روح الفرقة بين رعايا الدولة العثمانية[١٠].

تمثّل النشاط القومي في الشام، في عدد من الشخصيات التي برزت على ساحة الأحداث، وقامت بدور بارز في نشر المؤلفات والكتب وإنشاء الصحف والمجلات التي تنادي في مضمونها بنشر فكرة (القومية العربية) بصورة خفية ومتحرزة.

---

(١٠) الغامدي صفحات ١٢٧ - ١٢٩ و ١٣٢ و ١٤٠ - ١٤١ وكذلك الشوابكة صفحة ٣٠.

كان من الدعاة القوميين في هذا المضمار أسماء كثيرة على رأسها (بطرس البستاني). إنه نصراني بروتستانتي احتك بعدد كبير من الإرساليات الغربية، وأسهم بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية. وأصدر قاموساً للغة العربية في جزأين بعنوان (محيط المحيط) واختصره تسهيلاً لانتشاره في مجلد واحد سمّاه (قطر المحيط) ووضع دائرة معارف البستاني. ولم يظهر منها إلّا ستة مجلدات في حياته ثم أتمّها أولاده حتى ظهر منها أحد عشر مجلداً. وهذا بجانب نشاطه الصحافي ومنه إصدار مجلة «الجنان» وكان (مدحت باشا) يشجعها عندما كان والياً على سوريا.

وكان بطرس حريصاً في كل نشاطه على عامل التثقيف، وبث الحياة القومية والأدب القومي في نفوس الشاميين[١١].

ورأى السلطان عبد الحميد أن النشاط الصحافي القومي قد تجاوز تجاوزاً كبيراً القوانين والأنظمة التي وضعتها الدولة العثمانية، واستهان بالدولة وبكيانها واستغلّ تساهل الحكومة في تطبيق هذه القوانين، فأصدر أوامره إلى الصدر الأعظم ـ وكان مدحت باشا وقتها ـ بإلغاء كل الصحف التي تصدر عن أحزاب داخلية وطائفية في البلاد العثمانية قاطبة. وأضاف إلى قانون الصحافة الذي كان صدر في عهد عمه السلطان عبد العزيز عام ١٨٧٨ م مواد جديدة رادعة لتكون مانعاً لأية منشورات تروج للأفكار الانفصالية، والقومية، من صحف وكتب وسواها[١٢].

(١١ و ١٢) المصدر السابق.

وكان لجمعية بيروت السرية، التي تأسست قبل اعتلاء السلطان عبد الحميد العرش بسنة واحدة، أثر كبير في تنمية الشعور المعادي للعثمانيين، وتهدف هذه الجمعية إلى انفصال سوريا ولبنان عن الدولة العثمانية واستقلالهما، وقد كوّنها نصارى الشام ثم دخلها غيرهم، وكان نشاطها يتمثل في إصدار المنشورات وإلصاقها في الشوارع تحت ستار الظلام. وتتضمن هذه مهاجمة النظام العثماني، ودعوة العرب إلى الثورة ضده، وتحطيم نظام السلطان عبد الحميد.

ظهرت هذه الجمعية أثناء حكم مدحت باشا والياً عثمانياً على سوريا. وقد اتُّهم مدحت باشا بأنه يعمل على استقلال سوريا، لذلك نُقل إلى إزمير والياً عليها(١٣).

والحقيقة: أنّ برنامج جمعية بيروت السرية، يقول بمنح الاستقلال لسوريا بالاتحاد مع لبنان على أساس قومي.

وفي مواجهة حكم السلطان عبد الحميد قامت جمعيات في سوريا بعد أن تفشّت فيها الروح القومية، مثل جمعية «المقاصد الخيرية» (قامت عام ١٨٧٨ م). وهذه الجمعية كانت مُدعمة من والي سوريا العثماني مدحت باشا المناهض للسلطان عبد الحميد. إلا أن الحكومة العثمانية لم تسمح لها بالاستمرار. وجمعية النهضة العربية (تأسست عام ١٩٠٦ م). وكان مركزها الرئيسي في استانبول والذي تحوّل بعد ذلك إلى «المنتدى

---

(١٣) المصدر السابق.

الأدبي» وكان فرعها في دمشق يحمل اسم «جمعية النهضة السورية». و«كانت غاية الجمعية الظاهرية نشر اللغة العربية وغايتها السرية إنقاذ بلاد العرب من مظالم العثمانيين في زعم مؤسسيها». و«تدعو إلى مناهضة الحكم العثماني، وتوحيد البلاد العربية، في دولة مستقلة عن الحكومة العثمانية، لها كيانها ومقوماتها الخاصة»(١٤).

* * *

أما القوميون في مصر فقد هاجموا الرابطة الدينية عموماً، والجامعة الإسلامية خصوصاً. ومثل اتجاههم «حزب الأمة» الذي قام رسمياً في مصر في ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ م برئاسة (محمود سليمان باشا)، وكان قوامه جماعة من الباشوات وكبار ملّاك الأراضي الزراعية، الذين لم يكن تفكيرهم السياسي وقتذاك يتجاوز مصالحهم الشخصية، التي كانت منسجمة إلى حد كبير مع مصالح الاحتلال، عندما عمد الاحتلال إلى تثبيت الملكيات الزراعية. مما أشعر كبار الملّاك بنوع من الطمأنينة. وكان منهم (أحمد لطفي السيد) المشهور بفيلسوف الجيل. وأصدر الحزب صحيفة «الجريدة» معبراً عنه(١٥).

---

(١٤) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق ص ٢١٦ نقلاً عن الغامدي ١٥٧.

(١٥) العقاد، مقال الأحزاب السياسية في مصر في جريدة أخبار اليوم القاهرية في ١٩١٦/١١/١٦ و«الجريدة» العدد ١٦٦٧ في ٢ سبتمبر ١٩١٢ نقلاً عن الشوابكة صفحتي ١٦٥ و١٦٨.

نادت صحيفة «الجريدة» بوجوب تقوية الشخصية المصرية، وزيادة ارتباطها بمصر، بديلاً عن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية. وفي هذا تقول: «... نجعل بلادنا ـ مصر ـ وأنفسنا على المشاع، وسط ما يسمى خطأً الجامعة الإسلامية»[١٦].

* * *

أما القومية عند الأرمن ـ أحد شعوب الدولة العثمانية ـ فقد ارتبطت بالنزعة الاستقلالية الدينية. وكان همّ الأرمن القيام بمضايقات للسكان المسلمين، من أكراد وأتراك وغيرهم ممن يعيشون معاً في نفس المنطقة: موش وأضنه وغيرهما من الأماكن التي يسكن فيها الأرمن وينادون بقيام دولة أرمنيـة فيها، أي منطقة شرق الأناضول. وكان السلطان عبد الحميد، يقف منهم موقفاً حـازماً. وبلغت المعـارضة القـومية الأرمنيـة ضـد السلطان عبد الحميد حـداً جعلهم يرتبون عملية للتخلص منه، وهي عملية تسمى (بحادث القنبلة). لقد اتفق القوميون الأرمن في عام ١٩٠٥ م مـع إرهابي دولي يدعى (إدوارد جوريس) وهو بلجيكي الجنسية أرمني الأصل على اغتيال السلطان.

وفي ٢١ يوليو ١٩٠٦ م أعـد هذا الإرهابي مع مساعدين له قنبلة موقوتة، بحيث تنفجر في لحظة معينة. هي لحظة خروج السلطان من المسجد عقب صلاة الجمعة، والمسجد هو مسجد يلديز. ثم اختبأ (إدوارد جوريس) في عربة تجرها الجياد، وكأنه

---

(١٦) المصدر السابق.

سائح أجنبي جاء يتفرج على مراسم الاحتفال بصلاة الجمعة. لكن السلطان تأخر عن توقيت الانفجار، لأنه توقف فجأة ليسأل شيخ الإسلام في مسألة. فتأخر عن التوقيت المعد للانفجار، فانفجرت القنبلة، ونجا السلطان لكن ٢٦ شخصاً قتلوا في هذا الحادث وجرح آخرون، وتدخلت السفارة البلجيكية لحماية (إدوارد جوريس) بمقتضى قانون الامتيازات الأجنبية. وكانت المفاجأة أن السلطان عفا عنه، ثم أنعم عليه بمبلغ (٥٠٠) جنيهاً عثمانياً ذهباً. أما المفاجأة الأكبر من هذا، أن السلطان عبد الحميد استمال هذا الأرمني لصالحه، واستخدمه في جهاز المخابرات العثمانية في أوربا(١٧).

* * *

وارتبطت المعارضة القومية في مقدونيا والبلقان عموماً من الأراضي العثمانية في أوربا ـ مثلما ارتبطت مع الأرمن ـ بالحركات الإرهابية، والرغبة في الانفصال عن الدولة.

لقد كان في منطقة مقدونيا فقط، مليون ونصف مليون مسلم، بين أتراك وألبانيين. بالإضافة إلى الرعايا النصارى من البلغار ويبلغون (٩٠٠,٠٠٠) نسمة، واليونانيين ويبلغون (٣٠٠,٠٠٠) نسمة، والصرب (١٠٠,٠٠٠) والبولنديين مثلهم أي (١٠٠,٠٠٠) نسمة.

لكن أوربا كانت متعاونة مع الرعايا النصارى في الدولة

---

(١٧) سينا آق شين، تركيا الفتاة والاتحاد والترقي استانبول ١٩٨٠ ص ٤٩.

العثمانية، تؤيدهم وتدفعهم لعملياتهم الإرهابية ضد المسلمين، وبالتالي ضد نظام الدولة العثمانية، تمهيداً لمساعدتهم في استقلالهم عن الدولة.

* * *

٢ ـ الماسونيون:

أقامت المحافل الماسونية جدار معارضة قوياً ضد السلطان عبد الحميد ونظامه. لقد تغلغلت في الدولة العثمانية تغلغلاً واسعاً، حتى وصلت إلى أفراد القصر. فقد كان الأمير (مراد) الأخ الأكبر للسلطان عبد الحميد ماسونياً. وهو الذي عرف بعد ارتقائه العرش باسم السلطان مراد الخامس، قبل سلطنة السلطان عبد الحميد مباشرة، ولقد جذبه إلى الماسونية الأمير (إدوارد) ولي عهد إنكلترا. والذي أصبح فيما بعد ملكاً على إنكلترا باسم الملك إدوارد السابع.

لقد التفَّت الماسونية حول السلطان عبد الحميد، منذ بدء جلوسه على العرش، حتى عزلته عن العرش. فقد كان أغلب وزرائه وصدوره العظام وأمناء القصر الحاكم، ماسوناً. «ووصل الأمر أن كان جمال الدين الأفغاني أحد أعمدة الدعاية للجامعة الإسلامية، التي نادى بها السلطان عبد الحميد، ماسونياً»(١٨).

* * *

كان أبرز الصدور العظام في عهد السلطان عبد الحميد ـ وهو

(١٨) الهامي صوى صال، المرجع السابق ص ٢٠٦.

(مدحت باشا) ـ ماسونياً. ويذكر الدكتور (حكمت طانيو) عميد كلية الإلّهيات في جامعة أنقرة ومؤلف كتاب «اليهود والأتراك عبر التاريخ» أن مدحت باشا يهودي الأصل. ويحيل هذا المؤلف على مرجعه في هذا وهو كتاب «يهود فرنسا» تأليف: إدوارد ودارمونت. المطبوع عام ١٨٨٩ م، في باريس في صفحة ١١٣ من المجلد الأول.

ونص الفقرة التي استشهد بها هذا المؤلف هي:

«إن (مدحت باشا) إنما هو ابن حاخام يهودي مجري. وهو ـ أي مدحت باشا ـ رائد حركة التجديدات المعروفة في الدولة التركية. وكان له فضل افتتاح مدارس تستند على المبادىء اليهودية، علّم فيها المبادىء الثورية. ومدحت باشا هو مؤسس حزب «تركيا الفتاة». وكل هذه الصروح، قد أقيمت بتعليمات من (سيمون دويتش) صديقه الكتوم في أوربا. إن جريمة قتل السلطان عبد العزيز، قد ارتكبت أمام مرأى ومسمع من مدحت باشا»[١٩].

وبلغ مدحت باشا من الشهرة في أوربا مدىً عميقاً جعل إنكلترا تعد خطة لتهريبه على ظهر بارجة إنكليزية من منفاه في الطائف ويُذكر هنا لجوؤه. عندما أرادت منه المحاكم العثمانية المثول أمامها في مسألة مقتل السلطان عبد العزيز ـ واحتماؤه بالسفارة الفرنسية في استانبول.

---

(١٩) طانيو، المرجع السابق ص ٢٥٦ ـ ٢٦٠.

كـانت مخـابـرات السلطان عبـد الحميـد، تتتبـع نشـاط الماسونيين، رغم أنهم كانوا يحتمون بالسفـارات الأجنبية، ويلجأون إلى الشخصية الأجنبية التي تتمتع بالحماية، حسب قانون الامتيازات الأجنبية.

ورغم كل احتياطات السلطان عبد الحميـد، فقد تغلغـل الماسون في حزب الاتحاد والترقي ورؤساء هذا الحزب ـ في أغلبهم ـ من الماسون.

كانت المحافل الماسونية، موجودة في استانبول. وكان في سلانيك محفل ماسوني هو محفل «مقدونيا ـ ريزورتا» التابع للمحفل الإيطالي الأكبر. كما كان فيها محفل «لاافنيير دي لورينت» التابع للمحفل الفرنسي الأكبر. ومحفل «فريتاس» التابع لمحفل الشرق الفرنسـي وغيرهم.

ولعب محفل «مقدونيا ـ ريزورتا» دوراً كبيراً في حركة إسقاط السلطان عبد الحميد، ذلك لأن قادة الاتحاد والترقي الكبار كانوا أعضاء فيه وهم: (طلعت باشا) و (مدحت شكري بلادا) و (كاظم باشا) و (مانياس زاده رفيق) و (كاظم نامي ضورو)، والبكباشي (نقي) عضو مجلس المبعوثان عن ولاية (مـوش) و (حسين محيي الدين) قائد قوات الجاندارما بمنطقة دراما.

أما محفل (فريتاس) فكان له أيضاً النصيب الكبير في حركة حشد القوى الثورية .في حركة إسقاط السلطان عبـد الحميد. لأن المتنسبين إليه كانوا الجزء الآخر من كبار قادة الاتحاد والترقي وهـم: إيمانويل قراصّو (يهودي دونمه عثماني) و (جمال باشا)

و (فائق سليمان باشا) و (إسماعيل جانبولاط) والشيخ (فهمي أفندي) عضو مجلس المبعوثان عن منطقة كومولجنة في تراقيا الغربية (في اليونان الآن) و (مصطفى نجيب)، وإنْ تميّز كل من (طلعت باشا) الذي أصبح الصدر الأعظم في حكومة الاتحاد والترقي، والبكباش (نقي بك) باشتراكهما في أعمال المحفلين: «مقدونيا ـ ريزورتا» و «فريتاس».

ولم يستطع الماسونيون إقامة منظمة ماسونية داخلية ـ أي عثمانية ـ إلا بعد أن أسقطت المحافل الماسونية التابعة للقوى الخارجية السلطان عبد الحميد[٢٠].

* * *

٣ ـ العلمانيون:

العلمانية ـ كمبدأ غربي واحد ـ يمكن أن يشترك فيه القوميون الذين لا يعطون للدين أهمية في الحكم وفي الحياة. وهؤلاء يمكن أن يكونوا من النصارى كما يمكن أن يكونوا من المسلمين.

ومن الشام نماذج واضحة لهذا النوع من المفكرين على الجانب النصراني. أما عن الجانب المسلم فيمكن إدراج نموذج منه هو الشيخ (عبد الرحمٰن الكواكبي).

وعبد الرحمٰن الكواكبي من دعاة الفكرة الوطنية المجردة من

---

(٢٠) الهامي، المرجع السابق ٢٠٨ ـ ٢١١.

الدين، لذلك ناهض وعارض الجامعة الإسلامية كثيراً. وكذلك كان في مقدمة المعارضين للسلطان عبد الحميد.

لقد تأثر عبد الرحمٰن الكواكبي بالمفهوم الكنسي لطبيعة النظام السياسي. وكان ذلك من خلال مطالعاته لكتابات مفكري الثورة الفرنسية. واقترب في هذا من هؤلاء الذين عارضوا وعادوا الجامعة الإسلامية من معاصريه من نصارى الشام مثل نجيب العازوري(٢١).

* * *

يرى (عبد الرحمٰن الكواكبي) أن الدين يقتصر على أمور الآخرة، وألّا علاقة له بأمور الدنيا، التي يمكن أن ينظمها الناس باجتهاداتهم وقوانينهم الدنيوية. ويقول في هذا: «. . . دعونا نتدبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الآخرة فقط». وقد أخذ عليه معاصروه دعوته المبكرة للعلمانية الداعية لفصل الدين عن الدولة، فقال عنه الشيخ (محمد رشيد رضا) ـ وهو معاصر له ـ ما يأتي: «. . إننا خالفناه في مسائل عدّة وعلى رأسها مناداته بالفصل بين السلطتين الدينية والسياسية»(٢٢).

* * *

أقام (عبد الرحمٰن الكواكبي) في مصر قرابة عامين، وهو يعمل ضد سياسة السلطان عبد الحميد. وبلغت شهرته في مصر

(٢١ و٢٢) بطرس غالي، الكواكبي والجامعة الإسلامية ص ٣٩ ومحمود السمرة مجلة العربي عدد أبريل ١٩٦٥ وطبائع الاستبداد ص ١٠٠ ـ ١٠١ على التوالي نقلاً عن الشوابكة صفحتي ٧٤ و ٧٥.

مكانة كبيرة، وقرّبه الخديوي عباس حلمي إليه وتوثّقت الروابط بينهما. وكان الخديوي يعمل من أجل تحويل الخلافة الإسلامية من الدولة العثمانية إلى العرب، على أن يكون هو سلطانها الزمني، والشريف حسين خليفتها الروحي. وبهذا تصبح مصر بدلاً من الدولة العثمانية المركز السياسي للدولة الإسلامية. وقد ذكر عبد الرحمٰن الكواكبي اسم عباس في مقدمة كتابه «طبائع الاستبداد» الذي كتبه على شكل سلسلة مقالات في صحيفة «المؤيد» القاهرية ابتداءً من ١٥ أكتوبر عام ١٩٠٠ م. وكانت مقالاته شديدة اللهجة والجرأة، تحوم حول الاستبداد وتهاجم السلطان عبد الحميد وسياسته. وعندما جمع هذه المقالات لينشرها زاد عليها. وفي كتابه «أم القرى» ينقد أيضاً الكواكبي الإدارة المركزية في الدولة العثمانية، ويدعو دعوة صريحة لإقامة خليفة عربي قرشي في مكة المكرمة، وليس في استانبول، ويحمل حملة شعواء على العثمانيين(٢٣).

* * *

ويعتبر الكواكبي أيضاً مثالاً للقوميين العرب الذين ركّزوا جهودهم للدعوة لانفصال العرب عن الدولة العثمانية.

* * *

٤ ـ دعاة الإنسانية الأوربية:

وهم الذين يتبعون المذهب المسمى بالإنسانية، وهو في المنطوق الأوربي «هيومانيزم» ويعنون به عشق الإنسانية، أو حب

---

(٢٣) الغامدي ص ٢٧٧ و ٢٧٨.

الإنسانية، في المعنى الفلسفي. ومن معاني الكلمة في الأدب، التخلص من سطوة الدين والتعصب، والأخذ بالمدنية الأوربية الجديدة. فالإنسانية مصطلح مموّه، يتخفى تحت شعار عشق الإنسانية، ويدعو للانسلاخ من الدين. والإنسانية بهذا المعنى مذهب شاع في أوربا في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن العشرين. وانتشر في الدولة العثمانية عن طريق الترجمات عن اللغات الأوربية، وعن طريق طلاب البعثات الموفدين إلى الخارج.

ومن ممثلي هذا المذهب الفلسفي الأدبي في الدولة العثمانية، الشاعر (توفيق فكرت)، وهو تركي ولد في استانبول، ويعتبر أكبر شاعر في مرحلة أدبية واضحة في تاريخ الأدب العثماني، وتسمى مرحلة ثروة الفنون. وهذا الشاعر هو الذي فتح المجال الأدبي لظهور الأدب الملحد، وأدب الواقعية الاشتراكية «الماركسي» في تركيا.

وتنقسم أعمال (توفيق فكرت) إلى فكرتين أساسيتين عنده هما: الأولى: الإلحاد، والثانية: مهاجمة السلطان عبد الحميد والنظام العثماني كله. وتوفيق فكرت يقول بصراحة في أشعاره: «أنا لا أعرف المعبود ولا أعرف العابد. وليس لي كتاب إلا الطبيعة. أما الدين ـ إن كان لا بد من دين ـ فهو الحياة». و «أنا هو أنا، وأنت أنت وبالتالي فلا رب ولا عباد».

وكان (لتوفيق فكرت) موقف، عندما قامت عصابة أرمنية، على رأسها (إدوارد جوريس) بمحاولة قتل السلطان عبد الحميد

بعد صلاة الجمعـة، ولكن القنبلة انفجرت دون أن تصيب السلطان بأذى، فحزن (توفيق فكرت) ونظم قصيدة يحيّي فيها الأرمني الذي حاول اغتيال السلطان. وأسف فيها لعدم مقتل السلطان عبد الحميد. هذه القصيدة تسمى «لحظة تأخر» ويقول فيها:

أيها الصياد العظيم

نعم لقد أطلقت السلاح. لكن للأسف

لأنك لم تصبه[٢٤].

* * *

٥ ـ العقلانيون (الوضعيون):

غزت العقلانيـة البلاد العثمـانية في القـرن التاسـع عشر الميلادي، كما غزت كثيراً من بلاد المسلمين. وظهر عقلانيون يدعون إلى الثقة في قدرة العقل المطلقة. وينكرون الغيب ويعلنون سيادة الحقائق العلمية. ومؤسس هذا المذهب الفكري هو (أوغست كنْتْ) (تنطق الكاف في كَنْت أقرب إلى القاف) وهو يهودي من أرباب الماسونية في فرنسا[٢٥].

* * *

---

(٢٤) طانيو، المرجع السابق ص ٤٧٢.

(٢٥) سيد كمال، معجم الأدب (باللغة التركية أيضاً) استانبول ١٩٧٨ صفحة ٣١٦.

وأبرز ممثل لهذا الفكر الوافد، هو: (أحمد رضا بك).

وكان أحمد رضا بك من رجال التربية والتعليم في الدولة العثمانية، في عهد السلطان عبد الحميد. سافر إلى باريس عام ١٨٨٩ م. وأقام هناك، ودرس المذهب العقلاني، وآمن به، وكان أحمد رضا بك من الاتحاديين (من الاتحاد والترقي) بل وأصبح رئيس شعبة الاتحاد والترقي في باريس. وأصدر هناك جريدة «مَشْوَرَتْ» لمناوأة حكم السلطان عبد الحميد. وعاونه في إصدارها كل من «ألبرت فووا» وهو يهودي من سلانيك، و «آريستيد باشا» وهو رومي كاثوليكي يوناني و «خليل غانم» وهو عربي ماروني لبناني.

اعتنق أحمد رضا بك المذهب العقلاني، وكان يداوم ـ وهو في باريس ـ على دروس «لافيت» كبير العقلانيين، وفيلسوفهم في ذلك الوقت.

* * *

كان أحمد رضا بك يرى ضرورة القضاء على حكم السلطان عبد الحميد، وإقامة حكم معاصر يتبع تيارات العصر، وإعطاء ثِقَل لخريجي المدارس العصرية والحديثة، ثقل في أجهزة الحكم، وإعطاء الحقوق السياسية الكاملة لغير المسلمين. ويقول: إن هذا من شأنه ضمان دوام الدولة العثمانية، بعد أن أصبحت نهباً للقوى الأوربية، والعمل على نهضة البلاد، ولا يهم ـ في رأيه ـ اتجاهات الأشخاص من إيمان بالعقلانية، أو الإسلام، أو القومية التركية، أو عدم المركزية، أو الرابطة

العثمانية، أو التغريب، ما دام الكل يعمل لحل مشكلة الدولة أي النهوض بها.

كانت جريدته «مشورت» تصدر في باريس باللغة الفرنسية، ضد نظام السلطان عبد الحميد. ويشترك معه في إصدارها اليهود والروم والمارون. ويتحدث أحمد رضا بك في العدد الأول من «مَشْوَرَتْ» (٣ ديسمبر ١٨٩٥ م) عن برنامج حزب الاتحاد والترقي يعبّر فيه عن روح وطنية واضحة، ومقاله هذا يعكس فكره هو، لأنه لا يتحدث فيه عن الدستور والديمقراطية - شغل الاتحاد والترقي الشاغل - أكثر مما يبرز فيه تفكيره ومنهجه العقلاني.

ويدعو أحمد رضا بك - في جريدة «مَشْوَرَتْ» في نسختها التركية - إلى أنه لا يمكن الانتفاع بالدستور، طالما أن الجهل موجود، وأنه من الضروري الاتجاه إلى التربية، ونشر العلوم والمعارف. وأن الذي يكسب لقمة عيشه بعرق جبينه، هو الرجل الذي لا يبحث عن منفعته في الإضرار بالآخرين، فلا بد من إعداد هذا الرجل. وعندما نفتقد هذا الرجل، فلن يفيد الدستور شيئاً. هذا رغم أن بقية الاتحاديين يرون في الدستور همهم الأول.

لكن أحمد رضا بك عاد ليعدل في آرائه هذه، بعد أن وجد معارضة الاتحاديين له في النظرة إلى ضرورة الدستور[٢٦].

* * *

(٢٦) آق شين، المرجع السابق ص ٢٨ - ٢٩.

الفَصْلُ الثَّاني

مَعارَضَة بَعض كبار الشخصيّات الإسْلاميَّة
(نَماذِج)

كان بعض من الحكام وعلماء الدين، وكبار الشخصيات الإسلامية المشهورة، يعارضون حكم السلطان عبد الحميد. الحكام مثل الشريف (حسين) شريف مكة المكرمة، ومثل والي مصر العثماني الخديوي (عباس حلمي). الحكام كانوا مدفوعين بفعل نقل الخلافة إلى العرب، والعلماء كانوا مدفوعين في هذه المعارضة بالحكم الفردي، الذي زاوله السلطان بعد توليه الحكم بقليل، وشارك العلماء في هذا بعض كبار المسلمين.

وغني هنا عن البيان أن نقول: إن السلطان عبد الحميد بدأ حكمه دستورياً، وكان موافقاً لآراء (مدحت باشا) وصحبه، لكن السلطان ضاق فيما بعد بهيمنة رجال تركيا الفتاة، أو العثمانيين الجدد، وتخلص منهم وزاول سياسته الفردية في اتخاذ كل القرارات وإشرافه بنفسه على كل صغيرة وكبيرة في الدولة.

من هذه الشخصيات المعارضة:

١ ـ الخديوي عباس حلمي: من مصر:

ويذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته أن الإنكليز يستخدمون والي مصر العثماني عباس حلمي باشا آلة في أيديهم، لتهديد السلطان بأنهم سيحولون الخلافة عنه لينقلوها إلى العرب[1].

وكان الخديوي عباس حلمي باشا، يأمل في تحويل الخلافة الإسلامية من العثمانيين إلى العرب على أن يكون هو سلطانها. وكان مبعوثو الخديوي منتشرين في الأقطار العربية للدعوة إلى أمل الخديوي.

لذلك قرّب الخديوي عباس حلمي باشا، الرجال المعارضين للسلطان عبد الحميد، مثل الكواكبي صاحب طبائع الاستبداد[2].

وساعد الخديوي، أعضاء جمعية «تركيا الفتاة» أو الاتحاديين المعارضين للسلطان أثناء وجودهم في مصر بشكل لا يصطدم به مع السلطان مباشرة.

* * *

ومن الشخصيات الإسلامية الكبيرة المعارضة لسياسة السلطان عبد الحميد، ويأخذون عليه حكمه الفردي كل من السيد (جمال

---

(١) المذكرات ص ٦ من المقدمة.

(٢) محمد رشيد رضا، مختارات سياسية من مجلة المنار تقديم ودراسة وجيه كوثراني صفحات ١٠ ـ ١٥؛ ١٩٨؛ ١٣٤ ـ ١٣٦ على التوالي نقلاً عن الغامدي ٢٦٠ ـ ٢٦١ ـ ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ـ ٢٦٦ على التوالي.

الدين الأفغاني) وتلميذه الشامي السيد (محمد رشيد رضا) وتلميذه التركي (محمد عاكف).

* * *

٢ ـ السيد محمد رشيد رضا: من الشام:

جاء تأثر السيد محمد رشيد رضا بأفكار الأفغاني، عن طريق اهتمام رشيد رضا بقراءة مقالاته في مجلة «العروة الوثقى» التي كان يصدرها الأفغاني وتلميذه المصري الشيخ محمد عبده. ويقول رشيد رضا في تأثير العروة الوثقى عليه بقوله: «وأكبر أثرها عندي أنها هي التي وجّهت نفسي للسعي في الإصلاح الإسلامي العام».

وبعد أن اختلف الأفغاني مع محمد عبده واتخذ محمد عبده طريقه الخاص في الإصلاح الذي يعتمد على العمل التربوي، وجدنا أن رشيد رضا هاجر (١٨٩٨ م) من بيروت إلى مصر: «احتجاجاً على التدابير التي لجأ إليها السلطان عبد الحميد، وعلى استحالة التعبير عن الآراء والأفكار التي بدأ محمد رشيد رضا يتشبع بها من خلال صفحات العروة الوثقى، وأخذ في ملازمة أستاذه محمد عبده والاستفادة منه»[٣].

وأصدر رشيد رضا جريدة «المنار» و«كانت ممنوعة من دخول البلاد العربية الخاضعة بصورة مباشرة للسلطان عبد الحميد».

وكان للسيد محمد رشيد رضا موقف من الطريقتين القادرية

---

(٣) المصدر السابق.

والرفاعية، ونقدهما في كتابه «الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية» و«الذي تصدّى فيه للممارسات الغيبية والسحرية التي أُدخلت على طرق الصوفية. ومن هنا نشأ بينه وبين الشيخ (أبي الهدى الصيادي) مشاحنات. وكان الصيادي قريباً من السلطان عبد الحميد».

بدأ السيد محمد رشيد رضا «في الانخراط في ميدان السياسة» بعد وفاة أستاذه الشيخ (محمد عبده) عام ١٩٠٥ م.

وأخذ السيد محمد رشيد رضا بعد ذلك يدعو إلى إصلاح الدولة العثمانية، ومحاربة الاستبداد الفردي، والدعوة إلى الحكم الدستوري.

وعندما استطاع الثوار العثمانيون من الاتحاديين أن يضخموا حركتهم خارج البلاد العثمانية، ويكثفوا نشاطهم المُطَالِب بإقصاء السلطان عبد الحميد من على العرش وإعلان الدستور، اتصلوا بالشخصيات المعارضة لحكم السلطان في الخارج. وفي هذا السبيل تأسست في القاهرة لجنة أطلق عليها اسم «جمعية الشورى العثمانية» تولى رئاستها السيد محمد رشيد رضا. وقد كان لهذا أثره في تحويل وجهة «المنار» إذ بدأ محمد رشيد رضا منذ ذلك الحين في كتابة مقالاته عن الاستبداد والسياسة الحميدية، وحكم الشورى، وطرق إصلاح الدولة العثمانية(٤).

* * *

(٤) المصدر السابق.

وكان رشيد رضا يرى ضرورة وجود دولة عربية منفصلة عن دولة الخلافة العثمانية، فيقول: «إنما مصلحة العرب السياسية أن يكون لهم دولة مستقلة»[٥].

* * *

وفي الوقت الذي رأى فيه السيد محمد رشيد رضا ضرورة مهاجمة حكم السلطان عبد الحميد الفردي يمتدح محمد رشيد رضا جمعية «تركيا الفتاة» الذين أسسوا جمعية الاتحاد والترقي. وقام السيد محمد رشيد رضا رئيس جمعية الشورى المناوئة لحكم السلطان عبد الحميد، بإدخال رجال الاتحاد والترقي الذين كانوا في مصر، في اللجنة المركزية لهذه الجمعية التي يرأسها.

* * *

وأقام السيد محمد رشيد رضا من نفسه، مدافعاً عن الخديوي (عباس حلمي) باشا، ونفى عن الخديوي التهم التي نُسبت إليه من اتفاقه مع الإنكليز. وقال: إن هذه التهم إنما هي من فعل رجال السلطان عبد الحميد[٦].

* * *

ويمتدح السيد محمد رشيد رضا «الزيدية في اليمن»، لأنهم لم يخضعوا لسلطان العثمانيين، ولأنهم قاتلوا العثمانيين حتى أعجزوهم، مما اضطر هؤلاء إلى عقد الصلح مع إمام اليمن يحيى، وأقروه على إمامته في قومه ووطنه[٧].

(٥و ٦ و ٧) المصدر السابق.

وفي خطبة للسيد محمد رشيد رضا في حديقة الأزبكية بالقاهرة، ابتهاجاً بانتصار جمعية الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد، وإجباره على إعادة العمل بالدستور، وافتتاح مجلس المبعوثان، وسيطرة الاتحاديين على الدولة، وعزلهم للسلطان، يقول رشيد رضا في هذا: «إن جمعية الاتحاد والترقي ظلت تسعى وتدأب وتصارع الصعوبات حتى أتيح لها الظفر الآن ونالت ما تتمناه».

* * *

٣ ـ محمد عاكف: من الأناضول:

هو شاعر الإسلام عند المتحدثين باللغة التركية، ومن دعاة الجامعة الإسلامية، وتأثر في التزامه بالجامعة الإسلامية، بثلاثة أشخاص وهم: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرشيد إبراهيم. وكان من رأي محمد عاكف أن سبب ضعف المسلمين، راجع إلى بعدهم عن الإسلام، وفهم المسلمين للإسلام فهماً خاطئاً. وكان محمد عاكف يرى وجوب اتخاذ القرآن الكريم المصدر الأصلي للحركة في المجتمع. ويدعو إلى ترك البدع والخرافات، ويدعو إلى إعادة فهم الإسلام، على أنه نظام حياتي ينظم حياة المجتمع، وأن القرآن لم يُنزل ليقرأ على القبور، ولا ليستخرج منه الفأل. يقول محمد عاكف: «يجب استلهام القرآن مباشرة ويجب أن نجعل إدراك العصر يقول بالإسلام». ويقول بضرورة معاداة الفكرة القومية، ويقول في هذا: «إن كابوس الغرب الدامي قد تسلط علينا، وغشّى أبصارنا، وعطّل

فكـرنا الإسـلامي». ومن رأي عـاكف، ضـرورة أن يبصق المسلمون: «على وجه الصليبيين، وعلى كلماتهم الخائنة، وعلى ضمير العصر المقنَّع». والحذر دوماً من الروس. ويركز دائماً على أن المسلمين، لا بد أن يأملوا في يومهم وفي غدهم خيراً: «ما دام وعد الله لنا هو الحق، فإن فجرنا الأزلي سيشرق».

أمّا في وحدة عناصر البلاد الإسلامية، فيقول في معرض من معارض حديثه عن الجامعة الإسلامية: «إن التركي لا يستطيع الحياة بدون العربي. والتركي بالنسبة للعربي عينه اليمنى، وساعده الأيمن. ولا بد للمسلمين أن يتحدوا لأن الإسلام دين الوحدة»[٨].

* * *

كان محمد عاكف مثالاً ـ بشهادة معاصريه ـ للتقوى والورع والصلاح، مخلصاً للإسلام، يعيشه في حياته الخاصة، ويعيشه في حياته العامة. عاش من أجل الإسلام ومات من أجـل الإسلام. ولقبه قومه بلقب «شاعر الإسلام».

* * *

إلّا أن محمد عاكف قد اختلف في نظرته إلى السلطان عبد الحميد، عن نظرة كثير من المفكرين والأدباء والعلماء المسلمين المعـاصرين لـه، فقد كـان محمد عـاكف يؤمن بالديمقراطية ويرى أن السلطان عبد الحميد جمع في يده كل

---

(٨) محمد حرب، المرجع السابق، ص ٢٨٤.

شؤون الدولة. لذلك خالف محمد عاكف سلطانه في سياسته في الحكم، وإن لم يخالفه في الجامعة الإسلامية.

* * *

وانضم محمد عاكف ـ عن حسن نية ـ إلى جمعية الاتحاد والترقي بعد أن خدعه هؤلاء بأن مقصدهم تحرير الدولة العثمانية من الاستبداد، وإقامة حكومة دستورية تجمع المسلمين في بوتقة واحدة، فوافقهم واتفق معهم وساعدهم وخطب لهم. واستغلته حكومة الاتحاد والترقي فقد أرسلته المخابرات في مهمة لمقابلة عبد العزيز آل سعود لإقناعه بالعمل مع حكومة الاتحاد والترقي وسافر عاكف في رحلة شاقة في صحراء نجد ولم يوفق لمقابلة عبد العزيز آل سعود ولم يرغب هذا في مقابلته[٩].

ولكن لهذا السفر دلالة، وهي أن جمعية الاتحاد والترقي كانت تشعر بما لمحمد عاكف من سمعة طيبة في العالم الإسلامي عامة والبلاد العربية خاصة.

* * *

(٩) جمال قرطاي، محمد عاكف في صحراء نجد.

الفَصل الثالث

معارضة الجمعيات الثورية والسرية

أ ـ جمعية العثمانيين الجدد:

كان الشباب العثماني المثقف، ابتداءً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واقعاً تحت تأثير كل من الثورة الفرنسية، التي حققت حكماً ديمقراطياً في فرنسا وأتت بأفكار القومية والعلمانية والتحرر من حكم الفرد، والحركة القومية الإيطالية التي قادها «ماتزيني» بنظمها وخلاياها.

وكان في نفس الوقت يسود الدولة العثمانية حكم السلطان عبد العزيز بن محمود الثاني وهو عم السلطان عبد الحميد. وكانت الصدارة العظمى في عهد السلطان عبد العزيز يتداولها وزيران أحدهما «عالي» والآخر «فؤاد». وكان كلاهما يميلان إلى استخدام الضغط السياسي في الحكم، في وقت كانت الدولة العثمانية تفقد نتيجة ضعفها واضمحلالها أجزاء من أراضيها. وكانت المناطق النصرانية مثل رومانيا والجبل الأسود والصرب في الفترة بين عامي ١٨٦٠ ـ ١٨٦٤ م، في صراع من أجل استقلالها. وكان تدخل الدول الأوربية واضحاً في شؤون الدولة،

ولا سيما أن هذه الدول تتخذ من أوضاع نصارى الدولة حجة للتدخل.

في هذه الظروف وبالضبط في عام ١٨٦٥ م، كان ستة من الشبان العثمانيين المثقفين يُسرُّون عن أنفسهم في حديقة في ضواحي استانبول تسمى «غابة بلغراد». وتحدث هؤلاء الشبان في موضوعات سياسية، وخرجوا بفكرة تكوين جمعية سرية، على نمط جمعية «إيطاليا الفتاة» التي أسسها الزعيم الإيطالي (ماتزيني) عام ١٨٣١ م، بهدف الوحدة الإيطالية تحت راية الجمهورية. أطلق هؤلاء الشبّان على جمعيتهم هذه اسم «اتفاق الحميّة» ومن ضمن هؤلاء الشبان الشاعر الذي أصبح فيما بعد واسع الشهرة: نامق كمال. واتفق أعضاء «اتفاق الحمية» هؤلاء على معارضة سياسة الوزيرين عالي وفؤاد. ويعتبرونهما قد قدّما تنازلات أكثر من الضروري أمام ضغط الدول الأوربية، ومع ذلك ورغم ما قدمه الوزيران، فقد كانت الدولة آخذة في الانهيار. ورأى هؤلاء الشبان أن الوزيرين يتبعان سياسة ضغط سياسي شديد على الأفكار، وعلى الصحافة في الداخل. وقد كانت الصحافة، بالمعنى الحديث، بدأت حديثاً في البلاد. ورأوا أن العمل لا بد أن يكون في شكل تعريف الشعب بحقوقه السياسية، وحصوله عليها، وبالتالي فإن رغبة الشعوب النصرانية في الاستقلال بمناطقها عن الدولة، لن تجد لها ما يبررها من تدخل أجنبي بحجة مساندة الأقليات الدينية. وبهذه الطريقة يستطيع الشعب أن «يُعَيِّن مُقَدَّرَاته السياسية». وبالتالي تنتهي ضغوط الوزيرين السياسية على المثقفين العثمانيين.

ومعنى هذه الحركة، إيمان الشبان بالصراع من أجل نظام سياسي ديمقراطي. وبالتالي إنقاذ الدولة من حالة التردي التي وصلت إليها[1].

صادف هذا أن قام الأمير المصري (مصطفى فاضل) ـ بسبب من نزاعه مع «فؤاد باشا» ورغبة الأمير في تولي عرش مصر، ورفض الحكومة العثمانية هذا ـ بالسفر إلى باريس ليعيش حياة «نفي مرفهة غنية». ونشر هناك بعض رسائل باللغة الفرنسية، يهدف منها إلى إظهار نفسه بأنه ضمن تيار المنادين بالدستور في الدولة العثمانية. وفي إحدى رسائله باللغة الفرنسية، قدّم نفسه بعبارة ممثل حزب تركيا الفتاة. وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوربية المعنية فشاع اسم «حزب تركيا الفتاة» في أوربا.

التحق ثلاثة من الإعلاميين الثوريين العثمانيين هم: نامق كمال ومحمد ضيا وعلي سعاوي، بالأمير المصري مصطفى فاضل في باريس وكوّنوا منظمة أسموها جمعية (العثمانيين الجدد).

وأبرز شخصيات جمعية العثمانيين الجدد إعلاميون وشعراء وأدباء وعلى رأسهم نامق كمال وعلي سعاوي.

١ ـ نامق كمال:

وهو شاعر وإعلامي وكاتب ومؤرخ عثماني. تثقف ثقافة إسلامية، كما تأثّر بفلاسفة الثورة الفرنسية، مثل (روسو). وله حياة أدبية واسعة وكتابات امتدت عبر ربع قرن.

---

(١) آق شين، المرجع السابق.

ويتضح من كتاباته أنه يسعى للإجابة عن ثلاثة أسئلة هي:

١ ـ ما هي أسباب انحطاط الدولة العثمانية؟

٢ ـ ما هي الطرق التي يمكن بها أن نوقف هذا الانحطاط؟

٣ ـ ما هي الإصلاحات اللازم عملها في هذا السبيل؟

كما يمكن إدراج إجابات نامق كمال في ثلاث نقاط رئيسية هي:

١ ـ أسباب انحطاط الدولة العثمانية، أسباب سياسية واقتصادية.

٢ ـ التربية، هي الطريق التي يمكن أن يوقف بها هذا الانحطاط.

٣ ـ الإصلاح الرئيسي الواجب عمله، هو: البدء بإقامة نظام دولة مركزية دستورية.

ويعتبر (نامق كمال) فرمان التنظيمات بمثابة دستور للدولة على نمط أوربي، ويقف من حركة التنظيمات موقف الناقد، ويقول: إن فرمان التنظيمات، دستور عصري، لم يأت بنظام ترضى عنه الرعية. وإن التنظيمات لم تفعل إلاّ أن جمعت في يد الباب العالي، أي الصدارة العظمى في الدولة، كل السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والعدلية.

يرى ـ نامق كمال ـ أن حركة التنظيمات العثمانية، استبدلت بسلطة السلاطين سلطة الباب العالي، أي الصدور العظام والوزراء. لذلك فإن النظام الذي جاءت به التنظيمات، نظام أقل من النظام العثماني القديم. لذلك لم تستطع التنظيمات أن

تحقق نهضة اقتصادية في الدولة. وفتحت هذه التنظيمات الباب على مصراعيـه لتدخل الدول الأوربية في الشؤون العثمانية الداخلية، مما أدى إلـى نتائج أفسدت ما بين الشعوب التي تعيش داخل الدولة في وحدة عثمانية واحدة. إن التنظيمات لم تضع ـ في رأي نامق كمال ـ نظام حكم يمثل الإرادة الشعبية. ولو كان الشعب العثماني، استطاع إقامة نظام من شأنه تمثيـل الشعب، لكان من الممكن إقامة علاقات اقتصادية جديدة مع الدول الغربية، بضمان نهضة هذا الشعب، ولكانت النتيجة إمكان التقدم.

وقد قال (نامق كمال) لأول مرة بفكرة: «الحقوق الطبيعية» التي هي الأساس الفلسفي للحضارة الغربية المعاصرة.

يحاول ـ نامق كمال ـ أن يثبت في كتاباته: أن ليس هناك اختلاف بين الشريعة الإسلامية، وبين النظام المشروطي، أي: الديمقراطي. وأن الاعتراف بالنظام النيابي ليس معناه تقليد النظم الغربية. وأن النظام الديمقراطي النيابي ـ بسبب تكوينه ـ يمكن أن يتغير حسب ظروف زمان إجماع الأمة، وأحكام الشريعة الإسلامية.

قدّم ـ نامق كمال ـ مشروعاً للدستور العثماني، لم يختلف عن الدستور الذي أُعلـن إلا في نقطة أو اثنتين. لكن ينبغي القول: إن مشروع نامق كمال ـ وكان قدّمه إلى مدحت باشا ـ متأثر بالدستور الفرنسي (دستور نابليون الثالث عام ١٨٥٢ م). ورأى نامق كمال أن هذا هو المناسب تماماً لظروف الدولة العثمانية في

ذلك الوقت. وقال بهذا بعد عملية مقارنة بين النظم الدستورية، في كل من إنكلترا وفرنسا وبلجيكا. وعلى ذلك فقد اقترح نامق كمال، للدستور العثماني الأول، المجالس التالية:

١ ـ **مجلس شورى الدولة**: على أن يكون ـ في تصور نامق كمال ـ مكوناً من خمسين عضواً. يقوم هذا المجلس، بإعداد مشروعات القوانين. وهو مجلس له أن يتخذ القرارات الضرورية لتنفيذ قوانين الإدارة.

٢ ـ **مجلس شورى الأمة**: ويعمل على تقنين مشروعات القوانين التي يعدها مجلس شورى الدولة. كما يقوم مجلس الشورى بمهمة مراقبة ميزانية الدولة.

٣ ـ **مجلس الأعيان**: ويقوم هذا المجلس بمهمة ضمان حماية الدستور وحقوق الشعب. ويقوم بالتوفيق بين المجلس التشريعي، والهيئة التنفيذية، ويصدّق على تنفيذ القوانين التي تُنَظِّم بشكل مناسب لهذه الأحوال.

وفي رؤية نامق كمال الدستورية أن هذه المجالس ـ إذا قامت ـ فمن شأنها منع الحكومة من الإدارة الشخصية، وحماية حقوق الشعب.

ومع هذا فقد كان نامق كمال، يدافع عن فكرة إقامة نظام مركزي قوي، ويرفض مبدأ تكوين نظام اتحادي فيدرالي، في الدولة العثمانية. ويرى أن إقامة مثل هذا الاتحاد من شأنه أن يمزق الوحدة العثمانية(٢).

(٢) نيازي بركس، المعاصرة في تركيا صفحات ٢٨٣ ـ ٢٨٤ و ٢٨٩ و ٢٩١ و ٣٠١.

إن العلاقة بين السلطان عبد الحميد، ونامق كمال، كانت علاقة حسنة رغم تضاد الأفكار بينهما، فيما يختص بالمسألة الدستورية. فالسلطان يرى: أن فكر الحرية والديمقراطية بالمعنى الغربي مطروحة في غير زمانها. ويرى نامق كمال: ضرورة هذا الفكر. لكن السلطان كان قد اضطر إلى إقالة (مدحت باشا) فنمي إليه عدم رضا نامق كمال عن هذا ويتحدث بذلك جهرة. وعلم السلطان أن نامق يتحدث، عن محاولة لإسقاط السلطان من العرش. ولما كان نامق كمال صديقاً لمدحت باشا، وأن لنامق تأثيره في المجتمع، فقد أراد السلطان إبعاده عن استانبول، بإسناد إحدى الوظائف إليه. فرفض نامق، فقُبض عليه، وسجن خمسة أشهر ونصف شهر. ولكن بُرِّئت ساحته، بعد أن حوكم في محكمة أخلت سبيله. إلاّ أن الحكومة العثمانية، أصدرت قراراً بإقامته إجبارياً في جزيرة (ميديللي) بمرتب قدره خمسة آلاف قرشاً عثمانياً. ولم يحمل نامق كمال ضغينة للسلطان عبد الحميد، كما أن السلطان افترض حسن النية في نامق كمال(٣).

يعترف السلطان عبد الحميد، بأن نامق كمال كان «إنساناً مخلصاً جداً» وأنه «يجلّ الأسرة العثمانية كثيراً». لكنه يقول عنه أيضاً:

«كان كمال بك أكثر من لفت انتباهي من بين عدة أشخاص أطلقوا على أنفسهم «العثمانيون الجدد». كان إنساناً مضطرباً

(٣) مصطفى خالد ايللي، نامق كمال، استانبول ١٩٨٥ ص ٣٥.

جداً. لا تتوافق حياته العائلية مع حياته الخاصة، ولا تتوافق حياته القلمية مع حياته الفكرية. يمكن أن تجزم بأن إنساناً ما، يستطيع عمل أمر ما، أو لا يستطيع. لكنك لا تستطيع القطع بهذا بشكل من الأشكال، وأنت تفكر في كمال بك. ذلك لأنه هو نفسه لا يعرف نفسه. تستطيع القول: إنه واحد من الأشخاص النادرين، الذين يحيون حياتين مزدوجتين، كل حياةٍ تختلف عن الأخرى حسب مزاجه. من يعرفونه عن قرب، يعرفون أنه: عندما كان على وئام مع السراي كتب «التاريخ العثماني» وعندما فسدت هذه العلاقة، يعرفون أنه قطع رأس التنين بقوله: (كلب هو الذي يأمن لخدمة صياد غير منصف). إنه إنسان متقلب. ربما كان إنساناً مخلصاً جداً، يمكنك خلال ساعات أن تجعله يفكر مثلك، ولا يمكنك معرفة عدد الساعات أو الأيام التي سيحمل فيها هذه الأفكار»(٤).

ويشير السلطان هنا، إلى أن نامق كمال عندما كان على وئام مع القصر السلطاني كتب كتابه التاريخ العثماني مُمَجِّداً. وعندما اختلف مع القصر السلطاني نظم شعراً هجا به السلطان عبد الحميد.

* * *

٢ ـ علي سعاوي:

وعلي سعاوي أيضاً من جماعة (العثمانيين الجدد) وهو كاتب موسوعي من كتاب عهد التنظيمات. وهو زميل للشاعر نامق كمال

---

(٤) المذكرات ص ٤٧.

وضيا باشا وغيرهما من هذه الجماعة، إلا أن علي سعاوي يفترق عن زملائه في أنهم: اعتنوا بالكتابة أكثر، أما هو فقد اهتم بالحركة العملية في تنفيذ أفكاره.

كتب علي سعاوي كثيراً من كتاباته، بذهنية تقول بالوحدة الإسلامية، وتكاتف المواطنين العثمانيين، إلا أنه يُعتبر من كبار الكتاب القوميين الوطنيين. بل هناك من مؤرخي الأدب العثماني من يعتبرونه قومياً طورانياً من الطراز الأول، من واقع كتاباته.

كان علي سعاوي فعّالاً ونشيطاً في حياته القلمية والأدبية، كما كان كذلك أيضاً في حياته السياسية. وهو من كتّاب عهد التنظيمات، لكنه اختلف عن زملائه من ناحية الوضع الاجتماعي، إذ كان هو فقط من بين كتاب هذا العهد الذي ينتمي إلى عائلة فقيرة. عمل في سلك التعليم، كما عمل واعظاً في المساجد. وجاب كثيراً من بلدان الدولة العثمانية. واشتهر نتيجة قدرته على الوعظ والخطابة. واشتغل بالسياسة في عام ١٨٦٦ م عندما أخذ يكتب في جريدة «مُخْبِر» التي كانت تصدر - وقتها - في استانبول. وكانت مقالاته حول صراع أفكار الحرية سبب نفيه إلى مدينة قسطموني.

لكن الأمير المصري مصطفى فاضل باشا - وهو في باريس - أرسل إلى علي سعاوي - باعتباره أحد أفراد العثمانيين الجدد - ليساعده. ففر علي سعاوي من مدينة قسطموني إلى أوربا. وأخذ (علي سعاوي) يصدر جريدة «مخبر» من لندن بمساعدة الأمير مصطفى فاضل، باعتبار أن الأمير هو حامي جماعة العثمانيين

الجدد. وقد عيّن له الأمير راتباً شهرياً قدره ألف وخمسمائة فرنك. وكان أول أعداد «مخبر» هناك في ٣١ أغسطس ١٨٦٧ م.

وفي أوربا اختلف علي سعـاوي مع زميليه نامق كمال وضيا باشا، فترك الجمعية وأصدر في باريس جريدة «علوم». ثم أصدر من مدينة ليون في فرنسا جريدة باسم «مؤقتاً». وعاد إلى استانبول عام ١٨٧٦ م. فعيّنه السلطان عبد الحميد في وظيفة «حافظ كتب» في الكتبخانة السلطانية. وفي هذه الفترة كتب علي سعاوي ضد رفيقي كفاحه: مدحت باشا ونامق كمال. ثم عُيِّن علي سعاوي بعد ذلك مديراً لأهم مؤسسة تغريبية في استانبول وهي مدرسة «غالاطه سراي» السلطانية. لكنه عُزل من هذا المنصب ويقال: إن لزوجته الإنكليزية ـ وكانت متحررة ـ دوراً في هذا.

واحتقر نامق كمال، عَلِيًّاً حتى إنه كتب فيه شعراً يهجوه في قصيدة يبدؤها بقوله: «ذاك الرجل الصغير الذي يسمونه علي سعاوي، يعيش في باريس وبجواره (المـدام) كنا نظن أنه رجل..».

* * *

بعد حادث عزله من منصب مدير مدرسة غالاطه سراي السلطانية، قطع علي سعاوي الأمل من استفادته من السلطان عبد الحميد، فنظّم حركة إرهابية ضد السلطان عبد الحميد، بأن جمع حوالي خمسمائة من المهاجرين البلقانيين الموجودين في استانبول، وهاجم قصر جيراغان. وكـان يقيم فيه السلطان

المعزول مراد. وكانت خطة علي سعاوي تقضي بأن يهاجم بهؤلاء المهاجرين، ويخرجون مراداً من القصر، وإعلانه سلطاناً بديلاً عن السلطان الفعلي والشرعي عبد الحميد.

لكن الحكومة استطاعت إخماد هذا الهجوم وقت بدايته، وقام قائد القوة العسكرية التي أحبطت الهجوم، وهو حسن باشا، بقتل علي سعاوي ضرباً بالعصا (عام ١٨٧٨ م)[٥].

ب ـ جمعية الاتحاد والترقي:

بعد أن وجد السلطان عبد الحميد أن جماعة العثمانيين الجدد تمارس عليه ضغطاً متواصلاً لقبول أفكارها، وأجبرته على دخول الحرب العثمانية الروسية، عمل السلطان على تشتيت أعضاء هذه الجمعية. فبدأ بنفي كبيرها وهو الصدر الأعظم مدحت باشا. بعد ذلك مباشرة، قامت ضد السلطان مؤامرتان لخلعه. واحدة: بقيادة علي سعاوي وهو من أعضاء هذه الجمعية. والأخرى: ماسونية قامت بها جمعية كلانتي سكاليري ـ عزيز. والمؤامرتان مدعومتان من إنكلترا، وفشلت كلتاهما، لكنهما أحدثتا أثراً بعيداً في تشديد السلطان الرقابة على الفكر الوافد والمتأثرين به. وقامت أثناء ذلك أيضاً خلية سرية، من طلاب المدرسة الحربية، في استانبول من أصحاب الفكر الجديد، هدفها مقاومة حكم السلطان عبد الحميد، لكن

---

(٥) نهاد سامي بانارلي، تاريخ الأدب التركي المصور، جـ ٢ ص ١/١٠٧٢، استانبول ١٩٧١.

المعلومات غير متوافرة عن هذه الخلية. لكن حركة هؤلاء الطـلاب كانت سابقة زمنياً للمؤامرتين المذكورتين.

استطاع أحد أعضاء جمعية (كلانتي - عزيز بك) الماسونية وهو «علي شفقتي بك» الفرار إلى نابولي، وإلى جنيف، حيث أصدر بين عامي ١٨٧٩ م و ١٨٨١ م، جريدة مناهضة للحكم العثماني، بعنوان «استقبال» بمعنى المستقبل.

إلّا أن منظمة سرية طلابية، تـأسست عام ١٨٨٩ م في المدرسة العسكرية الطبية في استـانبول، حيث كـان بعض الأساتذة هناك يحرضون الطلاب بشكل أو بآخر للقيام بمعارضة الحكم، ونشر أفكار العثمانيين الجدد بين الطلاب.

أطلق طلاب العسكرية الطبية على منظمتهم السرية هذه، اسم «الاتحاد العثماني» وكان من مؤسسيها الطلاب: إسحق سكوتي ومحمد رشيد وعبد الله جودت وإبراهيم تيمو وحسين زاده علي. أما العضو الأول فيها فكان إبراهيم تيمو وهو المؤسس. وإبراهيم تيمو روماني وكانت رومانيا جزءاً من الدولة العثمانية. وكان يسافر بين الحين والحين من استانبول حيث مقر دراسته إلى بلاده. فكان يمر بإيطاليا وتأثر فيها بالمحافل الماسونية التي كان يقوم بزيارات لها.

بلغ حماس طلاب منظمة (الاتحاد العثماني) السرية أن اختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثورة الفرنسية المئوية، تاريخاً لإنشاء منظمتهم.

هدف الطلاب الأعضاء في (الاتحاد العثماني) السريـة:

مقاومة حكم السلطان عبد الحميد، وتكوين دولة مناسبة لأفكار العصر السياسية، تتخذ من الدول الغربية نموذجاً لها، مثل إنكلترا وفرنسا وألمانيا، والمناداة بالدستور والحرية والديمقراطية(٦).

ومن المدرسة العسكرية الطبية، سرت أفكار جمعية (الاتحاد العثماني) إلى مختلف المدارس العليا الأخرى. وكانت خلايا جمعية الاتحاد هذه سرية على نظام جمعية (الكاربوناري) الإيطالية..

ولم تكن الجمعية متعجلة، لا في الدعاية لأفكارها، ولا في الحركة ضد السلطة. حتى إن أحمد رضا بك قد وصل إلى منصب مدير إدارة المعارف في منطقة بورصة، وسافر عام ١٨٨٩ م إلى باريس بحجة حضور معرض باريس الدولي، ووصل إلى هناك، وأعلن أنه لن يرجع إلى بلاده. ومكث في فرنسا حوالي ست سنوات، لم تصدر عنه حركة معارضة جديرة بالتسجيل، إلى حين أصدر جريدته (مشورت) عام ١٨٩٥ م.

ويذكر مؤسس جمعية الاتحاد ـ وهو إبراهيم تيمو ـ أنه كان يمضي أوقاته في الخارج ـ حتى عام ١٨٩٥ م ـ بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظمته، لتربيتهم تربية ثورية، ويعقد الاجتماعات السرية، وقراءة الأعمال الأدبية التي ألّفها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد، مثل نامق كمال وضيا باشا وقراءة منشورات

---

(٦) آق شين ص ١٧.

علي شفقتي بك ـ عضو جمعية كلانتي الماسونية وكان فارًّاً في أوربا ـ وكذلك بقراءة منشورات الإيرانيين الثائرين ضد الحكم في بلادهم، وكانت تأتي من لندن. ولم يتجه إلى العمل الحركي المباشر ضد دولته(٧).

لم تتجه جمعية الاتحاد إلى العمل الحركي المباشر، إلاّ عندما صعّد الأرمن عملياتهم ضد السلطان عبد الحميد. وأخذت المسألة الأرمنية شكلاً واضحاً في السياسة الداخلية والخارجية.

ونتيجة للمراسلات السرية بين أعضاء جمعية الاتحاد العثماني السرية في الداخل، والتي تغلغلت إلى أغلب المؤسسات العسكرية، وبين أحمد رضا بك في باريس ممثلاً للمدنيين، تمّ الاتفاق على وحدة العمل العسكري والمدني ضد السلطان، وعلى اعتماد اسم «جمعية الاتحاد والترقي» للجناحين المعارضين، العسكري والمدني، اللذين يعملان في إطار الجمعية.

كان اسم الجمعية في الأوساط العسكرية هو «الاتحاد العثماني». وكان أحمد رضا بك ـ ممثل الجناح المدني ـ متأثراً بأفكار الفيلسوف (أوغست كانْتْ) وكان دستور هذا الفيلسوف هو: «الانتظام والترقي». فأخذ أحمد رضا كلمة «الترقي» استلهاماً من دستور (كانْتْ) واحتفظ العسكريون بمسمى «الاتحاد»، واتفق الجميع أن تكون جمعيتهم باسم «الاتحاد والترقي»(٨).

---

(٧) إبراهيم تيمو، مذكراته ص ٩.

(٨) آق شين، ١٩.

لقد تغلغلت خلايا (الاتحاد والترقي) في وحدات الجيش، وبين موظفي الدولة من المدنيين، واتحدا في العمل الموحد بعد اتفاق جناحيهما العسكري والمدني في باريس، للعمل الفعلي ضد السلطان عبد الحميد. واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان في ٢٤ يوليو ١٩٠٨ م، على إعلان الدستور الذي كان قد أمر سابقاً (عام ١٨٧٧ م) بوقف العمل به.

ثم زحف جيش الحركة من الرُّومَلي المنطقة العثمانية في أوربا إلى استانبول، وسيطروا عليها، ثم عزلوا السلطان عبد الحميد، وأقاموا نظام حكومة حزب (الاتحاد والترقي).

وكان من أبرز أعضاء جمعية «الاتحاد والترقي»: أحمد رضا بك ـ طلعت باشا ـ أنور باشا ـ جمال باشا ـ الدكتور ناظم ـ الفيلسوف محمد ضيا كوك ألب.

وكان العسكريون من أعضاء جمعية (الاتحاد والترقي) واقعين تحت التأثير الألماني.

وكان الجناحان العسكري والمدني في جمعية (الاتحاد والترقي)، يخضعان للنفوذ الماسوني. فأغلب أعضاء (الاتحاد والترقي) أعضاء في المحافل الماسونية المختلفة. وتأثروا بأفكار الماسونية، كما كان مؤسس (الاتحاد والترقي) الأول إبراهيم تيمو ماسونياً. وينبغي القول هنا بأن أنور باشا لم يكن ماسونياً.

وإذا كان إبراهيم تيمو أول المعارضين المنظمين في الجمعية، من أبرز الأسماء في الجمعية في فترة التأسيس، فإن

أبرز أسماء الاتحاديين في فترة نهاية معارضتهم، وعند استيلائهم على السلطة: هي: طلعت باشا من المدنيين، وأنور باشا وجمال باشا من العسكريين.

يجب القول هنا: إن جمعية (الاتحاد والترقي) العثمانية، تبنّت الأفكار الغربية المضادة للإسلام وللفكر الإسلامي. لكنها استغلت الدين عند مخاطبتها للناس للتأثير فيهم، وكسب أنصار لهم في معركتهم ضد السلطان عبد الحميد. وقد نجحوا في ذلك.

تقول الجمعية في بياناتها إلى العثمانيين: «أيها العثمانيون: إن مقصدنا هو سلامة الدولة والخلافة، ولم يعد أحد يجهل هذا». و«بعون الباري وهمة الإخوان» و«أيها المسلمون! كفانا أن نقوم بدور المتفرج على سلطان جبّار، عديم الإيمان، يسحق القرآن تحت أقدامه، وكذلك يسحق الضمير والإيمان». و«استيقظوا يا أمة محمد» و«الشجاعة الشجاعة يا مسلمون.. الشجاعة منّا والعون من الله. نصر من الله وفتح قريب» و«أيها المسلم الموحّد! اقرأ باسم ربك» و«انهض أيها المسلم الموحّد! وأنقذ دينك، وإيمانك من يد الظالمين. وأنقذ بذلك نفسك! فهنا شيطان جبار، يحمل فوق رأسه تاجاً. وفي يده دينك وإيمانك. فأنقذ دينك منه وإيمانك أيها الموحّد!» و«أيها المسلمون: إن السلطان عبد الحميد ـ شرعاً ـ ليس بسلطان، ولا خليفة! ومن لا يصدق قولنا هذا: فلينظر في الكتاب والسنّة. لقد أبرزت جمعيتنا بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، أوامر الله

وأوامر الرسول الموجهة إلى الحكومة والأهالي. لكن السلطان عبد الحميد، أشاح بوجهه بعيداً عن أوامر الله، وأوامر الرسول. وبالتالي: أثبت ظلمه ولم يخجل من الاعتراض على الله. لذلك ينبغي على شعبنا، أن يلجأ إلى السلاح ضده. وإذا لم يفعل الشعب هذا، فليتحمل إذن وزر ما عليه السلطان عبد الحميد من ظلم».

لقد كان الفكر الحاكم في اتجاهات جمعية (الاتحاد والترقي) هو: الماسونية وهي لا تعترف بالأديان، والفلسفة الوضعية (العقلانية وهي تنفي الدين)، والعلمانية (وهي تبعد الدين عن الحياة). ومع ذلك استخدم الثوّار الاتحاديون الدين لمحاربة السلطان عبد الحميد وافتروا عليه باسم الدين[٩].

* * *

(٩) م. شكري، تركيا الفتاة والاتحاد والترقي صفحات ٤٣٧ ـ ٤٤٨ ـ ٤٦٥.

ملاحق

قالوا عن السلطان عبد الحميد

● كان السلطان عبد الحميد مثال العفة والوقار وسيذكره التاريخ بالاحترام والترحم عليه.

إسماعيل حامي دانشمند

(مؤرخ تركي مشهور)

● كان عفيفاً بكل معاني الكلمة، فلم يكن يمد عينيه إلى عرض أحد أو مال أحد.

رشيد بك

(سكرتير في مكتب السلطان عبد الحميد

وأحد وزراء داخليته)

● كان يؤدي الصلوات في أوقاتها، ويقرأ القرآن كثيراً ويرتاد المساجد.

الأميرة عائشة بنت عبد الحميد

● لم يكن فاسقاً ولا ظالماً ولا قابلاً للرشوة.

اللورد بيكو نسفيلد

(دزرائيلي)

● عبد الحميد الثاني، واحد من أعظم الشخصيات المفترى عليها في التاريخ.

آت صزْ

(كاتب تركي)

● عبد الحميد مضطهد إسرائيل. . إنه عدو إسرائيل.

صحافة سلانيك اليهودية

● كان على المؤتمرات اليهودية أن تواجه سلطة مستبدة لشخص واحد، وعين طاغية مرتابة هو عبد الحميد.

صحيفة أورور اليهودية

(بمناسبة انعقاد المؤتمر الصهيوني التاسع)

● عبد الحميد!. . إنه القاتل الكبير.

جلادستون

رئيس وزراء بريطانيا

● إن تصرف عبد الحميد تجاه الحركة الصهيونية، كان معناه أن يتسبب في هدم تاجه وهدم عرشه.

حسام الدين أرتورك

(عقيد بالجيش التركي)

● أرى عبد الحميد سلطاناً ماكراً جداً خبيثاً جداً ولا يثق بأحد.

هرتزل

(زعيم الحركة الصهيونية)

● إن تصرف السلطان عبد الحميد تجاه هرتزل كان ـ كما فطن

السلطان ـ من شأنه، جعل هرتزل واليهود يعملون على تدعيم أعداء السلطان.

نظام الدين تبه دنلي أوغلو

(كاتب ومؤرخ تركي)

- من حقه علينا ـ نحن العرب عامة، والفلسطينيين خاصة ـ أن نذكر له موقفه المشرّف والرائع من الحركة الصهيونية، الذي رفض أن يرضخ للدول الاستعمارية بمنحها أي شبر من أرض فلسطين، مقابل كل الإغراءات المالية والسياسية، والذي فقد عرشه بسبب فلسطين.

رفيق شاكر النتشه

(سفير فلسطين في الرياض)

- لقد عاش لبنان، وعاشت طائفتنا المارونية، بألف خير وطمأنينة في عهد السلطان عبد الحميد.

إلياس الحويك

(بطريرك ماروني)

- كان السياسي الذي شهدت أوربا والعالم أجمع، بأنه قد فاق غيره عقلاً وذكاءً وتيقظاً ونشاطاً.

جريدة المؤيد

(القاهرية المصرية)

- لو وُزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم، ذكاءً ودهاءً وسياسةً.. وأعظم ما أدهشني: ما أعدّ من خفي الوسائل،

وأقصى العوامل كي لا تتفق أوربا على عمل خطير في الممالك العثمانية.

السيد جمال الدين الأفغاني

(داعية من دعاة الوحدة الإسلامية)

- يرحم الله عبد الحميد. لم يكن في مستواه وزراء، ولا أعوان ولا شعب. لقد سبق زمنه. وكان في كفايته ودرايته وسياسته وبعد نظره، بحيث استطاع وحده بدهائه وتصرفه مع الدول، تأجيل انقراض الدولة ثلث قرن من الزمان. ولو وجد الأعوان الأكفياء والأمة التي تفهم عنه لترك للدولة بناء من الطراز الأول.

سعيد الأفغاني

(أستاذ جامعي وكاتب)

- السلطان عبد الحميد، سيد الحكماء، وقدوة الساسة وقادة الأمم.

مصطفى كامل باشا

(زعيم الحركة الوطنية في مصر)

- عرّفوا السلطان عبد الحميد في أوربا بأنه رجل مريض، وأعتقد أن الحكم العادل لصالحه لم يصدر بعد.

بسمارك

(السياسي الألماني)

- هنيئاً أمير المؤمنين، فإنما
نجاتك، للدين الحنيف نجاة

أحمد شوقي

(أمير الشعراء العرب)

- في تصوري؛ أن السلطان عبد الحميد الثاني تعرّض لحملة قاسية من النقد، أثارها أولاً الكتاب الأوربيون بدافع الحقد عليه، بسبب سياسته الإسلامية، وجاراهم في ذلك الكتاب العرب، الذين كرهوا عبد الحميد، مثلما كرهوا فترة الحكم العثماني للبلاد العربية، وبخاصة في المشرق، حيث يمكن أن نطلق على عبد الحميد اسم السلطان المفترى عليه.

الدكتور محمود صالح منسي

(مؤرخ عربي مصري)

- التعاطف المتبادل بين العربي والتركي، الذي كان متوثقاً خلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني، انقلب في عهد الاتحاد والترقي إلى نفور.

محمد جميل بيهم

(مؤرخ عربي شامي)

- السلطان الغازي عبد الحميد خان، أمير المؤمنين خليفة الرسول ﷺ: من نفتخر بوجوده ونرتع في ظلال عدله.. لا زال مبتهجاً به الزمان، مسعداً بطلعته النيّران، مزيناً به عرش الخلافة الإسلامية، مفتخراً بآثار جلالته الأمة العثمانية.

السيد محمد عارف الحسيني

(إمام الشافعية في الشام)

- فإذا ذكر التعليم والتعلم ـ في عهد عبد الحميد ـ فلا يسعنا إلّا أن نقول الحق فنعترف: أنهما رقيا فوق ما كانا عليه درجات، وأن معظم العثمانيين أصبحوا ولهم نصيب من العلم. ولقد

أربى عدد القارئين الكاتبين على عدد الأميين في كثير من الولايات.

سليمان البستاني

(كاتب شامي)

● كان عبد الحميد مقتنعاً بأن إعطاء الحرية للأمة دون سابق إعداد وتربية، من شأنه الإضرار بالأمة. لذلك حثّ الخُطا وشمّر عن ساعديه لإقامة المؤسسات الثقافية في البلاد.

سعدى بوراق

(كاتب وسياسي تركي)

● لو استمر عبد الحميد في الحكم، لما قامت حكومة أنقرة (برئاسة مصطفى كمال أتاتورك).

سير هنري وودز (١٩٢٤ م)

(مشير بالبحرية العثمانية)

● كان عبد الحميد دبلوماسياً عظيماً. كان يعرف جيداً كيف يمكن أن يستفيد إلى أقصى حد من التنافس الموجود بين الدول الكبرى الراغبة في التوسع والاستعمار. وكان هدفه إبعاد بلاده عن خطر الحرب في شكل المحافظة على علاقاته بالدول الكبرى.

سير هنري وودز

(مشير بالبحرية العثمانية)

● إن عبد الحميد مُجِدٌّ غايةَ الجد. إذ يعمل بحيوية وطاقة، تفوق جميع من يعمل معه من الوزراء. وهو سياسي من الدرجة الممتازة. فقد أدار البلاد العثمانية المترامية الأطراف، وكانت

مشرفة على الزوال، إدارة ممتازة، وأخذ بإصلاحها وترقيتها.

أليزابيث وُرملي ليتمر

(كاتبة أمريكية)

● إن أسمى رغائب السلطان عبد الحميد، أن يرى المسلمين في رفعة وسؤدد مجتمعين حول الخلافة.

مصطفى كامل باشا

(زعيم مصري)

● كان متواضعاً ورزيناً إلى درجة حيرتني شخصياً. متمسك بدينه غاية التمسك. يرعى العلماء ورجال الدين. إنني أستطيع القول بكل ثقة: إن العثمانيين إذا استمروا بالسير في الطريق الذي رسمه هذا السلطان، فإنهم سيسترجعون مجدهم السابق وقوتهم السابقة وسيصلون إلى مستوى الدول الأوربية في مجال الثقافة والاقتصاد في مدة قصيرة.

البروفيسور أرمينيوس فامبري

(مستشرق مجري)

● إنها لحقيقة تاريخية اليوم، أن السلطان عبد الحميد لم يكن حاكماً دموياً.

رشاد أكرم قوجي

(مؤرخ تركي معروف)

● أيها السلطان العظيم، لقد افترينا عليك دون حياء.

الدكتور رضا توفيق

(أكبر مفكر في حركة الاتحاد والترقي)

● لقد طيّر البرق إلينا النبأ المشؤوم، الذي فتّت الأكباد، وألبس

القلوب ثوب الحداد، وقد ساد الأسف بمجرد سماعه على العالم الإسلامي، في الهند وسائر الأقطار المعمورة، ومن التألم الناشىء منه تفتت الصدور. ذلك النبأ العظيم، الذي ألمّ بالعالم الإسلامي بأسره: نبأ عزل جلالة السلطان عبد الحميد الثاني من عرش الخلافة والسلطنة.

صحيفة الوطن

(صحيفة هندية)

● رغم قواته العسكرية الكبيرة المستعدة للقتال دفاعاً عنه، لم يضع الحرب والقتال نصب عينيه للدفاع عن عرشه. ولو كان فعل ذلك لما كان أحد أبداً يستطيع خلعه.

سير هنري وودز

(مشير بالبحرية العثمانية)

● قلنا: إن السلطان ظالم، وإن السلطان مجنون. قلنا: لا بد من الثورة على السلطان، وصدّقنا ما قاله لنا الشيطان. فثرنا، وأيقظنا الفتنة النائمة. ولم تكن أنت يا أعظم سياسيّ العصر مجنوناً. بل كنا نحن المجانين ولم نكن ندري. لم نكن مجانين فحسب، بل كنا أنذالاً أشراراً حُرِموا الأخلاق الطيبة.

الدكتور رضا توفيق

(فيلسوف الاتحاد والترقي)

● أَتعرف يا جمال ما هي مصيبتنا؟!.. قمنا بالانقلاب ونحن آلة في يد الصهيونية ولم نكن ندري. كنا أغبياء.

أنور

(من كبار الثوار ضد السلطان عبد الحميد)

تقويم
بالاحداث البارزة
في عهد السلطان عبد الحميد

تقويم

هـ - م

١٢٥٥ - ١٨٣٩

● إعلان فرمان التنظيمات.

١٢٥٨ - ١٨٤٢

● مولد السلطان عبد الحميد.

١٢٧٩ - ١٨٦٣

● زيارة عبد الحميد إلى مصر.

١٢٨٤ - ١٨٦٧

● زيارة عبد الحميد إلى أوربا.

١٢٩٣ - ١٨٧٦

● تولي السلطان عبد الحميد العرش.
● صدارة مدحت باشا.
● إعلان المشروطية الأولى وافتتاح مجلس المبعوثان.
● مؤتمر الترسانة.

هـ - م	
١٢٩٤ - ١٨٧٧	● عزل مدحت باشا ونفيه خارج البلاد. ● إعلان روسيا القيصرية الحرب ضد الدولة العثمانية. ● هدنة أدرنة بين الروس والعثمانيين. ● تعطيل مجلس المبعوثان. ● الصلح بين الروس والعثمانيين. ● فشل مؤامرة علي سعاوي في خلع السلطان عبد الحميد. ● فشل مؤامرة جمعية كلانتي الماسونية في خلع السلطان. ● الاتفاق العثماني - الإنكليزي ضد روسيا. ● توقيع معاهدة قبرص. ● توقيع معاهدة برلين.
١٢٩٨ - ١٨٨١	● تونس تخضع للحماية الفرنسية. ● فتح التحقيق في مقتل السلطان عبد العزيز. ● إدانة مدحت باشا وأعوانه بمقتل السلطان. ● الحكم بالإعدام على مدحت باشا. ● السلطان عبد الحميد يخفف الحكم من الإعدام إلى المؤبد.

هـ - م	
	● ديون الدولة العثمانية تنخفض إلى النصف.
	● قرار محرم وتشكيل هيئة الديون العمومية.
١٢٩٩ - ١٨٨٢	● الأسطول الإنكليزي يضرب الإسكندرية بالمدافع.
	● احتلال إنكلترا لمصر.
١٣٠١ - ١٨٨٤	● موت مدحت باشا خنقاً في سجن الطائف.
١٣٠٢ - ١٨٨٥	● انضمام الرُّومَلِي الشرقية إلى بلغاريا.
١٣١٢ - ١٨٩٤	● زلزال ضخم باستانبول.
١٣١٣ - ١٨٩٥	● فتنة الأرمن الثانية = الهجوم على بنك في استانبول.
١٣١٤ - ١٨٩٧	● إعلان الحرب على اليونان وتطورها.
١٣١٥ - ١٨٩٧	● الصلح بين الدولة العثمانية واليونان.
	● حصول جزيرة كريت على استقلال ذاتي.
١٣٢٠ - ١٩٠٢	● مقدونيا تبدأ في التمرد.
١٣٢١ - ١٩٠٣	● بدء التمرد المقدوني الكبير.
	● إجراءات إصلاحات في مقدونيا.
١٣٢٢ - ١٩٠٤	● موت السلطان مراد الخامس.
١٣٢٣ - ١٩٠٥	● حادثة القنبلة وفشل محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد.
١٣٢٤ - ١٩٠٦	● حل مشكلة العقبة وتأكيد مصرية طابا.

هـ - م	
	● بدء سياسة الاستعمار الإنكليزي ضد سياسة الجامعة الإسلامية.
١٣٢٦ - ١٩٠٨	● إعلان المشروطية الثانية.
	● إلحاق البوسنه - الهرسك بالنمسا.
	● استقلال بلغاريا.
	● إلحاق جزيرة كريت باليونان.
	● افتتاح مجلس المبعوثان.
١٣٢٧ - ١٩٠٩	● واقعة ٣١ مارت (١٣ إبريل = ٢٢ ربيع الأول).
	● التمرد الأرمني - واقعة أضنة.
	● جيش الحركة يأخذ طريقه إلى استانبول.
	● خلع السلطان عبد الحميد (الثلاثاء ٦ ربيع الآخر = ٢٧ إبريل).
١٣٣٦ - ١٩١٨	● وفاة السلطان عبد الحميد الثاني.

شيُوخ الإسْلام

في عهْدِ السُّلطان عبْد الحميد الثّاني

١ ـ حسن خير الله.
٢ ـ قَرَا خليل.
٣ ـ أحمد مختار مُلاَّ.
٤ ـ أحمد أسعد عرياني زاده.
٥ ـ حاجي عمر لطفي البدرومي.
٦ ـ محمد جمال الدين.
٧ ـ محمد ضياء الدين.

الصدور العظام

في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

١ ـ رشدي باشا.

٢ ـ مدحت باشا.

٣ ـ إبراهيم أدهم باشا.

٤ ـ أحمد حمدي باشا.

٥ ـ أحمد وفيق باشا.

٦ ـ محمد صادق باشا.

٧ ـ رشدي باشا.

٨ ـ محمد أسعد صفوت باشا.

٩ ـ خير الدين باشا التونسي.

١٠ ـ أحمد عارفي باشا.

١١ ـ سعيد باشا الصغير.

١٢ ـ محمد قدري باشا.

١٣ ـ سعيد باشا الصغير ـ للمرة الثانية.

١٤ ـ عبد الرحمٰن نور الدين باشا.

١٥ ـ سعيد باشا الصغير ـ للمرة الثالثة.

١٦ ـ أحمد وفيق باشا ـ للمرة الثانية.

١٧ ـ سعيد باشا الصغير ـ للمرة الرابعة.

١٨ ـ محمد كامل باشا.
١٩ ـ أحمد جواد باشا.
٢٠ ـ سعيد باشا الصغير ـ للمرة الخامسة.
٢١ ـ محمد كامل باشا ـ للمرة الثانية.
٢٢ ـ خليل رفعت باشا.
٢٣ ـ سعيد باشا الصغير ـ للمرة السادسة.
٢٤ ـ فريد باشا الآولونياوي.
٢٥ ـ سعيد باشا الصغير ـ للمرة السابعة.
٢٦ ـ محمد كامل باشا ـ للمرة الثالثة.
٢٧ ـ حسين حلمي باشا.
٢٨ ـ أحمد توفيق باشا.

● يُلاحظ أن خمسة من الصدور العظام من أصول غير تركية، وهم:

١ ـ إبراهيم أدهم باشا: يوناني (رومي) من جزيرة صاقيز.
٢ ـ أحمد حمدي باشا: أباظي من القوقاز.
٣ ـ أحمد وفيق باشا: بلغاري من البلقان.
٤ ـ خير الدين باشا التونسي: أباظي من القوقاز.
٥ ـ فريد باشا الآولونياوي: أرناؤوطي من ألبانيا.

● يلاحظ أيضاً أن اثنين من الصدور العظام ـ في هذه القائمة أيضاً ـ من الرقيق وهما:

١ ـ إبراهيم أدهم باشا.
٢ ـ خير الدين باشا التونسي.

المصادر والمراجع

أولاً ـ العربية

إبراهيم حليم بك: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، القاهرة ١٩٠٥ م = ١٣٢٣ هـ.

أحمد فهد الشوابكة: حركة الجامعة الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٠٩، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور صلاح العقاد والدكتور محمد حرب، أُجيزت من جامعة عين شمس عام ١٩٨٣، طُبعت فيما بعد.

حسين باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، جدة ١٣٥١.

سعيد سفر الغامدي: موقف المعارضة في المشرق العربي من حكم السلطان عبد الحميد الثاني في الشام ومصر ١٢٩٣ ـ ١٣٢٧ هـ = ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ م. رسالة دكتوراه بإشراف الدكتور محمد محمود السروجي. أُجيزت من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٥ م.

عبد الحميد (الثاني): مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتحقيق الدكتور محمد حرب، القاهرة ١٩٧٨ و ١٩٨٥.

غليوم (الثاني): مذكرات غليوم الثاني، ترجمها إلى العربية محب الدين الخطيب وأسعد داغر، القاهرة ١٣٤١.

محمد جميل بيهم: العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م.

محمد حرب: العثمـانيون في التـاريخ والحضـارة، بيروت ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م، دار القلم ـ دمشق.

محمد حرب: خريطة لمنطقة الحرم المكي وتقرير هندسي عنها، مجلة الدارة، الريـاض، العدد الثـالث، السنة الثـالثة عشـرة، ربيع الآخـر ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٧ م، ص ٤٣ ـ ٥٤.

محمد حرب: المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحركة حزب السـلامة في تـركيـا، بحث في «نـدوة اتجـاهـات الفكـر الإسـلامي المعـاصر» بـالبحرين عـام ١٩٨٥ م، مكتب التـربيـة لـدول الخليـج العربي، الرياض.

محمد عارف الحسيني (محمد عارف ابن السيـد أحمد المنيـر الحسيني الدمشقي): السعادة النامية الأبدية في السكة الحجازية الحديدية؛ في

Jacob M. Landau, The Hejaz Railway and the Muslim Pilgrimage, A Case of Ottoman Political Propoganda, Detroit, U.S.A. 1971.

محمد فريـد: تاريـخ الدولـة العلية العثمـانية، الـطبعة الثـانية، بيـروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م، تحقيق إحسان حقّي.

يوسف آصاف: تـاريخ سـلاطين آل عثمان، تحقيق بسـام عبد الـوهاب الجابي، دمشق ١٩٨٥ م = ١٤٠٥ هـ.

* * *

ثانياً ـ العثمانية

علي سعيـد: سراى خـاطره لـرى؛ سلطان عبد الحميـد خانـك حياتي، استانبول ١٣٣٨.

محمد الأمين المكي: خلفاى عظام عثمانية حضراتنك حرمين شـريفينده كى آثار مبرورة ومشكورة همايونلرى... استانبول ١٣١٩.

* * *

ثالثاً ـ التركية

Abdürreşid Ibrahim, 20 Asrin Başlarinda Islâm Dünyasi, 2 cilt, Mehmed Paksu, Istanbul 1987.

رحلة عبد الرشيد إبراهيم في «العالم الإسلامي» وانتشار الإسلام في اليابان، طبعت باللغة العثمانية بالحروف العربية في أستانبول عام ١٣٢٨. ونقلها إلى الحروف التركية اللاتينية محمد ياك صو بعنوان العالم الإسلامي وانتشار الإسلام في اليابان في أوائل القرن العشرين، في جزئين في أستانبول عام ١٩٨٧.

Ayşe Osmanoğlu, Babam Sultan Abdùlhamid, (Hatiralarim), Istanbul 1986.

مذكرات الأميرة عائشة بنت السلطان عبد الحميد الطبعة الثالثة، استانبول ١٩٨٦.

Celâl Paşa, Madalyonun Tersi, Samih Nafiz, Istanbul 1970.

مذكرات جلال باشا وهو ابن فريد باشا الأولونيالي، الصدر الأعظم، أعدها للنشر في اللغة التركية سامح نافذ طان صو، استانبول ١٩٧٠.

Cevat Eren, Tanzimat, Islâm Ansiklopedisi, cilt 5. 5.709-765, Istanbul 1970.

مقالة «التنظيمات» في دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة التركية)، وهذا المقال مؤلف، ألفه الأستاذ جواد أَرَنْ.

Enver Ziya Karal, Osmanli Tarihi, cilt 5, 8. Ankara 1983.

وهو كتاب التاريخ العثماني، المجلد الخامس والمجلد الثامن، من تأليف الأستاذ أنور ضيا فارال.

Hikmet Tanyo, Tarih Boyunca Yahudiler ve Türkler, 2 cilt, Istanbul 1977.

وهو كتاب «اليهود والأتراك عبر التاريخ» تأليف الأستاذ حكمت طانيو عميد كلية الإلَهيات بأنقرة، في مجلدين، استانبول ١٩٧٧ م.

Ibrahim Timo, Ibrahim Timo'nun Ittihat ve Terakki Anilari, Istanbul, 1987.

مذكرات إبراهيم تيمو وهو مؤسس جمعية «الاتحاد والترقي» وهـذه المذكرات طبعت عام ١٩٣٩ في «مجيدية» في رومانيا باللغة التركيـة وأعيد نشرها في استانبول ١٩٨٧.

Ilhami Soysal, Dūnyada ve Tūrkiye'de Masonluk ve Masonlar, Istanbul 1980.

الماسونية والماسونيون في العالم وفي تركيـا تأليف إلهـامي صوى صال، وهو الطبعة الثالثة من هذا الكتاب، استانبول ١٩٨٠. والكاتب من كتّاب اليسار التركي المعروفين.

Ihsan Sureyya Sirma, II Abdūlhamidin çin Mūslūmanlari Sūnni Mezhebine Bağlama Gayretlerine Dair Bir Belge, Tarih Dergisi, Istanbul 1979.

مقال «وثيقة خـاصة بجهـود السلطان عبد الحميـد الثاني في ربط مسلمي الصين بالمذهب السني»، تأليف الأستاذ إحسان ثريا صيرمـا الأستاذ بجامعـة أتاتـورك في أرضروم. صـدرت في مجلة التاريـخ، استانبول ١٩٧٩.

Ihsan Sūreyya Sirma, Fransa'nin Kuzey Afrikadaki Sōmūrgeciliğine Karşi Sultan II Abdūlhamid'in Panislamist Faaliyetlerine ait Bir Kaç Vesika, Tarih Enstitūsū, Dergisi, Sayl 7-8, Istanbul 1977.

مقال تأليف الأستاذ إحسان ثريا صيرما بعنوان «عدة وثـائق خاصـة بفعـاليات السلطان عبـد الحميد الثـاني الإسـلاميـة ضـد الاستعمـار الفرنسي في شمال أفريقيا»، مجلة معهد التاريخ في استانبول ١٩٧٧.

Ihsan Sūreyya Sirma, Pekin Hamidiyye Ūniversitesi, Islâmi Ilimler Fakūltesi, Tayyib Okiç Armağani, Ankara 1978.

وهـذا مقال عنـوانه «جـامعة السلطان عبـد الحميـد في بكين» من تأليف الأستاذ إحسان ثريا صيرما، ضمن «إلى ذكرى طيب أوق ايج» كلية العلوم الإسلامية بأرضروم، طبع في أنقرة ١٩٧٨.

Ihsan Sūreyya Sirma, Sultan II. Abdūlhamid'in Panislamist Siyasetinde Rol Oynayan Tarikatlara Dair Basilmamiş Birkaç Belge, Islami Ilimler Fakültesi Dergisi, Ankara 1979.

مقال الأستاذ إحسان ثريا صيرما عن «بضع وثائق لم تنشر من قبل عن الطرق الصوفية التي لعبت دوراً في سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الإسلامية» مجلة كلية العلوم الإسلامية بأرضروم، مكان الطبع: أنقرة ١٩٧٩.

M. Sūreyya Şahin, Fener Patrikhanesi ve Tūrkiye, Istanbul 1980.

كتاب: «البطريركية الأرثوذكسية اليونانية وتركيا» وهي بطريركية الفنار، تأليف م. ثريا شاهين. استانبول ١٩٨٠ وهي رسالة دكتوراه من كلية الإلّهيات في أنقرة.

M. Şūkrū Hanioğlu, Bir Siyasal Ōrgūt Olarak Osmanli Ittihad ve Terakki Cemiyeti ve Jōn Tūrklūk 1889-1902, Istanbul.

كتاب م. شكري «تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي العثمانية كمنظمة سياسية».

Mim Kemal Ōke, II. Abdùlhamit, Siyonistler ve Filistin Meselesi, Istanbul 1981.

ميم كمال اوكه، «السلطان عبد الحميد والصهاينة والمسألة الفلسطينية»، استانبول ١٩٨١.

Niyazi Berkes, Tūrkiye'de çağdaşlama, Istanbul 1978.

الأستاذ نيازي بَرْكَسْ: «المعاصرة في تركيا»، استانبول ١٩٧٨. والمؤلف عمل أستاذاً بجامعة ماكجل بكندا وهو اسم لامع في اليسار التركي.

Nihat Sayâr, Tūrkiye Imparatorluk Dōnemi Mali Olaylari, Istanbul 1977.

الأستاذ نهاد صايار، الأحداث المالية في عهد تركيا الإمبراطورية. استانبول ١٩٧٧.

Ōmer Sami Coşar, Atatūrk Ansiklopedisi cilt I, 1881-1908, Istanbul 1973.

دائرة معارف أتاتورك، تأليف عمر سامي جوشار، المجلد الأول،

من ١٨٨١ ـ ١٩٠٨، استانبول ١٩٧٣. وهي دائرة معارف خاصة بمصطفى كمال أتاتورك. لم يصدر منها إلا هذا المجلد الأول.

Osman Ergin, Türk Maarif Tarihi, Istanbul 1977.
عثمان أركين، تاريخ التربية التركية. في خمسة أجزاء. استانبول ١٩٧٧.

Orhan Kuloğlu, Abdũlhamit gercegi, Istanbul.
أورخان قول أوغلو، حقيقة عبد الحميد، استانبول.

Sina Akşin, Jõn Tũrkler ve Ittihat ve Terakki, Istanbul 1980.
سينا آق شين «تركيا الفتاة والاتحاد والترقي»، استانبول ١٩٨٠.

Sũleyman Kocabaş, Hindistan Yolu ve Petrol uğruna yapilanlar; Tũrkiye ve Ingiltere, Istanbul 1985.
سليمان قوجه باش، «تركيا وإنكلترا؛ طريق الهند وما بُذل في سبيل البترول» استانبول ١٩٨٥.

Sũleyman Kocabaş; Aurupa Tũrkiye'sinin Kaybi ve Balkanlarda Panislavizm, Istanbul 1986.
سليمان قوجه باش «الجامعة السلافية (الصقلبية) في بلاد البلقان، وفقد تركيا الأوربية» استانبول ١٩٨٦.

Sũleyman Kocabaş, Tarihte ve gũnũmũzde Tũrk-Yunan Mũcadelesi, Istanbul 1984.
سليمان قوجه باش، «الصراع التركي ـ اليوناني؛ في التاريخ وفي وقتنا الحاضر» استانبول ١٩٨٤.

Şehbenderzade Ahmet Hilmi, Islâm Tarihi, **Ziya Nur,** Istanbul 1982.
وهذا الكتاب من تأليف شهبندر زاده أحمد حلمي وهو بعنوان «تاريخ الإسلام» ألفه مؤلفه ليرد به على مطاعن المستشرق دوزي في تاريخ الإسلام، وقام المؤرخ ضيا نور بنقله إلى الحروف التركية اللاتينية مع تعليقات قيمة وزيادات وشروح، أفدنا هنا من الطبعة الثانية بالحروف اللاتينية من تعليقات ضيا نور، استانبول ١٩٨٢. وقد تفضّل المؤرخ ضيا نور بإهدائي نسخة مُوَقَّعة منه من هذه الطبعة.

Şerif Mardin, Jōn Tŭrkeler'in Siyasi Fikirleri, 1885-1908, Istanbul 1983.
الأستاذ شريف ماردين، «الفكر السياسي لتركيا الفتاة من عام ١٨٨٥ - ١٩٠٨»، استانبول ١٩٨٣.

Tŭrk Dili ve Edebiyati Ansiklopedisi, cilt 1 ve cilt 5. Istanbul 1977.
دائرة معارف اللغة التركية وآدابها، إصدار دار دركاه للنشر في استانبول وهي دائرة معارف متخصصة في ستة أجزاء. بدأ الجزء الأول في عام ١٩٧٧.

Yusuf Akçura, Osmanli Devletinin Dağilma Devri, Ankara 1985.
يوسف آق جورا، «عهد انحلال الدولة العثمانية»، الطبعة الثانية (إعادة تصوير) أنقرة، ١٩٨٥. والمؤلف من قادة القومية التركية المتطرفة.

Yilmaz Oztuna, Büyük Tŭrkiye Tarihi, cilt 7, Istanbul 1978.
وهذا كتاب ثقافي تاريخي في ١٤ مجلداً مؤلفه يلماز أوزطونة، صدر في استانبول عام ١٩٧٨.

Yusuf Hikmet Bayur, Tŭrk Inkilâbi Tarihi, cilt 1-1 Ankara 1983.

فهرس

الباب الثالث
الجامعة الإسلامية
(الوحدة الإسلامية في سياسة السلطان عبد الحميد الخارجية)

الباب الرابع
المعارضة في عهد السلطان عبد الحميد

قائمة بأهم المراجع: